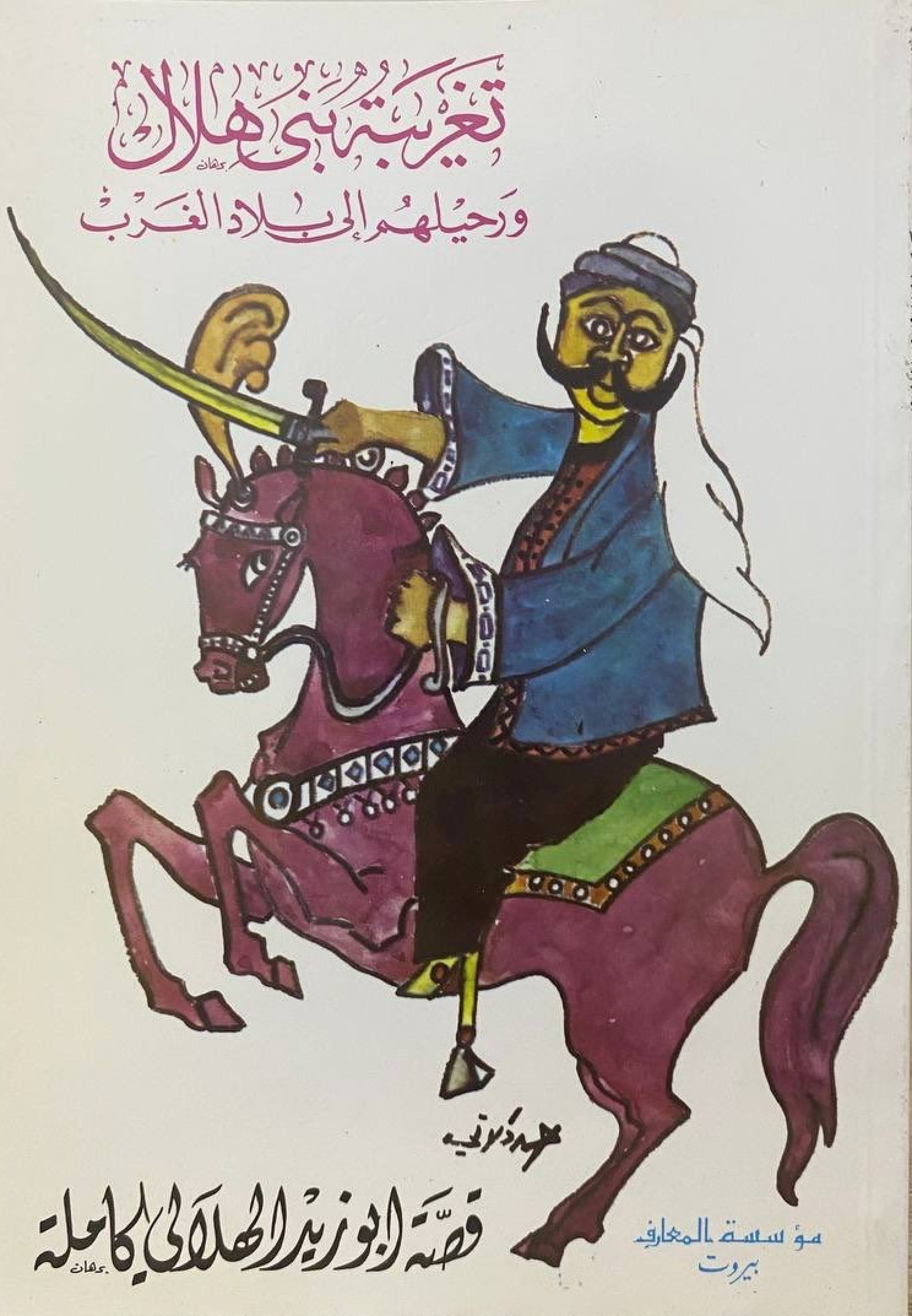

تغريبة بني هلال
ورحيلهم إلى بلاد الغرب
قصة ابو زيد الهلالي كاملة
مؤسسة المعارف
بيروت

الكتب والدراسات التي تصدرها
الدار تعبّر عن آراء واجتهادات
أصحابها



**مكتبة المعارف**
بيروت – لبنان

**الطبعة الأولى المجددة**
**1423هـ – 2002م**
ISBN 9953-436-07-X

**الإدارة العامة** : كورنيش المزرعة – جامع عبد الناصر – بناية إسكندراني – ط2
هاتف وفاكس : **00961-1-653852/00961-1-653857**
**المكتبة والمستودعات** :الطريق الجديدة - شارع حمد - بناية رحمة
هاتف وفاكس : **00961-1-640878**
ص . ب **11/1761** – بيروت – لبنان
E-mail: maaref@cyberia.net.lb
WWW.al-maaref.com

# تغريبة بني هلال

## ورحيلهم إلى بلاد الغرب

# قصة ابو زيد الهلالي كاملة

نُسِّقت هذه الطبعة وضبطت وصححت باشراف الناشر

مكتبة المعارف
بيروت

## مجموعة القصص والروايات الشعبية والتاريخية

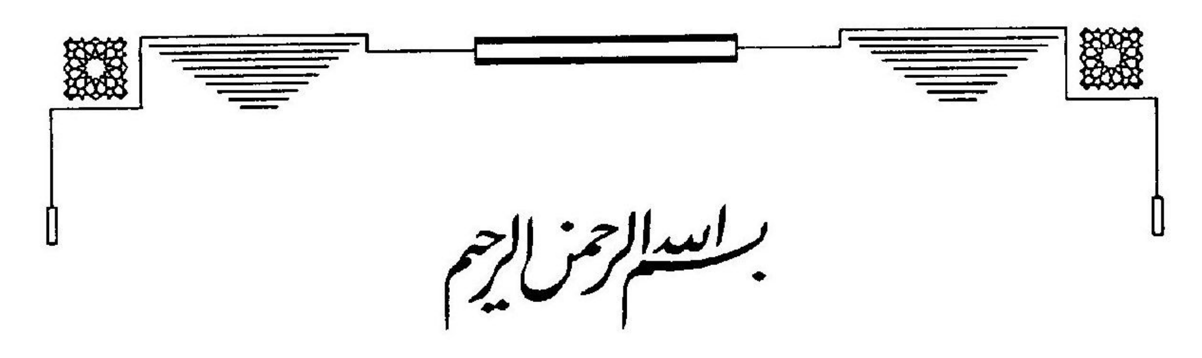
تسعى مؤسسة المعارف جاهدة لتقديم القصص والروايات التاريخية التراثية والتي رغم الطريقة القديمة المتبعة في كتابتها، كان لها الأثر الكبير في أدبنا الشعبي؛ تسعى المؤسسة لتقديم هذه الكتب إلى القراء الكرام بأسلوب أقرب منه إلى الطريقة الحديثة، سواء كان من حيث التبويب أو التنقيح، وذلك بحيث لا يفقد طابعه الشعبي الروائي والتاريخي الذي اشتهر وعرف به.

وقد قدمت من هذه المجموعة لحد الآن الكتب التالية، وهي جادة في تقديم المزيد منها:

- **عنتر بن شداد، جزءان.**
- **الزير أبو ليلى المهلهل بن ربيعة.**
- **تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب.**
  **قصة أبو زيد الهلالي كاملة.**
- **قصص الأنبياء.**
- **كليلة ودمنة.**
- **النبي أيوب، طرائف وحكم.**

---

**تطلب من مكتبة المعارف ص.ب ١٧٦١ ـ بيروت**



# قصة مغامس مع شاة الريم

كانت بلاد نجد من أخصب بلاد العرب، كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان حتى كانت تذكرها شعراء الزمان بالأشعار الحسان وتفضلها على غيرها نظراً لحسن هواها. وما زالت على رونقها الأول حتى تغيَّر قطرها واضمحل، وعمَّت البلاد المجاعة من جميع الجهات واشتدت على بني هلال، فاجتمعت منهم المشايخ والشبان وقصدوا مضارب الأمير حسن بن سرحان فدخلوا وسلموا عليه وقالوا له: اعلم يا ملك الزمان بأن الجوع قد اشتد وانقطعت المأكولات من نجد، فإن لم نتدارك الأمر في الحال انقرضت جميع بني هلال وفقدت المواشي والأموال.

فلما سمع الأمير حسن هذا الخطاب استعظم المصاب، وكان عنده جماعة من السادات الأماجيد، والفرسان الصناديد، منهم البطل الهمام أبو زيد فارس الصدام، والأمير دياب ابن غانم البطل المقاوم، والقاضي بدير بن فايد السيد الماجد، فأخذوا يتذاكرون في هذا الشأن نحو ساعة من الزمان فاستقر رأيهم على الرحيل من تلك الديار قبل حلول الدمار، ثم قال الأمير حسن لأكابر القوم: قوموا بنا نتخفى ونتفقد أحوال القبيلة في هذا اليوم، فتنكروا في الحال حتى لا يعرفهم أحد وركبوا ظهور الجمال وطافوا في المضارب والخيام مدة ثلاثة أيام حتى داروا على القبيلة ولم يجدوا من يدعوهم إلى ضيافته لأنه لم يكن عند أحد عشا ليلة، واتفق أنهم في اليوم الرابع أشرفوا على سهل وفيه عدة مضارب وخيام وحواشي وخدام كبير شهير اسمه مفرج بن نصير، وكان واقفاً عند الأبواب وهو في حالة الذل والاضطراب وعيناه تذرفان الدموع من شدة الجوع، فحيوه بالسلام ووقروه بالكلام، وقالوا له: يا أيها السيد الكريم أتقبل ضيوفاً قد قصدوك من أبعد إقليم من أكبر سادات العشيرة وأفضالك بين الناس معروفة شهيرة، فخجل من حديثهم وكلامهم ولم يجد بداً من إكرامهم، فقال: أهلاً وسهلاً بالضيوف فشرفوا محلكم، فنزلوا عن ظهور الجمال ودخلوا إلى خيامه وكان لمفرج زوجة يقال لها مي، فقال لها: اذهبي الآن واقصدي

بيت أبيك شيبان، لعلك تجدين شيئاً من أنواع الطعام تأتين به إلى ضيوفنا الكرام؛ لأنهم قصدونا دون باقي العربان وأتوا من أبعد مكان.

فلما سارت إلى بيت أبيها وطلبت منه شيئاً من الطعام، قال: والله يا ابنتي ما دخل بيتنا طعاماً منذ ثلاثة شهور، وإني خجلان منك فاعذريني بالقصور، فلما سمعت كلامه رجعت في الحال وأعلمت زوجها بذلك المقال وأنشدت شعراً طلبت فيه إلى زوجها أن يبيع ابنتهما ليعتري الضيوف.

فلما فرغت من شعرها قال لها زوجها: نِعْمَ الرأي والتدبير، قومي الآن أصلحي من شأنها، وألبسيها ثياب الحرير، حتى أدور في القبيلة جميعها وأدلل عليها وأبيعها، فقامت وألبستها أحسن ثياب وعطرتها بأفخر الأطياب، فتعجب الأمير حسن وأبو زيد ودياب، وقالوا: هذا الأمر غريب وحادث عجيب، ولكنهم صبروا حتى ينظروا ماذا يجري. وأما الأمير مفرج فإنه نهض في الحال وطاف بابنته أنحاء بني هلال، وهو ينادي ويقول: يا أهل الفضل والمعروف من يشتري ابنتي الثريا بعشاء أربعة ضيوف، وكان كل من ينظر إليها ويتأمل فيها يتحسر على جمالها وحسن معانيها ويقول: إذا اشتريناها ماذا نطعمها ونسقيها، ولما لم يجد أبوها من يشتريها أرجعها إلى المضارب، فقالت زوجته: علامك ما بعتها يا أمير، فقال: لم أجد من يشتريها مني لا بقليل ولا بكثير، فقالت له: اذهب بها إلى الأمير حسن أمير القبيلة فإنه يشتريها منك ولو بعشاء ليلة، فأخذها وسار، فعند ذلك خرج الأمير حسن من المضارب وسبقه وسار إلى صيوانه بدون أن يراه أحد من أهل الأمير مفرج، وأما الأمير مفرج وابنته لما دخل سلم عليه وقبل يديه وأنشد يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى المدعو أمير مفرج | ولي قلب موجوع وزاد أفكار |
| أيا أمير أتانا ضيوف جازوا محلنا | وداروا هلال كبارها مع صغار |
| وما عندنا بالبيت شيء نقيتهم | ولا مرتع للدود والأطيار |
| أخذت إلى بنتي ودرت نُجوعهم | ودرت ميامنها ودرت يسار |
| فلم أجد منهم من يشتريها | وأضيافي قد تركتهم بالدار |
| يا أمير ساعدني واجبر بخاطري | يجيرك إلهي من عذاب النار |
| وخذ بنتي واكسب الثنا | وجد لي بمال يزيل عنا العار |

فلما فرغ الأمير مفرج من الشعر والنظام، طيب الأمير حسن خاطره واحترمه غاية الاحترام، ثم أمر له بقنطار من الطحين وأن يرجع بابنته إلى خيمته، فشكره على ذلك الإحسان ورجع بالصبية وهو فرحان، ولما ابتعد وغاب عن المضارب والقباب، نهض الأمير حسن بالعجل وتزيا بزيه الأول وركب مطيته وسار إلى بيت مفرج فوصل

قبله، وأعلم الأمير أبو زيد بما فعله. ولما وصل مفرج أعلم زوجته بما ناله من الإنعام وبلوغ القصد والمرام، ثم قال لها: قومي الآن وضعي العشاء حتى تأكل ضيوفنا وتتعشى. فبادرت في الحال وعجنت وخبزت وقدم مفرج خبزاً إلى الضيوف بدون إدام. وقال: تفضلوا وكلوا ولا تؤاخذونا بالقصور فإني والله معذور، فقال أبو زيد: لو جلست معنا؛ كنا في غنى من هذا التعب والعناء، لأنه يوجد معي من الزاد ما يسد به رمق الفؤاد. ثم مد يده إلى الخرج وأفرغه على سفرة الطعام، فشكره مفرج على ذلك الاهتمام وجلس معهم يباسطهم بالكلام ثم تركهم ورجع إلى فراشه ونام، وهم ناموا إلى طلوع النهار فركبوا مطاياهم وقصدوا جوانب القفار.

ولما اقتربوا من وادي سلامة سمعوا صياحاً وضجيجاً مثل يوم القيامة، فتقدموا على الأثر ليكشفوا حقيقة الخبر ولما صاروا في ذلك المكان وجدوا جمهوراً من الرجال والشبان والنساء والصبيان يصيحون من قلب موجوع من شدة الجوع، فتقدم الأمير حسن إليهم وقد أشفق عليهم فطيب خاطرهم بالكلام وفرق عليهم جوائز الإنعام ثم ساروا إلى المضارب والخيام واستدعى إليهم سادات القبيلة وأكابر الجماعة وجعلوا يتفاوضون في أمر المجاعة، فاتفق رأيهم بوجه الإجمال على أن يرحلوا من تلك الأطلال بالأهل والعيال، وأن يذهب أبو زيد إلى بلاد الغرب وتلك الديار فيجس الأحوال، ويأتيهم بحقيقة الأخبار، ثم يرحلون بأولادهم وأثقالهم إلى تلك الأقطار، فقال أبو زيد للأمير حسن: لا يخفاك أطال الله عمرك وأبقاك، إن المسافة بعيدة طويلة فيلزم أن يكون معي جماعة من سادات القبيلة، فقال دياب: هذا الأمر من أسهل الأمور فخذ معك من تريد من الجمهور، فقال أبو زيد: متى طلع النهار يوفق الله كما يشاء ويختار، ثم عاد إلى الخيام في قلق واهتمام، فقامت له زوجته على الأقدام، وقالت له بكلام الدلال: ما لي أراك منقبض الوجه يا أبا الأبطال، فأعلمها بواقعة الحال وكيف اتفق رأيهم على إرساله لتونس ولا يوجد من يعتمد عليه ليأخذه على سبيل المعاونة والمؤانسة، وإني قد رهنت لساني مع القوم على أن أذهب ثاني يوم، فقالت له: إني أرشدك على حيلة تتخلص بها من هذه السفرة الطويلة، وهو أنك عند الصباح تدخل على الأمير حسن وسادات القبيلة وتقول بأنك مستعد أن تذهب إلى تونس بشرط أن يرسلوا معك مرعي ويحيى ويونس، فإنهم من أبناء الأعيان ولا تسمح بهم أهلهم أن يتغربوا عن الأوطان، وبهذه الوسيلة يكون عذرك واضحاً عند سادات القبيلة، فاستصوب منها هذا الكلام، وفي ثاني الأيام ذهب إلى عند الأمير حسن فالتقاه بالإكرام وقال: هل استعديت على الرحيل فقال: إنني في غاية الاستعداد للذهاب إلى تلك البلاد، غير أني أريد أن يكون معي رفقاء

وأصحاب من سادات الأعراب؛ لأن المسافة بعيدة ومشقات الطريق شديدة، فقال الأمير حسن: خذ معك من تريد من الفرسان الصناديد، فقال: أريد أن آخذ معي يونس ويحيى ومرعي لأنهم يعاونونني في الطريق عند كل شدة وضيق، وبهم يحصل النجاح والتوفيق وأعود إليكم سريعاً بلا تعويق، فاستعظم الأمير حسن هذا الطلب خوفاً عليهم من العطب، وكان يظن بأن أبا زيد يطلب غيرهم من فرسان العرب، ولكنه سمح له أخيراً بعد أن حدثهم بذلك الخبر، وفي اليوم الثالث تجهزوا للسفر وركب الأمير حسن بن سرحان في سادات القبيلة وأكابر الأعيان، وساروا لوداعهم مدة ثلاثة أيام على التمام، ولما عزموا على الرجوع إلى الأطلال والربوع بكوا من فؤاد متبول وأشار أبو زيد يقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... ونيران قلبي زايدات اللهايب
وعيني من كثر البكا قل شوفها ... جرى دمعها فوق خدي سكايب
اسمع كلامي يا أمير أبو علي ... وكن لقولي فاهماً ثم حاسب
غدونا بعون الله جل جلاله ... نرود دروب الغرب يم المغارب
وفي صحبتي مرعي ويحيى ويونس ... من أجلهم ذا النجع باكي وناحب
وعليا عيوني يا عرب في حيكم ... وصبراً وريا طويلات الذوايب
يا أبو علي بالك عليهم من العدا ... إذا هاجت الفرسان بين المضارب
أودعتكم لله ربي وخالقي ... ومن يلتجي لله ما راح خايب

فلما فرغ أبو زيد من شعره ونظامه، وفهم الأمير حسن وباقي الأمراء معاني كلامه، تقدم حسن أمام قواده وجعل يوصي أبو زيد بالأولاد ثم بكى وقال:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي ... دمعي جرى فوق خدي سكايب
ونيران قلبي كلما أقول تنطفي ... يزيد لها بين الضلوع لهايب
لفرقة مرعي صار قلبي ذائباً ... أصبحت كالسكران للخمر شارب
ويحيى ويونس نور عيني وضوها ... على بعدهم دمعات عيني سكايب
فارقتهم ما كان قصدي فراقهم ... ولكن أحوجتني لذاك مطالب
أيا هل ترى مرعي أراه بناظري ... وتزول أيام العنا والمتاعب
أيا دهر يا غدار مالك غدرتني ... ففارقت خلاني وكل الحبايب
أودعتكم لله ربي وخالقي ... ومن أودع الرحمن ما راح خايب
أوصيكم المزح لا تمزحونه ... فإنه بأكثر الأوقات غير صائب
وإذا أردتم تدخلون مدينة ... فيونس تراه يشتري ويحاسب
وإذا جادلتم عالماً بطريقكم ... فمرعي على ذاك الجدال يجاوب

وأبقوا ليحيى حارساً لجمالكم | فإنه سيحميها من الأغارب
ومن يم عليا منور عيني ومهجتي | وصبرا وريا أعز كل الحبايب
هذي وصايا احفظوها جميعاً | فإن كلامي كله قول صائب
وهذه مقالات الأمير أبو علي | فقلبي ذاب من هول المصايب

فلما فرغ الأمير حسن من هذا الشعر والنظام، بكى كل من كان حاضر ثم تقدمت امرأته الست نافلة، أخت الأمير دياب وهي في بكاء وانتحاب وجعلت توصي الأمير أبو زيد بولدها مرعي وتقول:

تقول فتاة الحي نافلة النسا | بكيت على الفرقة وما قد جرا لها
أبو زيد لا تترك لمرعي وحده | فإن غاب مرعي غاب عقلي وزالها
وحافظ عليه في الصباح وفي المسا | وداريه من الأخطار وامنع وبالها
فكم يوماً من نجد لبلاد تونس | فأعلمني حتى أعد ليالها
فيا ليت نجداً أرضها ما أمحلت | ولا راح مرعي للمغارب جالها

فلما فرغت الأميرة نافلة من كلامها، تقدم الأمراء فودعوهم ثم رجعوا إلى بلادهم وسار الأمير أبو زيد يقطع البراري والقفار ويوصل سير الليل بسير النهار، قاصداً تونس وتلك الديار، وأما الأمير حسن فإنه قال: مرادي أكتب تاريخ هذه الزيارة حتى تبقى ذكراً للجميع، فاستدعى الأمير زيد بن مانع وكان كاتم أسراره وكاتب الوقائع فلما حضر أمره بتسجيل بعض الأبيات.

فلما انتهى الأمير حسن من هذه الأبيات وسمعها السادات الكرام استحسنوها غاية الاستحسان، وسجلها زيد بن مانع في الديوان لتبقى لهم ذكرى في طول الزمان، وكانت جميع النساء والبنات والأمراء والسادات تدعو لرب السموات في أكثر الأوقات، وتطلب منه نجاح أبو زيد في تونس ورجوعه سالماً مع مرعي ويحيى ويونس، هذا ما كان من أمر القبيلة والأمير حسن. وأما ما كان من أبو زيد فإنه بعد رحيله من الوطن ما زال مجداً في المسير حتى أشرف على بلاد حزوة والنير، وهي بلاد كثيرة الخيرات واسعة الأراضي والجهات، وكان الحاكم عليها في ذلك الزمان ملك عظيم الشأن صاحب أبطال وفرسان، اسمه الدبيسي بن مزيد، فقصده أبو زيد وسلم عليه وتمثل بين يديه ووقف مرعي ويحيى ويونس حواليه، فقال أبو زيد: أطال الله عمرك ورفع مقامك فإنه وحيد العصر وأولى بالمديح والشكر، فلما سمع منه هذا الكلام قال له: من أي بلاد أنت. قال: نحن شعراء حجازية نقصد الأمراء الأجاويد، ونمدح الملوك الأماجيد، فنأخذ عطاهم وننقل ثناهم، فقصدناك الآن لنمدحك دون غيرك ونشكر فضلك وجزيل خيرك؛ لأننا سمعنا بجودك وكرمك، ومن

الاتفاق الغريب والأمر العجيب أننا مررنا على نجد وتلك الأوطان، مدحنا أميرها حسن بن سرحان فأجازنا بالجوائز السنية وخلع علينا الخلع الملوكية، وتلك البلاد الآن في غاية الضيق من شدة المحن وعدم وجود القوت والدقيق، ثم إن أبو زيد بعد هذا الخطاب عدل الرباب وأشار يمدح الدبيسي ويعلمه عن أحوال نجد بإنشاد ألوان القصيد.

قال الراوي: فلما سمع الدبيسي منه الشعر والنظام أكرمهم غاية الإكرام، وقال لهم: مرحباً يا وجوه العرب ثم أنزلهم في أحسن الخيام وأقاموا عنده عشرة أيام، وكان أبو زيد في هذه المدة قد عرف أحوال البلاد وما فيها من عساكر وأجناد، وميز مراكزها وجميع ضواحيها، وبعد ذلك ودع الدبيسي ورحل من ذلك البلد وهو قاصد بلاد المغارب، وقد جدوا بالمسير وسابقوا بجنودهم الطير وما زالوا يقطعون البراري والآجام مدة تسعة أيام، وكانوا يستريحون بالنهار ويقطعون الفلاة تحت ظلام الاعتكار، حتى وصلوا إلى بلاد العمق وهي بلاد الأمير مغامس، وكان دخولهم في الليل الدامس، ولما اقتربوا من الأبيات سمعوا أصوات المولدات ودق طبول وزمور تدل على فرح وسرور، فقال أبو زيد لأصحابه: أبشروا بالخير فإن أهل الحي مشغولون بعرس لهم ومن الصواب أن نقصدهم ونصرف هذا اليوم عندهم.

(قال الراوي): وكان السبب في ذلك أنه كان أخان أميران من أكابر الأعيان اسم الواحد عامر والثاني أبو الجود وكان للأمير عامر ولد اسمه مغامس جميل المنظر وكان لأبي الجود بنت اسمها شاة الريم وكانت في الحسن على جانب عظيم، فاتفق أبو الجود على أن يزوجها بمغامس ابن أخيه لأنه يحبه، وهكذا تم الاتفاق وصار تقديم المهر والصداق، وكان لهذين الأميرين عدو من ملوك العربان يقال له نبهان، فغار بجنوده ذات يوم على هؤلاء، فالتقاه أبو الجود، والأمير عامر بالأبطال والعساكر وجرت بينهم حروب تشيب رؤوس الأطفال، انجرح فيها الأمير عامر وقتل أبو الجود، وكان للأمير عامر عبد من الشجعان الصناديد يقال له: سعيد كان يرعى الجمال بين الروابي والتلال، فلما رأى تلك الحال وما حصل بمولاه من الوبال، ركب ظهر الحصان وهجم على نبهان وتبعته الأبطال والفرسان، بقلوب أقوى من الصوان، ولم يكن غير ساعة من الزمان حتى طعنه بالرمح بين بزيه، فألقاه على الأرض يتخبط بعضه ببعض، ثم انصب على جيش الأعداء فهزمه في تلك البيداء وبعد ذلك رجع إلى القبيلة بغنائم جزيلة فالتقته النساء بالنشائد والمدح الرائد وشكرته الرجال على تلك القتال وأكرموه غاية الإكرام، وفي اليوم الثالث، اشتد على الأمير عامر الألم حتى صار في حالة العدم، فاستقر رأيه على أن يقيم عبده سعيداً مكانه لبينما يكبر ابنه مغامس ويرتفع بين الناس قدره وشأنه، فجمع أكابر الديوان وقواد

الفرسان وأعلمهم بذلك الشأن ثم أحضر سعيداً وقال له بحضور السادات الأماجيد: اعلم أيها الفارس الصنديد، أني قد أقمتك مكاني ملكاً على هذه الأقاليم بينما يكبر ابني مغامس فتزوجه بابنة عمه شاة الريم ويصير هو الأمير وتكون أنت له من جملة الوزراء والأعوان.

(قال الراوي): فلما انتهى عامر من كلامه بكى كل من كان حاضراً من السادات الكرام وقال سعيد لمولاه: سأفعل ما أمرت به إني عبدك وفي نعمتك قد انتشيت وكبرت. ثم تفرقت العرب إلى المضارب والخيام، وبعد ثلاثة أيام شرب كأس الحمام، فغسلوه ودفنوه بالوقار والاحترام، وبكى عليه الخاص والعام. وفي اليوم الثاني جلس سعيد على الكرسي مكان مولاه الأمير عامر وأطاعته الأكابر والأصاغر، فكان يحكم في القبيلة ويفعل ما يريد ولا يعترضه أحد حتى تمكن غاية التمكين وصار من جملة الملوك المعظمين، فلما اشتهر أمره وانتشر بين الناس ذكره داخله الطمع على اختلاس المملكة وإلقاء ابن مولاه مغامس في مهاوي التهلكة، فجمع الأعيان والأبطال وقال لهم على رؤوس الأشهاد: اعلموا أيها السادة الأماجد أني صممت الآن على طرد مغامس من الأوطان وإرساله إلى أبعد مكان، فلا عدتم من الآن تساعدوه وتعاملوه بشيء مهما كان، وكل من خالف ولم يمتثل إلى أحكامي قطعت رأسه وأخمدت أنفاسه، فماذا تقولون: فقالوا: سمعاً وألف طاعة فما عدنا نعامله ولا نتكلم معه من هذه الساعة، لأنك أنت ملكنا وأميرنا وحامي بلادنا وأوطاننا فبينما هم في الحديث والكلام وإذا بالأمير مغامس قد دخل عليهم فحياهم فلم يجسر أحد أن يرد الجواب خوفاً من القصاص والعقاب، فتأثر من ذلك الأمر واحترق قلبه بلهيب الجمر، وعلم أن العبد مراده يتملك على القبيلة بالقوة الجبرية فارتد راجعاً على الأثر وأعلم أمه بذلك الخبر ثم بكى وتنهد وأنشد شعراً.

(قال الراوي): فلما انتهى مغامس من شعره ومقاله رثت أمه لحاله وقالت: إني خائفة من غدر هذا العبد فإنه نكر الجميل والمعروف، وبادأنا بالشر بعدما كان راعي جمالنا وعبدنا وخدامنا، فما انتهت من هذا الكلام حتى أقبل عليها بعض الخدام يخبرها أن تذهب بابنها من تلك الديار، وقد أرسل إليك هذه الناقة الجربانة وهذه الشاة في سبيل الإحسان والصدقة فاذهبي في الحال قبل حلول الوبال. فبكت أم مغامس من هذا الكلام، وتذكرت أيام زوجها وما كانت فيه من العز والإنعام وعلو الجاه ورفعة المقام، ولكنها أجابت الأمر بالسمع والطاعة ورحلت بابنها، وفي الطريق نصبا خيمة من القش وأغصان الشجر لتقيهما من حرارة الشمس وضوء القمر، وجلسا في ذلك المكان تحت مشيئة الرحمن.

(قال الراوي): هذا ما كان من أمرهما، وأما سعيد العبد الخائن اللئيم فإنه قد أرسل يطلب شاة الريم وأمر أمها أن تجهزها تلك الليلة وتصلح حالها حتى يدخل عليها، فلما سمعت شاة الريم ذلك الكلام كان عليها أشد من ضرب الحسام، وجعلت تبكي مع أمها على مغامس ابن عمها؛ لأنها كانت تحبه، ولما زاد عليها الحال أنشدت تقول من فؤاد متبول:

تقول شاة الريم من قلب حزين ... ودمع عيني فوق وجناتي غزير

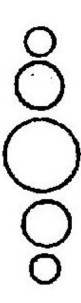
من بعد أبي وعمي قبله ... صار راعينا على رأس السرير

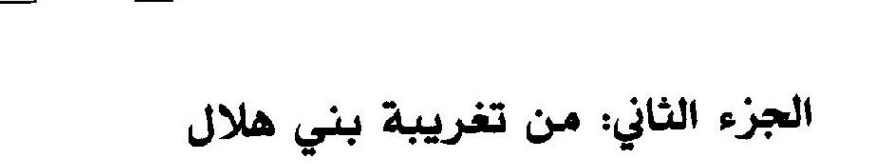
يا رب سعيد العبد أعدمه الحياة ... واكتب نصيبي في مغامس يا نصير

فلما انتهت من كلامها وفهمت أمها فحوى شعرها ونظامها قالت لها: اعلمي يا بنت أن الصبر مفتاح الفرج، ولا بد أن نجد لهذا الضيق من مخرج، فاصبري على حكم الله وعلى قدره وقضاه؛ لأن هذا العبد سعيد جبار عنيد وشيطان مريد، وقد ذلت له الفرسان الصناديد وابن عمك مغامس فقير الحال ليس له مال ولا رجال، وإن خالفنا له أمراً أخذك غصباً وقهراً، فمن الواجب أن نسمع كلامه ونمتثل أوامره وأحكامه، فلما سمعت شاة الريم من أمها هذا الكلام صبرت على أحكام رب الأنام، وكان العبد سعيد قد صنع في تلك الليلة وليمة لها قدر وقيمة، جمع فيها بعض الأعيان وأكابر الديوان، فدقت الطبول ونفخت الزمور وقام في القبيلة الفرح والسرور، ودقت المولدات بالدفوف ولعبت الفرسان بالرماح والسيوف، فلما سمع مغامس أصوات الطبول وصهيل الخيول قصد الحي تحت ظلام الليل، فعندما وقف على حقيقة الخبر، طار من عينيه الشرر من شدة الوجد والغرام وزواج ابنة عمه بدر التمام بذلك العبد ابن اللئام، فرجع وأعلم أمه بذلك فبكت شفقة عليه وجعلت تتلطف بخاطره وتقول: الله كريم فلا بد أن تكون من نصيبك شاة الريم، وكان في هذه اللحظة مرور أبو زيد ومن معه فسمع قولهما وبكاءهما فنزل إليهما يستفهم عن سبب بكائهما فأعلماه بما جرى من العبد سعيد، فقال في سره: لا بد أن أنصرهما وجلس عندهما، فقام مغامس وذبح ناقته التي ليس له غيرها وقدمها لهم، فأكلوا وشربوا وأخذ أبو زيد يغني على الرباب، وكان راع لسعيد العبد ماراً من هناك، فسمع غناء أبو زيد عند مغامس وأمه، فذهب وأخبر العبد سعيد بما رآه، وهذا أرسل في طلبهم فحضروا إلى العبد سعيد، فوجدوا عنده جماعة من السادات والأماجيد، وهو متكي على ظهره كأنه فحل جاموس ومنتظر قدوم العروس، فسلم أبو زيد عليه فلم يرد عليه ولا اكترث بكلامه، ولكنه قال لهم: كيف تكونون من شعراء العرب وأصحاب الفضل والأدب وتتركون زيارة الأمير وتقصدون عجوزاً لا قدر لها ولا

شأن، فقال أبو زيد: أطال الله عمرك وزاد في مقامك وقدرك إننا ما أتينا إلى هذه القبيلة إلا لنمدح جنابك ونتشرف بساحة أعتابك غير أن وصولنا كان في الظلام وكنا نريد أن نزور حضرتك في ثاني الأيام، إلى أن أرسلت في طلبنا مع الغلمان، فحضرنا حالاً لأمرك العالي فلا زالت أيامك في سرور وأفراح مدى الأيام والليالي، فلما انتهى أبو زيد من مقاله جلس على يمينه وجلس مرعي ويحيى ويونس عن شماله، وكان عند جلوسه ألقى ساعده على فخذ سعيد، بقوة وعزم شديد، فتألم سعيد من تلك الحركة وقال: لا مرحباً بك ولا حلت علينا البركة، قاتل الله أباك وأمك فما أثقل دمك، فقال أبو زيد: لا تؤاخذنا كثر الله خيرك ومعروفك ثم أنشد هذه الأبيات:







# الجزء الثاني: من تغريبة بني هلال

يقول الحجازي والحجازي سلامه | أرى الدهر يندر بالملوك الأفاضل
يا حيف أهل العز ولّى زمانهم | ومن بعدهم حكمت أولاد الأراذل
يا لهف قلبي على ملوك قد مضوا | حَكَم بعدهم في الناس خدام عاطل
أنا ناصر الأيتام بالسيف والقنا | وطاعن الأعادي فوق ظهر الأصايل
أنا منصف المظلوم جابر خاطره | أنا فارس الفرسان أرد الجحافل
أنا أزوج الزينات لأبناء عمهم | وأبعد عنهم كل خبيث مماطل
فلا خير في عبد علا فوق سيده | ولا خير في من يغدر أهل الفضائل
فلا تحسب أن الدهر يصفو لظالم | ولا بد ما أريك طعن الذوابل

(قال الراوي): فلما انتهى أبو زيد من هذه القصة اغتاظ منه سعيد وقال له: ما هذا الكلام الغليظ الشديد، يا أخس العبيد، فلولا سواد لونك كنت قطعت رأسك، وأخمدت أنفاسك، فاجلس مكانك واكفنا شرك ولسانك، ودع غيرك يطربنا بالكلام يا ابن اللئام، فعند ذلك التفت مرعي وقال له: لا تؤاخذه ولا تغضب عليه، فإنه من جملة العبيد الذين لا يعرفون مقام الملوك ولا لهم خبرة بحسن التصرف والسلوك، فإن كنت تريد غنيتك الآن بقصيد يستحق الإنعام ومزيد الإكرام فتزيل أكدارك وتريح أفكارك فقال سعيد: هات ما عندك. فأنشد شعراً أسوأ من شعر أبو زيد. فلما فرغ من كلامه وشعره ونظامه اغتاظ سعيد الغيظ الشديد، وصاح على الجلاد أن يقطع رأسه ويخمد أنفاسه، فمنذ ذلك اعتذر إليه يحيى أمام الحاضرين وكبار السادات المقدمين، وقال: لا تؤاخذهما من هذا القبيل أيها الملك الجليل، فإنهما من أناس بهاليل لا يعرفون مضمون الكلام ولا يميزون بين النور والظلام فأنا أمدحك بأبيات حسان ما سمعها أحد إلا وزال عنه الهم والأحزان؛ لأنها تشرح الصدور وتجلب السرور. فقال: هات ما عندك لعن الله أباك وجدك فأجاب يحيى بشعر أسوأ أيضاً من شعر مرعي، فلما فرغ يحيى من شعره ونظامه وفهم سعيد فحوى كلامه، زاد عليه الحال واستعظم المقال وصاح على الجلاد أن يقطع رأس الثلاثة قصاصاً لهم على ذلك الافتراء، فنهض يونس على الأقدام واعتذر إليه بالكلام، وقال: إن هؤلاء الشعراء من أوباش العربان لأنهم تكلموا بحضرتك بما لا يليق من الكلام، فإن

أردت أنشدك أبياتاً ما سمعها قط إنسان إلا استحسنها، فقال: بارك الله فيك أنشد وخذ مني ما يرضيك، فإن صدري ضاق وقلبي يحدثني بالفراق، فأنشد يونس شعراً أسوأ من شعر يحيى.

فلما فرغ يونس من شعره ونظامه وفهم سعيد فحوى كلامه، عظم عليه الأمر وتوقد قلبه بلهيب الجمر وقال لهم: أحضرناكم يا لئام حتى تطربونا بالشعر والنظام وتأخذون الجوائز والأنعام، ولكنكم أسأتم الأدب وخرجتم عن سنة العرب، وتكلمتم بما لا يليق أمامي ولا اعتبرتم قدري ومقامي، فلا بد من قتلكم على كلام الزور والنفاق. فلما انتهى من هذا المقال التقاه أبو زيد مثل سبع الآجام وضربه على رأسه بالحسام فقتله في الحال وأورثه الخبال ثم هجم على باقي العبيد وتبعه مرعي ويحيى ويونس الفرسان الصناديد، ولم تكن إلا لحظة من الزمان حتى أنزلوا بهم الهوان، ومسحوهم بالسيف الهندوان، وبعد ذلك جمع أبو زيد سادات القبيلة والوجوه الكبار، وقال لهم: ها قد قتلت هذا العبد الغدار وجماعته الأشرار، لأنهم قد طغوا وتجبروا فلا رحم الله العبد اللئيم والوغد الذميم؛ لأن مراده استخلاص المملكة من مغامس اليتيم، وأخذ ابنة عمه شاة الريم، فمرادي الآن أن أقيمه أميراً مقام أبيه فما هو رأيكم وماذا تقولون فيه: قالوا: هو ابن مولانا وقد رضيناه علينا أميراً ونحن عبيده وطوع يديه ولا نبخل بأرواحنا عليه، فعند ذلك ركب أبو زيد الحصان وركبت معه الأبطال والفرسان والسادات والأعيان، وقصدوا الأمير مغامس ومعهم الطبول والزمور، حتى وصلوا إليه فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه، وأعلمه أبو زيد بواقعة الحال وكيف أنه قتل ذلك العبد المحتال، ففرح مغامس بهذا الخبر وزال عنه القلق والضجر، ثم أحضره إلى الحلة مع أمه بموكب عظيم وزفوا عليه ابنة عمه شاة الريم، وأجلسه على الكرسي مكان أبيه وصارت العرب تمدحه وتهاديه؛ لأنه تخلص من أيدي أولئك العبيد الأوباش، فشكروا أبو زيد ومرعي ويحيى ويونس على ذلك الصنيع وأراد أن يمنعهم عن السفر إلى تونس، وأن يبقوا عنده فيزيد فرحه ويستأنس بهم. فقال أبو زيد: لا بد من سفرنا وها أنت أمنت من الخطر.

ثم أقام أبو زيد ثلاثة أيام في فرح وسرور وغبطة وحبور، وبعد ذلك ودع الأمير مغامس وسار مرعي ويحيى ويونس، قاصدين مدينة تونس وهم يجدون في قطع الروابي والتلال. فوصلوا إلى مكة المشرفة وقلوبهم على زيارة المصطفى متلهفة. وبعد أن زاروا المقام وأدوا واجبات الوقار والاحترام، اجتمعوا في بيت شكر الشريف بن هاشم وهو زوج الجازية أخت الأمير حسن، وأعلموه بخروجهم من

الوطن فترحب بهم وأكرمهم بمشاهدة أبو زيد ومرعي ويحيى ويونس. ثم أنهم ركبوا وساروا يقطعون البراري والآكام حتى أشرفوا إلى بلاد العجم. فدخلوا عليها وداروا في أسواقها، وبعد ذلك رحلوا من تلك الديار وواصلوا سير الليل بسير النهار حتى وصلوا إلى بلاد التركمان، فدخلوا على ملكها الغضبان ومدحوه بالقصائد الحسان، فأكرمهم غاية الإكرام وأجازهم بنفائس الإنعام، ثم ركبوا الخيول وجدوا في قطع البراري والسهول إلى أن وصلوا إلى عند الخفاجي عامر حاكم بلاد العراق. فدخلوا وسلموا عليه فرد عليهم السلام وأكرمهم غاية الإكرام ثم إن أبو زيد أخذ يمدح الخفاجي عامر، وطلب منه أن يمن عليه بإنعامه.

فلما انتهى أبو زيد من شعره ونظامه وفهم الخفاجي عامر فحوى كلامه، أجازهم بالجوائز الحسان ثم قدم لهم الطعام. فشكروه على هذا الاهتمام وأقاموا عنده ثلاثة أيام في عز وإكرام ثم ودعوه وجدوا في قطع البراري والآكام إلى أن وصلوا إلى الشهباء، وكانوا قد تعبوا من السفر فنزلوا عن خيولهم واستظلوا تحت أغصان الشجر. وكان أمير المدينة رجلاً عالي المقام اسمه الأمير بدريس وله وزير عاقل خبير اسمه الخزاعي، وهو صاحب رأي وتدبير فاتفق أنه خرج في جماعة من القوم قاصداً الصيد والقنص، فرأى أبو زيد ومن معه فسلم عليهم وسألهم عن أحوالهم فنهض أبو زيد وحياه، وأنشده، فأكرمه الأمير وأعطاه.

فلما انتهى أبو زيد من هذا الشعر والنظام شكره الخزاعي وقال لهم: اعلموا يا شعار العرب وأصحاب الفضل والأدب، إني الخزاعي وزير بدريس أمير حلب فاقصدوني إلى المدينة وأنا أخلع عليكم الخلع الثمينة، فيزول عنكم العنا وتنالوا القصد والمنى، ثم تركهم وسار فأرسل أبو زيد الأمير يونس إلى البلد ليأتيهم بالمأكل والمشرب لأنهم كانوا في غاية الجوع. فسار بالعجل وجعل يدور فيها ويتأمل في أسواقها وحسن مبانيها ثم رجع بالطعام وأخذ يشرح لأبي زيد عن حسن المدينة وعما شاهد فيها من القلاع الحصينة، وبعد ذلك ركب مع جماعته مرعي ويحيى ويونس وجدوا في قطع البراري والآكام ومروا بحماه وحمص وطرابلس حتى أشرفوا على مدينة الشام، وكان الحاكم عليها في ذلك الزمان ملك عظيم الشأن اسمه شبيب التبعي بن مالك بن حسان، وساروا ولو كان لهم أجنحة لطاروا إلى أن وصلوا إلى القدس الشريف، فأقاموا بها يومين ومنها ساروا إلى غزة ودخلوا على حاكمها الشركسي ابن نازب، فمدحوه بنفائس الأشعار واعتبرهم غاية الاعتبار، وأقاموا عنده عشرة أيام ثم جدوا في السير حتى وصلوا إلى العريش، ودخلوا على حاكمها البردويل بن راشد فمدحوه بالأشعار وأقاموا عنده ثلاثة أيام. ثم ودعوه وساروا إلى

أن وصلوا إلى مصر العدية وتلك الأراضي البهية، فقصدوا الفرمند بن متوج ودخلوا عليه ومدحوه بنفائس الأشعار فالتقاهم بالترحيب والوقار، وأقاموا عنده ثلاثة أيام وساروا قاصدين بلاد الصعيد وبلاد المغارب حتى وصلوا إلى عند القاضي ابن مقرب، ودخلوا وسلموا عليه ومدحوه بالأشعار فاعتبرهم غاية الاعتبار وقاموا عنده في إعزاز وإكرام. وكان هذا الرجل من أعلى الناس بكرم الضيوف ويجود بالألوف وهو الذي ذكره المؤرخ الشهير ابن خلدون في كتابه العبر. ثم تأهب أبو زيد للسفر فودع الماضي وسار مع جماعته.

(قال الراوي): واتفق أن جماعة من شعراء العربان كانوا قصدوا بلاد نجد ومدحوا الأمير حسن بن سرحان بالأشعار الحسان كما جرت العادة في ذلك الزمان، فأجازهم بالعطايا الجميلة والمواهب الجزيلة، وكانت من جملتها جارية من بنات الحي تسمى مي، فشكروه على هذا الجميل والإحسان ثم ساروا قاصدين بلاد العرب وتلك الأوطان، حتى وصلوا إلى تونس الخضراء ومدحوا الزناتي خليفة والوزراء، فأحسنوا إليهم وأنعموا عليهم ثم باعوا تلك الجارية الظريفة إلى سعدى بنت الزناتي خليفة، وكانت سعدى من أجمل البنات، لطيفة الذات، قد اتصفت بالأنس والمحاسن، وشاع ذكرها في جميع الأماكن، تجالس الأدباء وتنادم الملوك والأمراء ذات أدب وفضل لها معرفة بضرب الرمل، فاتفق أنها سألت تلك الجارية ذات يوم عن سبب وقوعها في أيدي أولئك القوم، فأخبرتها بالقصة وكيف أن الأمير حسن أوهبها لهم على سبيل الهدية، فقالت: وهل يوجد نظيري بين نساء العرب في الحسن والأدب؟ فقالت لها: يا صاحبة الجود والكرم إنه يوجد بين الأمم من يشبهك في الظرف والجمال ومكارم الشيم وحسن الخصال، وهو بطل الأبطال وزينة الرجال الأمير مرعي ابن مولاي حسن أمير بني هلال، فلما سمعت سعداء هذا الكلام تعلق قلبها بمرعي وهام؛ لأن الإنسان قد يعشق بسمع الأذان قبل المشاهدة والعيان، فقالت سعدى: إذا كان كلامك هو حقيق فأوصفيه لي على التحقيق فأشارت مي تقول:

| | |
|---|---|
| لو تنظري يا ست مرعي بنظرة | فنظرة في مرعي تزيل المصايب |
| له وجه مثل البدر عند اكتماله | وخدود تشبه ساطعات الكواكب |
| له خد أحمر والعيون نواعس | وكالسيف ماضي قفلة الحواجب |
| وطوله كعود الزان إن كان مايل | خلى نار قلبي تزيد اللهايب |

فقالت لها سعداء: قومي بنا إلى البستان وأنا أضرب هناك الرمل، وأنظر أحوال الذين ذكرتهم الآن، فإن قلبي تعلق بهم غاية التعليق ومرادي أن أعرف أخبارهم على التحقيق، ثم أخذتها معها إلى البستان وكان من أحسن المنتزهات

فضربت الرمل وولدت البنات من الأمهات، فتأكد لها ذلك الخبر وعرفت الأمور التي سوف تجري، وبينما هما في الحديث أقبل عليهما العلام ابن عم الزناتي خليفه ونائبه في معاطاة الأحكام، صاحب معرفة وفضل وعقل من خبر الناس في ضرب الرمل، وكان يتردد على سعدى في أغلب الأيام لأنه من جملة الأهل وبني الأعمام، فسلم عليها فردت السلام واستقبلته بالترحاب والإكرام، فجلس بقربها وكان قد عرف ما في قلبها لأنه ضرب الرمل في ذلك النهار وظهرت له الأخبار، فأعلمها بأفكاره وكشف لها أسراره فطلبت منه أن يكتم ذلك الخبر ولا يبيح به لأحد من البشر، خوفاً عليها من الضرر وقالت له: أريد منك يا ابن عمي أن تعلمني متى حضر هؤلاء القوم لأني بانتظارهم، فأجابها إلى ذلك الطلب ووعدها بالمساعدة على بلوغ الأرب، ثم ودعها وسار طالب الصيد والقنص.

(قال الراوي): هذا ما كان من سعدى وابن عمها العلام، وأما ما كان من البطل الهمام والأسد الدرغام أبو زيد فارس الصدام ومن معه من السادات الكرام، فإنهم كانوا قد جدوا في قطع الروابي والآكام، مدة عشرة أيام حتى وصلوا إلى تونس وقت الظلام، فباتوا خارج المدينة وفي اليوم التالي صاروا يتأملون في مبانيها فوجدوها متينة وأبراجها حصينة كثيرة القلاع قوية الدفاع، أنهارها غزيرة وخيراتها كثيرة، فجعلوا يدورون حواليها يتبصرون كيف يكون الهجوم عليها، ثم دخلوا إلى بستان واستمروا تحت أغصان الشجر وكانوا يقطفون ويأكلون الثمر، فبينما هم على تلك الحال إذ أقبل عليهم جماعة من الأبطال أرسلهم الزناتي ليقبضوا عليهم ويقيدوهم بالأغلال حيث بلغه خبرهم من بعض الفرسان بأنهم في ذلك البستان، فداروا بهم من اليمين والشمال فلما نظر أبو زيد تلك الفعال استعد للحرب والقتال، وهجم عليهم كالسبع وضرب بالسيف في ذلك الجمع فقتل منهم عدة رجال ومددهم على الرمال، ثم تكاثرت العساكر والجنود وأحاطوا بهم، وقبضوا على مرعي ويحيى يونس وأوثقوهم بالقيود والأغلال ولم يقدروا على أبو زيد في الحرب والقتال، فعند ذلك تقدم إليه العلام على انفراد وقال له: من تكون من العباد وما هو سبب مجيئكم إلى هذه البلاد. فقال أبو زيد: إننا شعراء من بلاد الشرق وعادتنا أن نمدح الأمراء وسمعنا بكرم الزناتي خليفة وما خصه الله من الشمائل اللطيفة، فقصدناه لأجل هذه الغاية الوحيدة، وكان وصولنا مساء فبتنا في هذا المكان حيث أننا غرباء لا نعرف أحداً، إلى أن أشرفتم بجمعكم علينا وأوصلتم أذاكم إلينا. وأنا اسمي محمود واسم جماعتي شداد وحماد ومسعود، فقال العلام: لقد كذبت في المقال وتكلمت بكلام المحال، ما أنت إلا الأمير أبو زيد صاحب المكر والكيد، وأما رفقاؤك فهم مرعي

ويحيى ويونس، وقد أتيتم إلى بلادنا لتعرفوا أحوالنا وقواتنا ثم تهجمون علينا وتحتلون بلادنا، ثم قال: امسكوه ولا تؤذوه فانطبقت الفرسان على أبي زيد من اليمين والشمال، حتى قبضوا عليه وأخذوه مع باقي أصحابه إلى الزناتي، ولما دخلوا عليه تمثلوا بين يديه، وقالوا: اعلم يا مولانا إن هذا العبد حاربنا ودهانا، وقتل منا أبطالاً وفرساناً، فاغتاظ الزناتي وتكدر من هذا الخبر، وقال لأبي زيد: من تكون من العربان يا أخس السودان، قال: نحن شعراء نقصد الملوك والأمراء فنمدحهم ونأخذ الإنعام ونحصل على بلوغ المرام، فسمعنا بكرمك فقصدناك من بلاد العرب، طمعاً بالفضة والذهب، وحيث إننا من الأعراب وليس لنا في هذه الناحية أصدقاء ولا أحباب، فدخلنا إلى ذلك البستان لنأخذ لأنفسنا راحة يا ملك الزمان، ثم نقصد جناحك العالي وباقي السادات والموالي، فأحاطت بنا العساكر مع الأهالي وغاروا علينا قاصدين قتلنا وأذانا، فاقتضى الحال أننا دافعنا عن أنفسنا بقدر الإمكان إلى أن وقعنا في الأسر والهوان، فأمر بما تشاء وتريد أيها الملك السعيد. فلما سمع الزناتي هذا الكلام وأبدى الضحك والابتسام، وقال لهم: يا مناحيس ما أنتم إلا جواسيس، أتيتم لترودوا البلاد وتعرفوا أحوال العباد، ثم تذهبون وتأتون بالعساكر والجمع الوافر، فتملكون بلادنا وأراضينا، وتتحكمون بجموعكم فينا، هذا هو السبب الذي قادكم إلينا وحملكم على القدوم والهجوم علينا، فلا بد من قتلكم يا أوغاد على رؤوس الأشهاد.

(قال الراوي): وكان الزناتي قد وقف على الخبر اليقين من المنجمين. وبعد مفاوضات طويلة مع أرباب المجلس استقر الرأي على شنق أبي زيد ومرعي ويحيى يونس. فأخذهم العسكر ومروا بهم من تحت قصر الأميرة سعداء، فلما سمعت ضجيج العسكر قامت جاريتها لتعلم ما الخبر فطلت رأسها من الشباك وأمعنت النظر فيهم فاعتراها الكدر. وقالت لمولاتها: اعلمي يا زينة الدنيا إن هؤلاء الثلاثة مرعي ويحيى ويونس وأما هذا العبد الرابع فهو ليث الوقائع الأمير أبو زيد فارس المعامع. فلما سمعت سعداء هذا الكلام، تبدل نهارها بالظلام لأنها كانت تعلقت بحب مرعي دون الأنام، فصاحت على الجلادين والعساكر والمحافظين وقالت لهم: ارجعوا إلى أبي بهؤلاء العرب وإياكم أن تقتلوهم فيحل بكم العطب، وإني سأتبعكم على الأثر لأقف على حقيقة الخبر، فلما سمعوا كلامها رجعوا في الحال، وذلك لما يعهدون من علو منزلتها ونفوذ كلمتها، ثم إن سعدى لبست أفخر الثياب وذهبت تخبر أباها بما فعلت ونصحته بعدم قتلهم لعدم ثبوت جرمهم واقترحت عليه حبسهم في قصرها، فأجابها إلى طلبها.

فأخذت الأربعة أنفار وحبستهم عندها في الدار، ثم أخذت من الطعام ما

يكفيهم ونزلت إليهم فاجتمعت بمرعي في أول الأمر وقالت له: كل ولا تخبر أحداً بل احفظ ذلك بالسر ثم فعلت هكذا بيحيى ويونس وقالت ليونس أن يرسل لها أبو زيد فلما حضر قدمت له شيئاً من الطعام فشكرها على هذا الاهتمام، ثم إنه قسمه على سبعة أقسام فسألته عن سبب ذلك فقال لها: اعلمي يا زينة الممالك وبدر الليل الحالك، إنني أنا وجماعتي أربعة وأنت والجارية اثنان على التمام، والحصة السابعة سأحزمها بحزام وأرسلها إلى ابنة عمي عاليا، فقالت له سعدى: لماذا لا تتغذى وحدك. فتنهد من فؤاد متبول وأنشد يقول:

إذا أكلت أنا وجاعت جماعتي ... فلا عشت عمري لسكب الصفائح
وإذا جعت أنا وأكلت جماعتي ... أحمد ربي وهو كريم مسامح
أيا ست زاد اثنين يكفي ثلاثة ... ويكفي أربعة يا ست والكل رايح
ويكفي خمسة من أجاويد حينا ... ويكفي لستة من هلال السمائح

فضحكت سعدى من كلامه وأعجبها فحوى شعره ونظامه، ثم إنها أخرجتهم من الحبس وأحضرتهم إلى عندها وقدمت لهم الطعام وأخذت تحادثهم بالكلام وتسألهم عن أحوالهم وعن بلادهم فقال أبو زيد: نحن من جملة الشعراء نقصد الملوك والأمراء فنمدحهم بنفائس الأشعار ونرجع إلى الديار بالدرهم والدينار، فقالت: إنكم لم تعلموني على التحقيق مع أنني عارفة بأحوالكم فأخذت تعلمهم بسفرهم وما جرى لهم في الطريق والسبب في قدومهم إلى تلك الديار شعراً.

فلما فرغت سعدى من كلامها شكرها الأمير أبو زيد على اهتمامها، وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح، ولما أصبح الصباح أمر الزناتي بإحضارهم، فلما أحضروا قال لأبو زيد: إذا أطلقناك إلى أن تأتي جماعتكم من الأوطان، فكم يوم تغيب عنا وماذا تجيب لنا، فقال: أغيب ثلاثة شهور وأجيب لك أربع مية ألف مدرع مشهور، فقال: وما هو مرادك من المدرع أيها البطل الصميدع، فأخرج الأمير أبو زيد من جيبه قطعة من الفضة الخالص وقال: هذا هو المدرع، ففرح الزناتي بذلك وقال: اذهب بأمان، فقال: أعطني عدة حرب وحصان لأن الطريق مخطرة، فأعطاه ما طلب فودع الزناتي وذهب، وجعل يدور البلاد ويطوف في المدائن، حتى أشرف على وادي الغباين وتلك الأماكن، فوجدها كثيرة المياه والنبات متسعة البراري والفلوات تصلح للحرب والقتال، ومرعى النوق والجمال، ثم سار من هناك إلى فابس ومنها إلى عين دورس فوجدها أحسن محل لامتلاك تونس، وقد تعجب من خيرات البلاد وكثرة ما فيها من الإيراد، ثم طاف جميع البلاد وعرف السهول والوهاد ورجع ليرى أحوال البلاد، ولما دخل إلى قصر سعدى فرآه مطلياً بالرصاص وكان

الوقت نصف الليل فأرعدت الدنيا وأبرقت، حتى قام الأولاد من نومهم وعادوا يذكرون بلادهم وصار مرعي ينشد الشعر ممزوجاً بالخيبة.

فلما فرغ مرعي من شعره كان أبو زيد واقفاً تحت القصر يسمع، ثم رآه الطواشي ففتح له ودخل عندهم وسلم عليهم، فقالوا له: أين كنت يا أبا زيد إلى الآن، أنت في تونس ونحن نقاسي أشد الضيق، فقال: إنني تهت عن الطريق وقد صممت الآن على السفر وأتيت لوداعكم، ثم تقدم وودعهم وأوصى سعدى بهم ثم بكى بكاء شديداً وتقدم الأمير مرعي يودعه.

فلما فرغ الأمير مرعي من كلامه قال أبو زيد: لا يكون لك أدنى فكر لأنني سأبذل الجهد في تخليصكم، ثم ودعهم وسار وعيناه تذرف بالدموع، وسار يقطع البراري والقفار مدة عشرين يوماً حتى أقبل إلى أرض الصعيد، فدخل على القاضي ابن مقرب وأخبره بما جرى له من الأول إلى الآخر، فبكى القاضي بكاء شديداً، ثم إنه بقي بضيافته نحو يومين وبعد ذلك ودعهم وسار يقطع البراري والقفار عدة أيام حتى وصل نواحي حلب فجلس في ظل شجرة هناك لأخذ الراحة، فبينما هو جالس أقبل عليه تاجر وحياه بالسلام ثم سأله الأمير أبو زيد عن حاله، فقال: إني تاجر قاصد بلاد المغرب، فقال له: هل تعرف الأمير علام؟ فقال له: من أعز أصحابي وأعظم أحبابي فقال له أبو زيد: أرغب أن أعطيك كتاباً توصله إليه فقال: اكتب ما بدا لك. فعند ذلك أخذ أبو زيد يكتب للعلام ويقول:

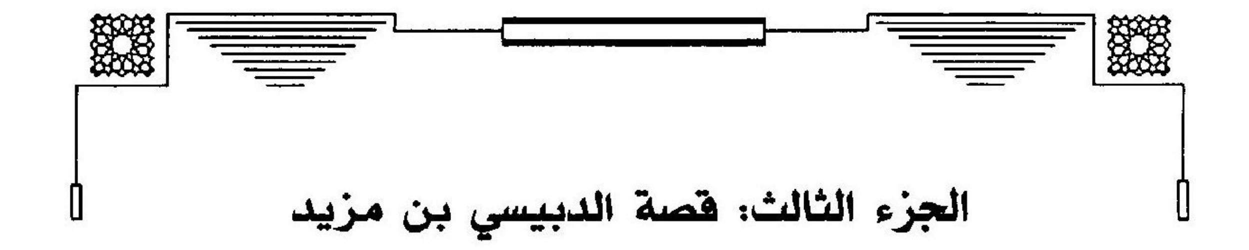
يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... فمن كان شقي لا تسعده الأيام
نعم أيها الغادي وحامل كتابنا ... تجد السرى في واسع الآكام
إذا جيت تونس وقابس وأرضها ... فسلم على الفتى المسمى العلام
أوصيك في مرعي ويحيى ويونس ... أولاد أختي من فروع أكرام
فلا بد ما أرجع أعود وأنثني ... ولا بد ما آتي بقوم لزام
بأربع تسعينات ألوف عدادهم ... تشبه جراداً منتشر بغمام
ولا بد من لطمة على باب تونس ... ويبقى الدما فوق الثرى عوام
ولا بد من قتل الوهيدي بصارمي ... وأبقي الزناتي بالقبور ينام
وأهلك بلاد الغرب بحد صارمي ... وأملكك في الغرب يا علام

فلما فرغ أبو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه فأخذه التاجر وسار يقطع البراري والقفار حتى أشرف إلى تونس وتلك الديار فأخذ المكتوب وسلمه إلى العلام، ففضه وقرأه وعرف حقيقة فحواه، وأما الأمير أبو زيد فإنه ما زال يجد المسير مدة خمسين يوماً حتى أقبل إلى نجد، وحين دخوله إلى نجع بني هلال التقاه

الكبار والصغار حتى أقبل إلى صيوان الأمير حسن فدخل وسلم عليه وعلى الذين حواليه فلما رآه الأمير حسن والأمير دياب والقاضي بدير والأمير زيدان تقدموا إليه وقبلوه بين عينيه وأجلسه الأمير حسن بجنبه ودارت البشائر في بلاد نجد بأن الأمير أبو زيد حضر من بلاد الغرب، فاجتمعت الفرسان من كل جانب ومكان حتى احتبك الديوان، وحينئذ سألوه عن مرعي ويحيى ويونس، فعند ذلك بكى الأمير أبو زيد بكاء شديداً وأشار يخبرهم عما جرى له بقصيدة أنشدها أمامهم.

فلما فرغ أبو زيد من الشعر بكى الأمير حسن ومن حضر من السادات الكرام لا سيما أهل الأولاد، فقد تفطرت منهم الأكباد وقالوا لأبو زيد: اعلم يا فارس الفرسان إننا لا نفك عنك ولا نعرف أولادنا إلا منك، فقال: كونوا براحة بال فإني كما أخذتهم من الأطلال سأرجعهم وهم على أحسن حال وأنعم بال، فالتفت الأمير حسن إلى الحاضرين وقال لهم: مرادي الرحيل إلى بلاد الغرب وأقيم هناك الحرب وأخلص الأمراء بالطعن والضرب، فاستحسنوا هذا الخطاب وقال أبو زيد: هذا هو الرأي الصواب، ولكن قبل الرحيل من هذه الأطلال بالفرسان والأبطال والنساء والعيال، يجب أن تأتوا بالجازية لتركب أمام ظعون بني هلال مع الست ريما والست عدلا والست ريا وسعدى الرجا وبدر النعام وجوهرة العقول ونجمة السحور وزين الدار والست عليا لأنه إذا اشتعلت نيران الحرب ووقع الطعن والضرب تكون الجازية وباقي السيدات أمام الأبطال في العماريات لأن الجازية من النساء المشاهير ذات رأي وتدبير، وهكذا تم الرأي بين الأمراء والأعيان وأرسلوا أربعة وعشرين فارساً من الشجعان للرحيل بنساء القبيلة، وتأهبوا للطعن والضرب والسير إلى تونس الغرب، وأمر الأمير حسن بدق طبل الرجوج فدق الطبل في الحال واجتمعت الفرسان والأبطال، وسارت الرجال ودخلوا على الأمير حسن بن سرحان وهو في الديوان، فأخبرهم بما جرى وقال لهم: استقر رأينا أن نرحل من الأوطان ونقصد بلاد الغرب بعد ستة أيام فكونوا في الاستعداد التام لأن أرضنا قد أمحلت ووقع بنا الغلا وأولادنا في أسر الزناتي خليفة يقاسون العنا.

قال الراوي: وفي اليوم السابع تجهز الأبطال للمسير والارتحال فهدت المضارب والخيام وانتشرت الرايات والأعلام ودقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول، واعتقلوا بالسيوف والنصول وركبت الحريم والعيال والأولاد والأطفال ونساء الأمراء والجازية أم محمد وكان الأمير أبو زيد في مقدمة الفرسان، وساروا عدة أيام حتى أشرفوا على بلاد حزوة والنير فنزلوا هناك ونصبوا المضارب والخيام وكان الحاكم عليها الدبيسي بن مزيد وكان من صناديد الأبطال.



# الجزء الثالث: قصة الدبيسي بن مزيد

لا يقدر العواقب ولا يخشى حلول المصائب. وكان في الشجاعة والفروسية في طبقة علية يفتخر بنفسه ويفضل ذاته على جميع الفرسان في ساحة الميدان ويقول: إنه إذا ركب الجواد لا يوجد من يقاومه في الحرب والطراد، ولو كان أبو الفوارس عنترة بن شداد، وكان له أربعة وزراء يركن إليهم ويعتقد في أموره عليهم، وهم مقلد وهمام وراشد وسلام وله ولد اسمه مزيد قد سماه على اسم جده وكان يحبه كثيراً، ومن شدة محبته فيه أراد أن يزوجه بابنة أخيه فجمع وزراءه وأخبرهم بما قد صمم عليه فأجابوا على ذلك المرام ما عدا الوزير همام، فإنه كان صاحب رأي وتدبير فنهاه عن ذلك في الوقت الحاضر، وأعلمه بقدوم بني هلال إلى تلك البلاد بالجيوش والعساكر، فانذهل الدبيسي وحار في أمره وبينما هو في مجلسه دخل عليه الرعيان وأخبروه بقدوم بني هلال وأنهم ملؤوا الأرض بجيشهم فاستشار الدبيسي وزراءه فأشاروا عليه بأن يرسل من يستطلع عددهم، فأرسل العبد راشد إلى مضارب بني هلال، فانذهل مما رأى من كثرة الرجال والأبطال والفرسان ورجع إلى الدبيسي وأخبره بما رأى فزاد خوفه وفزعه فاستدعى إليه الوزراء وأخبرهم بذلك، فلم يجبه أحد بكلام، فقال لهم: ما بالكم لا ترون الجواب فقال الوزير راشد: إنه من الواجب أن ترسل لهم كتاباً تأمرهم بدفع عشر المال مع النوق والجمال، فإن امتنعوا عن ذلك فنقاتلهم في الحال ونشتتهم في البراري والتلال، فاكتب لهم بهذا الصدد وأنا آخذه إليهم وآتيك بالجواب، فاستصوب الملك رأيه وكتب لهم كتاباً يقول فيه:

| | |
|---|---|
| يقول الدبيسي والدبيسي مزيد | بدمع جرى فوق الخدود بدود |
| ألا يا غادياً على متن ضامر | تشابه غزالاً بالفلاة شرود |
| إذا جيت عند الهلالي أبو علي | أعطيه مكتوبي تنال سعود |
| ألا يا حسن اسمع كلامي واعتبر | وافهم مني غاية المقصود |
| فإن كان قصدك تجوز بلادنا | فأرسل لنا عشر مالك حتى ترود |
| أرسل لنا ألفين حمرة سليلة | وألف جواد يامير هدود |
| وألفين سيف يا أمير مسقطة | وألف درع من عمل داود |
| وأرسل لنا الجارية أم محمد | مع الست عليا بغية المقصود |

وأرسل لنا معها بنات أمارتك واحذر تخالف لا تكون حقود
وإن كنت لا تدفع لنا ما ذكرته فارجع لأرضك وإياك تعود

ثم ختم الكتاب وأعطاه للوزير راشد، فأخذه وسار حتى أشرف على بني هلال فنزل من على الحصان فسلم على السلطان، وعلى باقي الأمراء فردوا عليه السلام والتقوه بالترحاب والإكرام، وأمر له بالجلوس فجلس بقربه وسأل عن اسمه وعربه فأعلمه بواقعة الحال وعن سبب حضوره إلى تلك الأطلال ثم أعطاه الكتاب، فأخذه الأمير وقرأه، ولما وقف على حقيقة فحواه غضب الغضب الشديد لكنه أخفى الكمد وأظهر الجلد، ثم أمر الغلمان أن يأخذوا الوزير إلى دار الضيافة، ولما خرج من الديوان التفت إلى الأمراء والأعيان وأطلعهم على خطاب الدبيسي الذي يطلب فيه عشر المال، فقال أبو زيد: إنه من الصواب أن تقول للدبيسي أن يمهلنا عشرة أيام ونحن نرسل له طلبه بالتمام ومتى انقضت المدة ولح في الطلب تقول له: ليس عندنا مال ولا ذهب سوى الحرب والقتال في ساحة المجال، وبهذه الحالة تكون فرساننا قد استراحت من تعب الطريق.

وتبادل الدبيسي وحسن الحوار شعراً، ثم إن حسن طوى الكتاب وختمه في الحال وسلمه إلى الوزير فأوصله الوزير إلى الدبيسي ودخل وسلم عليه وأعطاه الكتاب ففتحه وقرأه وعرف ما حواه ففرح واستبشر وأيقن بالنجاح وبلوغ الوطر، ولما انتهت العشرة أيام لم ترسل بنو هلال الأموال، قال الدبيسي للوزير: ها قد مضت المدة المعينة ولم نقف على إفادة ولا وردت الأموال، فيجب أن تسير إليهم وتطلب منهم أن يبادروا بإرسالها في الحال وإلا حاربناهم وأنزلنا بهم الوبال. فامتثل الوزير أمره وسار إلى صيوان الأمير حسن ودخل وسلم عليه، ثم جلس قليلاً وبعد ذلك طالبه بالمال، ولامه على ذلك الإهمال، فقالت السادات: ارجع إلى مولاك وقل له ليس عندنا مال ولا نوق ولا جمال، غير ضرب السيف وطعن النصال. فاغتاظ الوزير من هذا الكلام ورجع إلى مولاه وأخبره بما سمعه من القوم فزاد غيظ الدبيسي، وأمر الرؤساء والقادة بجمع العساكر والأجناد، فعند ذلك دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلت بالرماح وخفقت الرايات وركبت الأبطال بأربع مائة ألف مقاتل.

(قال الراوي): فلما ركب الدبيسي ومعه العسار والأجناد، طالباً ديار بني هلال، اقترب منهم فالتقوا به ودنوا من بعضهم، فبرز من فرسان الدبيسي فارس كأنه الأسد الكاسر اسمه الأمير خاطر، فبرز إليه دياب فقال له من تكون من بني هلال، فقال: أنا دياب المصادم وصاح فيه، وهم عليه فالتقاه الفارس كالأسد الكاسر،

وجرى بينهما حروب وأهوال تشيب رؤوس الأطفال وبعد ذلك اختلف بينهما ضربتان قاطعتان، وكان السابق الأمير دياب لأنه أعلم في أصول الحرب وأخبر في مواقع الطعن والضرب، فوقعت الضربة على هامه فقدته نصفين، ثم سال وجال وطلب مبارزة الأبطال، فبرز إليه فارس آخر فقتله وثان جندله وثالث عجل إلى المقابر مرتحله، وما زال يبارز الفرسان والأبطال ويمددها على وجه الرمال إلى وقت الزوال، دقت طبول الانفصال وبات الفريقان يتحارسان تحت مشيئة الرحمن، ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، برز الأمير دياب إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه الوزير راشد، فالتقاه الأمير دياب بقلب كالحديد. ثم التقى البطلان كأنهما جبلان أو أسدان كاسران، وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين ولم تكن إلا ساعة من الزمان، حتى استطال عليه دياب في الميدان وطعنه بالرمح في صدره، خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً، فلما قتل الوزير راشد هجمت جموع الدبيسي بقلب واحد فتلقتهم بنو هلال بقلوب كالجبال واشتد بين العسكرين القتال، وعظمت الأهوال، فما كنت ترى إلا وقع السيوف على السيوف وقتال يشيب الأطفال، وما زال القوم على تلك الحال وهم في أشد قتال إلى وقت الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فتأخرت عساكر الدبيسي خاسرة ورجعت بنو هلال ظافرة، وفي ثاني الأيام دقت طبول الحرب والكفاح، فركبت الفرسان واعتقلت بالسيوف والرماح وبرز الأمير دياب فصال وجال في ساحة المجال، وطلب مبارزة الأبطال فبرز إليه الوزير محمود فالتقاه الأمير دياب بقلب شديد.

ثم إن الوزير هم على دياب فالتقاه دياب بقلب شديد وهجم عليه هجوم الصناديد، واشتد بينهما القتال في ساحة المجال، فاختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الوزير محمود، فغطس دياب تحت الخضرا فراحت الضربة خائبة، ثم انتصب الأمير دياب وهجم عليه كسبع الغاب وضربه بالسيف على هامه، فقطعه نصفين وكان له أخ يدعى الهداف، فلما رأى أخاه قد مات زادت عليه الحسرات فهجم على الأمير دياب ليأخذ بثأر أخيه فالتقاه الأمير دياب في الميدان بقلب أقوى من الصوان، وجرى بينهما حروب وأهوال تشيب رؤوس الأطفال، واستمرا على تلك الحال وهما في أشد قتال، إلى أن ولى النهار وأقبل الليل، فوقفا عن القتال وباتت العساكر في البطاح، ولما أصبح الصباح دقت طبول الحرب والكفاح وبرز الهداف إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه دياب وصدمه كليث الغاب، فالتقاه الهداف وهجم عليه هجوم الأسد الرئبال، وما زالا في أشد قتال وطعان يذهل عقول الشجعان، إلى أن انتصف النهار وكان أن استظهر عليه

دياب وضربه على عنقه بالسيف البتار فقطعه نصفين وألقاه في ساحة المجال، فلما رأت جموع الدبيسي ما حل بوزيرها، هجمت على دياب، فعند ذلك هجمت بنو هلال من اليمين والشمال، والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال من شدة الحرب والقتال، وما زالوا على تلك الحال إلى وقت الزوال، فدقت طبول الانفصال وباتت بنو هلال في سرور، وبات الدبيسي في قلق وضجر لأنه قد قتل من قومه أكثر الرؤساء والقواد.

ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، ركبت الفرسان إلى الحرب والكفاح، وكان أول من برز إلى الميدان وطلب قتال الشجعان الملك الدبيسي، فصال وجال في ساحة المجال ونادى أين فرسان بني هلال، فلتبرز الآن إلى ساحة القتال. فما أتم كلامه حتى صار الأمير دياب قدامه وأنشد شعراً يهدد به الدبيسي فاغتاظ الدبيسي منه، ورد عليه، فاغتاظ دياب بدوره وانطبق عليه، وفعل الدبيسي مثل ما فعل وأخذا في الحرب والقتال وجرى بينهما عجائب وأهوال، إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، فافترقا عن بعضهما البعض وعند رجوع الأمير دياب من معركة الصدام التقاه الأمير حسن بإعزاز وإكرام وشكره على ما فعل، وقال له: لا تنزل غداً إلى الميدان لأن لك عدة أيام في الحرب والصدام والدبيسي مرتاح، ثم ختم الكلام بهذا الشعر والنظام:

| | |
|---|---|
| قال الفتى حسن الهلالي أبو علي | الدمع من فوق الخدود سيولا |
| يا مرحباً بك يا دياب الغانم | يا فارس الفرسان يوم الهولا |
| يا فارس الفرسان يا ليث العدا | يا ليت عمرك يا أمير يطولا |
| يا أمير إنك قد قتلت لراشد | وسلام أضحى ميتاً مقتولا |
| أما الفتى محمود ولى وانمحى | وأخوه هدافاً غدا مجدولا |
| فقهرتهم يوم الوغى حتى غدوا | قتلى بحد الصارم المصقولا |
| واليوم قد نزل الدبيسي صادمك | في حومة الميدان مثل الغولا |
| يا أمير دع غيرك في غدا ينازله | فاسمع كلامي وافهم المنقولا |
| أخاف توقع يا دياب بغدره | تضحي صريعاً في الفلا مقتولا |

(قال الراوي): فلما فرغ الأمير حسن من شعره ونظامه وفهم دياب فحوى كلامه، توقف عن رد الجواب فقال له حسن: علامك يا دياب لا ترد الجواب فقال: أرجو أيها الهمام أن لا تمنعني عن هذا الطلب وإن قتلت فروحي فداك فإني لا أخشى الموت في قتال أعدائك. فشكره حسن وقبله في صدره وقال له: أنا ما تفوهت بهذا الكلام إلا لما وجدتك تعبان وما دام الأمر كذلك فابْرز نهار غد وقاتل خصمك واتكل على الله.

ثم باتوا تلك الليلة في سرور وانشراح ولما أقبل الصباح وأشرق بنوره ولاح، دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول، وتقدموا إلى ساحة الميدان وكان أسبقهم الأمير دياب، ولما صار في معركة القتال طلب الدبيسي، فانحدر إليه فالتقاه كسبع الآجام، وأخذ معه في الحرب والصدام واشتد بين البطلين القتال وعظمت الأهوال، وكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران وكانت عيون الفرسان شاخصة إليهما وما زالا على تلك الحال إلى وقت الزوال، فدقت طبول الانفصال فافترقا على سلام ورجعا إلى الخيام، ولما أصبح الصباح ركب الأمير دياب فتقدمت إليه ابنته وطفا وهي تبكي بدموع غزار، فتعجب من ذلك وقال لها: أعلميني بما أصابك، قالت: مرادي أن تتوقف هذا اليوم عن قتال القوم فقد رأيت حلماً في المنام أصبحت منه في أوهام. وقصت حكاية حلمها شعراً، فقال لها: لا تخافي من هذا المنام فإنه أضغاث أحلام، فلا بد لي من الحرب والصدام فاذهبي إلى خيامك ولا تخافي. فرجعت إلى الخيام.

وتقدم دياب إلى معركة الصدام فوجد الدبيسي بانتظاره، فصالا وجالا في ساحة الميدان وأخذا بالضرب والطعن حتى حيرا الأذهان، فاختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان، وكان السابق الأمير دياب فأبطلها الدبيسي بمعرفته ثم هجم على دياب كسبع الغاب وطعنه بالرمح طعنة قوية فجاء الرمح في فخذه فسالت دماء ويئس من الحياة، وأراد الدبيسي أن يعجل فناه، وإذا بفارس من بني هلال قد أقبل كأنه قطعة من جبل وهو يهدر كالأسد، فخلص دياب من يد الدبيسي وأعاده إلى المضارب، ثم اقتحم الصفوف والمواكب، وهو يصيح وينادي أتاكم أبو زيد ليث الأعادي، وجعل ينخي بني هلال على الحرب والقتال فحملوا على جيش العدا من كل جانب، فعند ذلك حملت العساكر على العساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وحمل الأمير حسن بن سرحان وتبعه السادات والأعيان، ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى اشتدت الأهوال وتمددت الأبطال على وجه الرمال وما زالوا في أشد قتال إلى وقت الزوال، وكانت عساكر الدبيسي قد استظهرت في ذلك النهار وأسرت عشرين فارساً من بني هلال الأخيار من جملتهم الأمير عرندس والرياشي ومفرج والهدار، فلما شاهد حسن تلك الأهوال خاف على بني هلال من الهلاك والوبال فلما نزل في المضارب جمع قادة المواكب وأخذ يستشيرهم بالقصيد، فرد عليه أبو زيد وفهم الأمير حسن فحوى مرامه فاستحسنه مع جميع السادات.

هذا ما كان من بني هلال وأما الدبيسي فإنه عند رجوعه من القتال، كبرت نفسه وأحضر الأسرى بين يديه وتهددهم بالقتل والدمار، فوجدهم لا يبالون بالأخطار

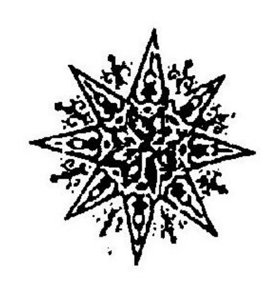
فأرسلهم إلى الحبس بعد أن شفى منهم غليل النفس، ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، برز القاضي بدير إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه فارس يقال له جاسر فحملا على بعضهما البعض وتجاولا في الطول والعرض وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح ولم يزالا في حرب وقتل وطعن إلى قرب الزوال.

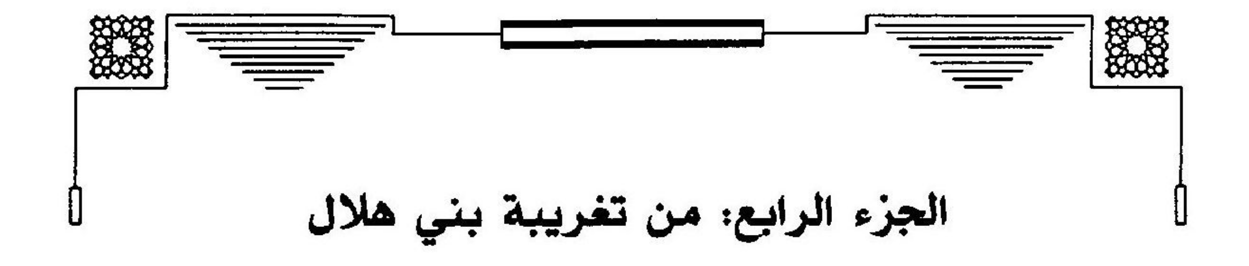
وكان القاضي قد استظهر على جاسر وهجم عليه كالأسد الكاسر وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فوقع على الأرض يتخبط بعضه ببعض ثم هجم آخر فقتله وعجل من الدنيا مرتحله، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجع القاضي من معركة القتال فالتقته بنو هلال بالإكرام والإجلال وهنأته بالسلامة من الوبال، وباتوا تلك الليلة إلى أن أصبح الصباح فتواثبوا إلى الحرب والكفاح، فبرز من قوم الدبيسي فارس يقال له تميم، وطلب قتال الفرسان فبرز الأمير عقيل وهو أخو أبو زيد، فصدمه تميم صدمة جبار وأشار يقول شعراً، فرد عليه عقيل، ولما فرغ من شعره حمل عليه وأخذا في الصدام والعراك واشتبكا أشد اشتباك، وما زالا على تلك الحال وهما في أشد قتال، وكان عقيل قد استظهر على خصمه غاية الاستظهار، فضربه على عنقه بالسيف البتار وإذا برأسه قد طار، وكان له أخ اسمه ناصر فلما رأى ما حل بأخيه هجم على عقيل هجمة الأسود، فالتقاه عقيل بقلب كالجبل والتحم بينهما القتال، وكان عقيل يريد سرعة الإنجاز فلاصقه وضايقه وضربه بالحسام على رأسه فشقه ووقع على الفلاة وعدم الحياة، وكان الوقت قريب الزوال فدقت طبول الانفصال ورجع عقيل إلى بني هلال، فالتقاه قومه بالكرامة وهنؤوه بالسلامة وشكروه على فعاله وزادوا في إكرامه وإجلاله.

وأما الدبيسي بن مزيد فقد تنغص عيشه وتنكد. فاجتمعت الأكابر والعمد ودخلوا على أميرهم وتمثلوا بين يديه وقالوا: إلى متى هذا الحال، فقد قتل منا عدة أبطال، فجعل يوعدهم في الانتصار، وثاني الأيام برز الدبيسي إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه غنيم بن مفلح، وكان غلاماً جميلاً فقال له الدبيسي: من تكون يا غلام حتى تبرز في معركة الصدام، ثم صدمه بقوة واهتمام، وما زالوا في قتال شديد فمد الدبيسي يده واقتلعه مثل العصفور وسلمه إلى أصحابه فأوثقوه بالكتاف، ثم صال الدبيسي وجال وطلب مبارزة الأبطال، فبرز إليه زيدان وصدمه بقلب أقوى من الصوان، فالتقاه الدبيسي كالأسد الغضبان وأخذا يتضاربان ويتحاربان واستمرا على ذلك الشأن نحو ثلاث ساعات، ثم افترقا بالسلامة والأمان، وبينما كان الأمير زيدان راجعاً من الميدان، ضرب الدبيسي حصانه فرماه على الأرض، فانقضت عليه جموع الدبيسي فأخذوه وأوثقوه، فهاج بنو هلال النساء والرجال

واستعظموا تلك الأحوال وذهبت منهم جماعة من الأعيان إلى عند أبي زيد فارس الفرسان، فوقعوا عليه وطلبوا منه أن يسعى لتخليص الفرسان والأبطال من الأسر والاعتقال، فطيب قلوبهم ووعدهم بأنه سيبذل المجهود، ثم إنه غير زيه وتنكر ولبس حلة من الحرير الأخضر ووضع طيلساناً على رأسه حتى لم يعد يعرفه أحد، وقصد الملك الدبيسي ودعا له بالعز والإنعام، وكان كلامه معه باللغة الفارسية فلما رآه الدبيسي على تلك الصفة ظن بأنه من دراويش الأعجام فاحترمه غاية الاحترام وقال له: من أين أتيت يا ابن الأجواد؟ قال: من مدينة بغداد وإني من فقراء عبد القادر رب الفضائل والمآثر، فقال: ادعو لنا يا درويش الأعجام بالنجاح والانتصار، وأن الله يرزقنا بأبي زيد الخادع الماكر حتى نقتله على رؤوس الأشهاد؛ لأنه هو السبب في قدوم بني هلال إلى هذه المنازل والأطلال فإذا استجاب الله طلبك بلغناك أربك، فقال له: الله يبلغك المرام بجاه مولاك عبد القادر وباقي الأولياء العظام، وما دام كذلك أريد منك أن تأمر لي بالذهاب إلى البلد حتى أنام في جامع عبد الصمد، فسمح له بالذهاب وأمر الحجاب أن يفتحوا له الأبواب.







## الجزء الرابع: من تغريبة بني هلال

وعند دخوله إلى البلد قصد المكان الذي كانت مسجونة فيه فرسان بني هلال، فوجد العبيد يطوفون من خلف وقدام، فسلم عليهم فردوا السلام وقالوا: من أنت وما تريد، فقال: قد أرسلني الدبيسي لأدعو له في جامع عبد الصمد، بأن الله يبلغه المراد وينتصر على أبي زيد، وأنتم من تكونون؟ فقالوا: إننا الحراس نحافظ على أسرى بني هلال خوفاً من الأعداء. ثم إن أبا زيد أخرج من جيبه شمعة مبنجة فأضاءها بعد فرك منخريه بضد البنج. فلما اشتعلت فاحت منها رائحة زكية ولم تكن إلا برهة يسيرة حتى وقعت الحراس كالأموات من ذلك البنج. وبعد ذلك أخرج حجر المغناطيس ووضعه على الأقفال فتساقطت في الحال، فرأى فرسان بني هلال في القيود والأغلال وهم يقاسون الأهوال، فأعلمهم بالأمر وفكهم من الأسر وأعطاهم أسلحة الجماعة وقال لهم: اتبعوني بعد ساعة، فلما وصل إلى الباب وجد الحراس جالسين وفي أيديهم السيوف والحراب فسلم عليهم فردوا عليه السلام، وقاموا له على الأقدام وأجلسوه بجانبهم، وجعلوا يخاطبونه ويخاطبهم، وكان يمد يديه إلى جرابه ويأخذ قطعاً من السكر ويأكلها أمامهم فقالوا له: ما هذا الذي تأكله يا شلبي، فقال: هذا ملبس حلبي فقالوا: أطعمنا ونحن ندعو لك بالتوفيق والخير، فأعطاهم قبضة كبيرة وكانت مبنجة فأكلوها فلما استقرت في بطونهم تبنجوا وفي تلك الساعة أقبلت الأسرى وخرجوا وجدوا في قطع البراري والبطاح، فوصلوا لأهلهم عند الصباح فقامت الأفراح وكثر الصياح، وشكروا أبا زيد على تلك الفعال. وأهل البلد حل عليهم الويل والنكد لما رأوا الحراس راقدين والأسرى مطلوقين.

ولما بلغا الدبيسي هذا الخبر طار من عينيه الشرر، وتأكد عنده بعد التحقيق والتفتيش أن البلاء من ذلك الدرويش، وما هو إلا أبو زيد صاحب المكر والكيد، ولكنه أخفى الكمد وأظهر الجلد، وزحف بالعساكر والأبطال لقتال بني هلال، وبرز للميدان وكان أول من برز إلى الدبيسي سرور بن فايد فالتقاه الدبيسي بقلب كالصوان، وأخذه أسيراً، وبرز إليه نعيم الزحلان وكان من صناديد الشجعان، فأسره في الحال وما زال يأسر الفرسان والأبطال حتى أسر خمسين فارساً من بني هلال وفقد منها عدة أبطال وقد أشرفت على الوبال من هول القتال، فلما كان اليوم الرابع

هجم الدبيسي بجيوشه قاصداً قتال بني هلال وانطبق عليهم من اليمين والشمال وقاتلهم أشد قتال، فكانت موقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الأيام، فكثر الصياح وجرى الدم وساح، فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماء فائرة وفرساناً غائرة ودارت على بني هلال الدائرة، واستمر القتال على هذا المنوال حتى كثرت الأهوال على بني هلال فلم يعد لهم ثبات، فتأخروا إلى الوراء وقد قتل من الفريقين نحو عشرين ألف بطل كرار، ولما أظلم الظلام واجتمعت بنو هلال في الخيام وهم بحالة الذل والانكسار، عقدوا ديواناً مع الأمير حسن وطلبوا منه أن يمدهم برأيه فأخذ يحمسهم بالمقال ويشجعهم على الحرب والقتال، ثم قال: من الواجب أن تركب الجازية مع العمارية ونحمل عليهم في الصباح بالكتائب والمواكب، وإلا حلت بنا النوائب، فاشتدت عزائمهم على الحرب والصدام وأجابوه على فرد لسان: إننا سنقاتل نهار غد بالسيف والسنان، حتى لا يبقى منا إنسان.

ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، دقت طبول الحرب والكفاح، فركبت العساكر وهجمت على عساكر الدبيسي بقلب كالحديد، والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال واشتدت الأهوال وارتجت السهول والجبال وما زالوا على تلك الحال حتى تضعضعت من الدبيسي الأحوال، فعند ذلك مالوا عليهم من اليمين والشمال وتفرقت جموعهم بين الروابي والتلال، هذا والدبيسي ينخي الأبطال ويقول: أنا الفارس المؤيد المدعو الدبيسي بن مزيد، فلا يبرز لي إلا أبو زيد صاحب المكر والكيد الذي أتى إلينا واحتال علينا، فما أتم كلامه حتى صار أبو زيد أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال والتقيا في ساحة المجال، واصطدما كأنهما بحران وتزاحما كأنهما أسدان حتى حان عليهما الحين وزعق فوق رأسيهما غراب البين، واستمرا على تلك الحال إلى نصف النهار، وأما أبو زيد فاستظهر على خصمه وضايقه وسد عليه طرقه وطرائقه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فوقع على الأرض قتيلاً، ولما رأت قومه ما حل به خافت من الهلاك والبوار فولوا طالبين الفرار وقصدوا المدينة وقد انقطع منهم الأمل فتبعهم أبو زيد وبنو زحلان والأمير دياب والأمير حسن وباقي الفرسان ودخلوا المدينة وراءهم وضربوا فيهم بالسيف حتى جرت الدماء في الأسواق وبليت قوم الدبيسي بما لا يطاق، وعلا بينهم الصياح والبكاء والنواح، ثم هجمت بنو هلال على الحصون والقلاع وخلصوا أسراهم من الاعتقال، ورجعوا من ساحة القتال وثيابهم كشقائق الأرجوان من أدمية الفرسان، ونزلوا في المضارب والخيام وقد بلغوا غاية المرام، فخلعوا الحديد ولبسوا الأطالس الحرير ودارت القهوة والشراب على الأمراء والسادات.

ثم نهض وزير الدبيسي همام وأخذ مزيد بن الدبيسي وأمه بدر، وسار بهما عند الأمير حسن فدخل وسلم عليه وبكى وطلب منه العفو والأمان وأن يعاملهما بالطيب والإحسان، ثم تقدمت الأميرة بدر هي والأمير مزيد والوزير همام إلى الأمير حسن وقالوا له: العفو يا ملك الزمان، فقد نصحنا الدبيسي وحذرناه من عواقب الأمور فلم يسمع كلامنا إلى أن نفذ به الأمر المقدر، فأجابهم إلى ما طلبوا وأكرمهم غاية الإكرام وخلع عليهم الخلع الفاخرة ونادى بالأمان وزالت الأكدار والأحزان. وكان مزيد خاطب ابنة عمه هند وكانت من النساء المحسنات، فأعلم الوزير الأمير حسن بذلك وطلب منه أن يزفها عليه فأجابه إلى ذلك، وفي الحال ذبحوا النوق والأغنام ودارت الأفراح سبعة أيام، وبعد تمام الأفراح ولى الأمير حسن مزيد مكان أبيه على تلك البلاد، وطاعته جميع العباد لأنه كان يحب العدل والإنصاف ويكره الجور والإسراف، وبعد تمام العرس أمر الأمير حسن بهد المضارب والخيام وجمع المكاسب والأغنام وبالرحيل إلى بلاد الغرب، فاجتمعت الفرسان من كل جانب ومكان فركب الأمير دياب والقاضي بدير وزيدان شيخ الشباب، بستين ألف من الشبان وركبت الجازية مع البنات وحينئذ ركبت الفرسان ظهور الخيول وانتشرت البيارق وكانت الفرسان تهوج وتموج مثل أيام يأجوج ومأجوج، وجدوا في قطع البراري والقفار والسهول والأوعار، يوصلون سير الليل بسير النهار، حتى وصلوا إلى بلاد الأعجام، فنزلوا في مرج واسع كثير المياه فنصبوا المضارب والخيام.



# حرب بني هلال مع الأعجام وسبي المارية

(قال الراوي): وكان الحاكم على بلاد الأعجام في تلك الأيام سبعة ملوك عظام وهم خرمند وعلي شاه والصنصيل والقمقام والمغل وبندر والنعمان، ولما نزلت بنو هلال في ذلك المكان أطلقوا مواشيهم في المراعي فأكلت العشب والأشجار والبساتين والأثمار، وبعد أن أخذوا الراحة وأمنوا نوائب الزمان، رجع الأمير حسن والقاضي بدير إلى نجد مع بعض الأجناد لتحديد البلاد، وبرجوع الأمير حسن والقاضي بدير إلى نجد، اجتمعت ملوك الأعجام عند الخرمند، وجعلوا يتداولون في أمر نزول بني هلال في ذلك البر فقال الخرمند: اعلموا أيها السادات أن بني هلال قدموا البلاد، وهم كل يوم في ازدياد. فقال: الرأي عندنا أن نبادرهم بالقتال ونسبي حريمهم والعيال وننهب نوقهم والجمال قبل أن تكثر جموعهم وتصل أذيتهم إلينا. وكان الملك النعمان حاضراً في الديوان، فصعب عليه ذلك الأمر لأن أصله من بلاد العرب، فقال للملك الخرمند: إن كان لا بد من حرب بني هلال طمعاً بالغنائم والأموال فأرسل اطلب منهم عشر المال، فإن امتثلوا أمرك تكون قد بلغت منهم المرغوب، وإن امتنعوا عنه فحينئذ تبادرهم بالقتال وتنهب أموالهم وتطفي آثارهم، فلما سمع منه هذا الخطاب رآه عين الصواب، فكتب إلى بني هلال يطلب منهم عشر المال أو يرحلوا من بلاده، ثم طوى الكتاب وأعطاه للنجاب وأمره أن يسير إلى بني هلال ويدفع الكتاب إلى نائب السلطان، ويرجع إليه من غير توان، فامتثل النجاب أمره وسار حتى وصل تلك الديار، فدخل على أبي زيد وأعطاه الكتاب وطلب منه الجواب، فلما فتحه وقرأه مزقه ورماه وكتب إلى الخرمند يهدده بقصيدة شعرية.

ولما وقفت الخرمند على هذا الشعر والنظام، صار الضياء في عينيه كالظلام، وقال: هل يبلغ من قدر بني هلال أن يخاطبوني بمثل هذا المقال وأنا ملك العجم، وذكري في جميع الأمم؟! ثم إنه استدعى قواد العساكر ومن يعتمد عليهم في الحروب والمخاطر، وأمرهم أن يستعدوا للقتال ويجهزوا الفرسان والأبطال، فاجتمع خمسمائة ألف عنان، وأرسل إلى بلاد خراسان تمده بالجيوش والعساكر. ثم ركب في ثاني الأيام للحرب والصدام، ولما بلغ أبو زيد هذا الخبر ركب في جموع بني هلال واشتبك بين الفريقين القتال، فقتل من العرب والعجم من قتل، إلى أن مات

غنيم البطل، وأخذوا مارية سبية، فلما سمع أبو زيد هذا الخبر طار من عينيه الشرر، فكتب إلى الأمير دياب يعلمه بواقعة الحال ويطلب منه المعونة في القتال، وأرسل الكتاب مع عشرة أبطال. فلما وصل الكتاب إلى الأمير دياب وقف على ما تضمنه من الخطاب فامتنع عن الحضور وقال: هو أولى بحماية الجمهور، فلما وقف أبو زيد على هذا الخطاب غاب عن الصواب وغضب من كلام دياب، ثم كتب إلى الأمير حسن بن سرحان والقاضي بدير يعلمهم بما جرى بينه وبين الأعاجم.

فلما فرغ الأمير أبو زيد من الكتاب سلمه للنجاب وأمره أن يجد في مسيره إلى بلاد نجد ويسلمه إلى الأمير حسن ويرجع بالجواب.

(قال الراوي): ومن الاتفاق الغريب أن القاضي بدير رأى تلك الليلة حلماً هو أنه كان قابضاً على حمامة بيضاء وإذا بعقاب أسود قد هبط من الجو فخطفها وطار، فاستيقظ من المنام وهو في قلق عظيم وسار إلى عند الأمير حسن وقص عليه الرؤيا. فقال: يا ابن العم إن هذا الحلم يدل على ضيق وغم، وأن ابنتك مارية قد خطفها الأعجام، فلما سمع هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام وقال: ما دام الأمر كذلك فيجب أن نركب حالاً ونجد في قطع القفار ونكشف خبر قومنا في تلك الديار، فأجابه الأمير حسن إلى هذا المرام وركبا ومعهما فرسان الصدام قاصدين بني هلال، ولكنهما لم يصادفا النجاب الذي أخذ الكتاب، وعند وصولهما بالعساكر والأبطال إلى أول نجوع بني هلال رأيا العبد سعيد، فسأله القاضي عن الأحوال فقال: لقد تغلب علينا الأعجام، وسبوا المارية، فقال القاضي: خيبك الله على هذه البشارة. ثم مرا على الأمير دياب فطلب منهما أن ينزلا عنده، فأبى حسن وقال له: علامك يا أمير ما ركبت مع أبي زيد على قتال الأعجام، أتسبى العيال وتنهب الجمال وأنت جالس في الخيام بدون فكر ولا اهتمام؟! قال: الذي منعني يا ملك الزمان هو الخوف من هجوم العدا إلى هذا المكان فتنهب الأغنام، ثم ركب دياب مع القاضي والأمير حسن وركبت معه الأبطال والفرسان، وما زالوا يجدون السير حتى وصلوا عند أبي زيد، فالتقاهم بالتعظيم والاحترام وذبح لهم الأغنام فامتنع الأمير حسن عن الأكل وهو مغتاظ زعلان، فسأله أبو زيد عن سبب ذلك فقال: إني مغتاظ لفقد المارية من بين يديك فأجابه أبو زيد يقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... بدمع جرى من مقلة العين نابع
يا أبو علي اسمع كلامي وافهمه ... وأنت يا قاضي فكن لقولي سامع
أتونا بنو الأعجام من كل جانب ... سبعة ملوك من غير التوابع
فصحنا عليهم هاجمين بقوة ... قتلنا منهم ألفين ما عدا التوابع

فكانت فتاة الحي مارية المها غدت فعاد القوم فيها طوامع
جفل بكرها فيها وأنا ما رأيتها وقلبي لأجل المارية عاد واجع
ونادت بعالي الصوت يا آل عامر وتومي بأيديها وتلوي الأصابع
أتى نحوها المدعو غنيم بن مفلح وقاتلهم بقلب شديد وسط المعامع
طعنه الملك صنصيل بالرمح صبابه بحربة نورها كالشمس ساطع
وحال ظلام الليل بيني وبينهم وعاد العجم بعد هذه الوقائع
وحق كلام الله والبيت والحجر فلا بد لي من حربهم أن أسارع
ولا بد أن أجيب المارية وأهدم الكوفة وأرتد راجع

فلما فرغ الأمير أبو زيد من كلامه قال له الأمير دياب: والله يا أبا زيد لو كنت حاضراً قتال العجم، ما كنت تركتهم يسبون المارية ويسطون على الحريم، بل كنت قاتلت أشد قتال أو أموت موت الأبطال، فلما سمع أبو زيد ذلك الكلام قال له: صدقت يا أمير دياب وبما أنك قادر على كسر الأعجام فلماذا لم تحضر إلى الميدان عندما أرسلت خلفك عشرة فرسان لتحارب معي الأعجام وحينئذ ترينا شجاعتك في معركة الصدام.

(قال الراوي): أما الأعجام فإنهم لما رجعوا إلى أوطانهم تنازع ملوكهم على المارية بنت القاضي بدير، وكان كل واحد يريد أن يأخذها لنفسه وذلك لما فيها من الحسن والجمال والبهاء والكمال، فاتفق رأيهم على إعطائها للشاه خرمند، وأنهم يركبون على بني هلال مرة ثانية وكل من يكسب امرأة تكون له، وفي ثاني يوم ركبت الأعجام على بني هلال فركب الأمير حسن واستقبلهم في ساحة الميدان، ما عدا أبو زيد، فإنه لم يركب معهم لقتال القوم وجعل نفسه مريضاً في ذلك اليوم، ولما نشب القتال وعظمت بين الفريقين الأهوال هجمت الأعجام على بني هلال مثل أسود الآجام، وقاتلت أشد قتال وجعلت ترميهم بالنشاب وتطعنهم بالحراب، فلما رأت بنو هلال تلك الأحوال وهجوم العجم عليها من اليمين والشمال ارتدوا إلى الخلف وانهزموا، وتبعهم فرسان العجم حتى دخلوا إلى الخيام وبدؤوا ينهبون البيوت ويسبون النساء والبنات، فارتفع البكاء والنواح وزادوا في الصياح، فلما سمع أبو زيد عويل النساء والأصوات هجم مع الأبطال والفرسان بالسيوف والرماح فالتقى بعسكر الأعجام وحكم برقابهم ضرب الحسام، فردهم عن المال والحريم، فارتدوا منهزمين إلى الكوفة وقومه وراءهم مثل الشواهين إلى أن بلغ منهم المراد وقتل عدداً كثيراً من الأجناد، ثم ارتد منتصراً فالتقاه الأمير حسن وشكره على تلك الفعال وقال له: مثلك تكون الأبطال يا زينة الرجال فلولاك لكنا في أسوأ حال وصرنا معيرة بين سائر العربان على طول الزمان، وكذلك القاضي بدير أثنى عليه وكان متأسفاً على فقد ابنته

مارية، فقال له أبو زيد: لا بد لي من خلاص ابنتك أيها القاضي الجليل وأشفي من عساكر العجم الغليل.

ثم إن أبا زيد صبر إلى وقت الظلام وتزيا بزي الأعجام وسار إلى مدينة الكوفة وفي صحبته عبده أبو القمصان وبدر بن غانم، وعند وصولهم إليها وجدوا أبوابها مغلقة فدار أبو زيد من جميع الجهات فلم يجد منفذاً، فبينما هو يتفرج ويتأمل رأى دهليزاً صغيراً فنزل فيه فأوصله إلى البلد فترك رفيقيه بانتظاره، وأخذ يطوف من زقاق إلى زقاق يجول بين الحارات والأسواق، ويقف على الأخبار، وكان كلما نظر إليه إنسان يكلمه في لغة الأعجام، ورأى بناء عظيم البنيان ذا أربعة عمدان وفوقه قصر جميل الهندام من الرخام وشبابيكه مصفحة من الذهب، وإذا به يسمع آلات الطرب، فقال أبو زيد في نفسه: هذا الملك خرمند لا محال لما عليه من الهيبة والجمال، ورأى شجرة من السرو واصلة أغصانها لشباك القصر، فصعد عليها حتى وصل إلى أغصانها، ولما صار عند الشباك وجه نظره إلى تلك الغرفة، فوجدها من أحسن الغرف مزينة بالفرش الفاخر، ووجد سبعة ملوك من العجم جالسين على كراس من الذهب ومارية جالسة بينهم كأنها القمر، وكانت ملوك الأعجام تشرب المدام والمغاني تغني لهم بأنواع الأنغام، فقدم الخرمند إلى ماريا كأساً وقال لها: خذي واشربي يا بنت الكرام وغني حتى يزيد انشراحنا ويكمل سرورنا، فامتنعت عن الشراب وزادت في البكاء والانتحاب، فتأثر الملك النعمان ونهض من وسط الديوان، وكان الملك خرمند متزوجاً بابنته هند، فقال: دعوها ولا تكلموها فإنها من بيت كبير وأبوها قاض وأمير، ولكن الغناء ليس فيه عيب، ثم التمس منها أن تغني فلما سمعت هذا الكلام أشارت تغني قصيدة مطلعها:

تقول فتاة الحي مارية من ألمها فنار الضنى والشوق يكوي ضميرها

(قال الراوي): فطربت ملوك الأعجام وشرب خرمند كأس المدام، ثم أعطاه إلى الساقي وقال له: املأ كأس المدام ناوله إلى مارية بدر التمام حتى تفرح وتطرب ويزول عنها الحزن والكرب، فخجلت مارية وقالت للنعمان: إني لا أشرب من هذا الشراب لأنك تعلم أيها السيد بأن مشروبنا هو حليب النوق والغنم ولا نشرب غيره من المشروبات، فإن ذلك عندنا من أعظم العار. فاعتذر النعمان عنها إلى خرمند وقال له: اعفها من هذا الكأس لأنها غير معتادة، فتناول الخرمند الكأس وتذكر حسنها وجمالها وشربه حتى الثمالة، أما الساقي فراح ينشد بدوره.

فلما فرغ من إنشاده قال له الخرمند: أحسنت بما فعلت. فعند ذلك نهض النعمان وأراد أن يأخذ المارية إلى بيته، فاعترضه الصنصيل وقال: إني كسوتها

بالثياب الفاخرة والحلل الباهرة، وأنا أحق بها من كل أحد، فقال له النعمان: إني لا أمكنك من ذلك حتى نرى كيف ينتهي الحال بيننا وبين بني هلال، وأنا من رأيي أن نطلق سبيلها فتذهب إلى أهلها خوفاً من القيل والقال، فقال الصنصيل: هذا لا يكون وأنا مرادي أن أنشد الشعر وهي تجيبني عليه ولا نريد منها غير ذلك، ثم أشار يقول:

قال الملك صنصيل يا مارية غني لي ... وارفعي المنديل عن وجنتك الحمرا

يا مارية بحياتك قومي اشربي كاساتك ... وبيني شاماتك وريقك زي الخمرا

قومي تعالي لقربي لأذوقك من شربي ... وقربي لجنبي حتى تطيب السكرا

صنصيل قلل كلامك بنت العرب قدامك ... غداً يصير هزامك من سباع القفرا

يا مارية ارتدي. برجالك لا تعتدي ... بالحرب ما هم قدي غدا دمهم يجري

غداً يجيك سلامة أسمر طويل القامة ... سيفه يزيل الهامة. . . .

في كل ضربة عشراً سلامي ذاك راحي ... إن أتى لكفاحي أقتله فوق الصخرا

غداً يجيك الغالي أمير بتخته عالي ... حسن كبير هلالي قومه كموج البحر

(قال الراوي): وكانت جالسة أخت الملك خرمند، وكان اسمها تاج بخت، فلما سمعت أن مارية هانت عمها الصنصيل في شعرها، لطمتها بين عينيها فآلمتها وسال الدم من جبينها، فلما شاهد أبو زيد تلك الحال غضب ولولا وجود الحديد بالشباك لدخل عليهم وأورثهم الدمار وأما الملك النعمان فإنه استعظم الأمر ونهض على الأقدام وسل بكفه الحسام وجعل يتوعد.

ولما فرغ النعمان من هذا الكلام وسمعته ملوك الأعجام، خافوا من الشرور وعواقب الأمور، فقال خرمند للنعمان: خذ مارية إلى عندك هذه الليلة؛ لأنه يخشى من تواليها، فمتى ظفرنا بهؤلاء العرب فحينئذ نبلغ منها الأرب، فعند ذلك قال لها النعمان: تعالي أيتها الأميرة إلى بيتي، فسارت معه ولم يعترض أحد بكلام، فلما شاهد أبو زيد أفعال النعمان شكره في قلبه وقال: إن هذا الرجل يستحق كل جميل، ثم نزل من أعلى الشجرة وتبع آثار النعمان حتى وصل إلى منزله فسمعه يقول لابنته: خذي هذه الأميرة وافرشي لها غرفتك فإنها من بيت شريف، فترحبت بها وأكرمتها، ثم رجع النعمان ليصرف باقي ليلته عند الأعجام، ورجع أبو زيد لبني هلال، وعند وصوله إلى الخيام سمع أصوات البكاء والنواح لأنهم كانوا يظنون بأنه مات، فلما دخل على الأمير حسن وسلم عليه، فنهض وشكر الله على سلامته وكذلك فعلت باقي السادات، وسأله القاضي بدير عن المارية ابنته فأجابه يقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... الأيام والدنيا تسبب هوايل

وصلت إلى حلة الأعجام بلابطا ... فدرت ميامنها ودرت الشمايل

إلى أن نظرت المارية في عيني فقولي صحيح ليس فيه زلايل
في قصر خرمند يا قوم جالسة ملوك العجم من حولها كالجمايل
والطاس داير والجنك والغنا والنعمان بينهم وهو شهم فاضل
يمر عليها الكأس ما تذوقه فتحسه مثل سم القواتل
فكانت تنادي الصوت يا آل عامر وتضرب بأيدها يمين وشمايل
فقام الملك النعمان أتى بها فخلصها منهم بضرب هائل
وأخذها في الحال إلى دار بنته وأوصى بها بنته وكل الأهايل
فإن عانني الرحمن ربي أجيبها وأهدم الكوفة ووحدي أقاتل

(قال الراوي): فلما فرغ الأمير أبو زيد من كلامه وسمع الحاضرون فحوى شعره ونظامه، قال الأمير حسن: مرادي الآن أكتب كتاباً إلى ملوك الأعجام وأطلب من الخرمند أن يرسل المارية الآن لأنها عند الملك النعمان، فماذا تقول في ذلك؟ فقال أبو زيد: لا بأس، فلعلهم يتأثرون من كتابك ويرسلونها، فعند ذلك كتب يقول:

قال الفتى حسن الهلالي أبو علي النار في قلبي تهب وتشعل
يا ملك خرمند اسمع قصتي ابعث لنا المارية ولا تتمهل
إنك إن أرسلتها لبيوتنا فترى العساكر ودياب ترحل
حتى إذا خالفت في إرسالها نهجم عليكم في الصباح وتقتل

فلما فرغ الأمير حسن من هذا الشعر والنظام، أرسله مع نجاب ليعطيه إلى الملك ويأتيه بالجواب، فامتثل حتى وصل إلى الملك الخرمند وسلمه الكتاب، ففتحه وقرأه ولما عرف معناه مزقه في الحال وأمر العساكر أن تستعد للقتال، وخرج بجيوش الأعجام لقتال بني هلال. وكان نجاب السلطان حسن قد أوصل هذا الخبر لبني هلال، فاستعدوا للحرب وفي أوائلهم الأمير أبو زيد والأمير دياب وغيرهم من الفرسان والتقوا بالأعجام، قاتلوا أشد قتال وفعل أبو زيد أفعالاً تشيب الأطفال. ولله در الأمير دياب! فإنه قاتل في ذلك اليوم حتى وصل إلى الملك القمقام وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه ثم مال على القوم وقتل منهم عدة رجال.

فلما رأت عساكر الأعجام تلك الأحوال ارتدوا راجعين في تلك الصحراء وقطع دياب رأس القمقام وسار به إلى الأمير حسن وباقي السادات وألقاه أمامهم فشكروه. ثم رجع بنو هلال بالعز والانتصار، وكان أول من برز إلى القتال أبو زيد الفارس المفضال، فبرز إليه الملك المنذر فالتقاه أبو زيد وانطبق عليه كسبع الآجام، ولم تكن غير ساعة من الزمن حتى ضربه أبو زيد بالسيف على هامة قده نصفين فوقع على الأرض يتخبط بعضه ببعض.

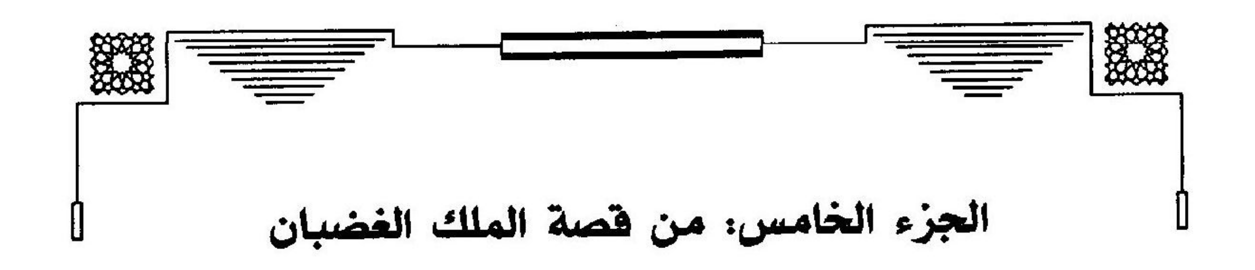
فبرز أخوه الأمير بندر ليأخذ بثار أخيه فالتقاه أبو زيد بقلب كالحديد، ثم هجم عليه وضربه بالسيف فألحقه بأخيه، فهجمت الأعجام فالتقتهم بنو هلال وحكمت فيهم ضرب السيوف، وقتلت منهم عشرة آلاف من صناديد الأبطال، فانهزمت إلى ورائها وفي اليوم الثاني دقت الأعجام طبولها وركبت خيولها وبرزت إلى القتال طالبة أخذ الثأر فبرز إلى الميدان الأمير أبو زيد فبرز إليه المغل وأخذا يتضاربان ويتطاعنان، وكان المغل المذكور من أفرس الفرسان قوي الجنان، فقاتل أبو زيد أشد قتال وضربه ضربة صامدة فاستلقاها أبو زيد في الترس فقطعته نصفين، ونزلت على رقبة الجواد فأبرتها كما يبري الكاتب القلم، فوقع أبو زيد على الأرض فأراد المغل أن يكمل عليه فبادر إليه الأمير دياب وخلصه، وفي الحال أتوه بجواد فركبه وهجم هو ودياب على صفوف الأعجام وتبعهم باقي أبطال بني هلال من اليمين والشمال، وكانت موقعة مهولة قتل فيها خلايق كثيرة وكان من جملة المقتولين المغل وغيره من سادات العجم والمقدمين، وانهزمت العجم أقبح هزيمة وثبت الملك الصنصيل وهو راكب على جواد فبرز إليه دياب وهو راكب على الخضرا، فالتقاه الصنصيل واشتد بين الفارسين القتال وعظمت الأهوال، وما زالا على تلك الحال إلى وقت الظهر، وكان الصنصيل قد اعتراه التعب فولى وطلب لنفسه الهرب، فلما رأت عساكر العجم بأن سيدها قد انهزم، خافت من العواقب فارتدت إلى الحلة فدخلت إليها وأغلقت الأبواب، فجمع الملك خرمند ملوك قومه وقال لهم: مرادي غداً أن أخرج إلى قتال بني هلال فأريد أن تهجموا وتقاتلوا وإلا صرنا معيرة وفضيحة عند الملوك، فوعدوه بأنهم سيبذلون غاية المجهود ويقاتلون قتال الأسود.

ولما أصبح الصباح ركب الملك خرمند وجيوشه وخرج يريد القتال فالتقاه في الحال جميع الفرسان والأبطال وتقاتل الجمعان، فالتقى أبو زيد بالملك الخرمند فتطاعنا بالرماح وبالسيوف، وما زالا على تلك الحال من الصباح إلى وقت الزوال، ولم يقدر أحد على خصمه فافترقا عن بعضهما البعض وبات كل فريق في ناحية من الأرض. وفي الصباح برز الملك خرمند إلى معركة الكفاح وطلب أن يبرز له السلطان حسن فبرز إليه السلطان حسن وقال له: أيها الملك إذا أردت أن تنتهي الحرب بيننا فرد لنا المارية حتى تنهي الحرب ونرحل عن بلادكم في الحال، فقال له: كيف أسلمكم المارية وقد قتل أكثر أبطالنا من أجلها، ولكن دونك والقتال وحمل عليه فالتقاه السلطان حسن بهمة وحمية واشتبك بينهما القتال، وكان السلطان حسن أبرع من الخرمند، فلاصقه وضايقه وضربه بالسيف على رأسه شقه إلى تكة لباسه، فلما قتل الخرمند ولت الأعجام وطلبت الفرار، فتبعتها بنو هلال وحكمت

فيها السيوف، فلما نظر الملك النعمان ما حل بالأعجام من الذل والهوان، سار إلى السلطان حسن وسلمه المفاتيح وطلب منه أن يكفوا عن القتال فأجابه إلى طلبه، وأمر بوقف القتال فاجتمع الأمراء عند السلطان حسن ورحبوا بالملك النعمان، فسار بهم إلى الحلة وأدخلهم إلى قصر الخرمند فرأوا به الشيء الكثير من التحف الثمينة، فجمعها السلطان حسن ونقلها إلى المضارب والخيام، ثم دخلوا إلى قصر النعمان فوجدوا فيه المارية معززة مكرمة فأخذوها باحتفال عظيم، ثم نادى السلطان حسن بالأعجام وقال لهم: لقد أقمت عليكم الملك النعمان وهو ملك عادل فأطيعوه ولا تخالفوه لأنه نائبي في هذه البلاد وسيدفع لنا الجزية في كل عام، فقالوا: سمعاً وطاعة أيها الملك العظيم.







# الجزء الخامس: من قصة الملك الغضبان

(قال الراوي): كان حاكم بلاد التركمان رجل عظيم الشأن اسمه الغطريف ويلقب بالغضبان، وله عدة وزراء وأعوان ومن جملتهم الوزير النعمان، وهو صاحب معرفة وتدبير وفي أمور السياسة خبير، وله ابن أخت وكان ولي عهده ونائبه نمر الجارح. وكان الملك الغضبان يركن إليه، ولما وصلت جموع بني هلال وخيمت في تلك الأطلال وبلغ الغضبان هذا الخبر تطاير من عينيه الشرر، فاجتمع بوزرائه وباقي الأعوان وعقد معهم مجلساً في هذا الشأن، فقال له الوزير النعمان: الرأي عندي أن ترسل لملكهم تطلب منه المال، فأجاب الملك أن أرسل الطلب بلغنا القصد والأرب، وإن أبى وامتنع ركبنا عليه بكل فارس صميدع، فننهب أموالهم ونسبي حريمهم وعيالهم ونقتل شبابهم ورجالهم، فاستحسن الغضبان هذا الرأي وكتب إليهم بمعناه.

ثم ختم الرسالة وسلمها إلى عبده رشيد وأمر أن يسير بدون إمهال ويسلمها إلى الأمير حسن سيد بني هلال، فامتثل أمره وركب على ناقة وسار حتى أشرف إلى نجع بني هلال، فنزل من على ناقته ودخل على الأمير حسن فسلم عليه وقبل يديه ثم ناوله الكتاب ووقف ينتظر الجواب، فلما فتحه وقرأه واطلع على ما حواه انشغل باله وتغيرت أحواله، فقال له أبو زيد: علامك يا أمير حسن فإني أراك في غم وتكدير، فناوله الكتاب فلما قرأ الكتاب قال: أنا أرد الجواب.

ثم طوى الكتاب وأعطاه إلى الحاجب، فأخذه وجد المسير حتى وصل إلى مولاه وأعطاه الكتاب فلما فتحه وعرف فحواه مزقه ورماه، واغتاظ الغيظ الشديد، وفي الحال أمر ابن أخته ووزيره نمر الجارح وابن عمه النعمان، أن يجمعا العساكر والأبطال لمحاربة بني هلال، فدقت طبول الحرب واجتمعت العساكر من كل جهة ومكان، وكانوا نحو مائة ألف بطل فركبوا بالعجل وهم معتقلون بالسلاح وفي أيديهم الرماح، وركب نمر الجارح في مقدمة العساكر وجدوا بالمسير قاصدين بني هلال، فلما علمت بنو هلال بقدومهم، استعدوا لحربهم فدقوا طبولهم بالعجل، فاجتمع الفرسان ودخلوا على أميرهم حسن، وهو جالس في الديوان وأعلموه بما جرى فأمرهم أن يسيروا للقتال، فركبوا وفي مقدمتهم الأمير أبو زيد فالتقت العساكر ببعضها

البعض، وهجمت بنو هلال بقلوب كالصوان، وانقضوا على عساكر الغضبان. فاشتد القتال وفعل أبو زيد في ذلك النهار فعالاً تذكر على مدى الأعصار، وكذلك فعل الأمير دياب وباقي الفرسان، فإنهم ثبتوا وقاتلوا وما قصروا، وكان الأمير دياب قد التقى بالأمير نمر الجارح وهو ينخي رجاله، فتقدم دياب يريد قتاله، فصدمه نمر في الحال بقلب أقوى من الصوان واشتد بينهما القتال، وكان نمر قد طعن خصمه بالسنان وقال: خذها من يد فارس الفرسان، فغطس دياب تحت بطن الخضرا فأخطأته الضربة، وهجم على خصمه هجوم القضاء المنزل وضربه بالدبوس على الخوذة فتألم وارتد راجعاً إلى الوراء وندم على ما جرى، وفي الحال هجمت بنو هلال على الأعداء من اليمين والشمال وأذاقوهم الأهوال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان النهار قد مضى وزال وأقبل الليل بالانسدال، فانفصلت العساكر عن بعضها البعض ونزلت كل طائفة في ناحية من الأرض.

ورجع الأمير دياب من ساحة الميدان ودخل على الأمير حسن وهو فرحان فالتقاه بالبشاشة والإكرام، وقال له: كيف وجدت خصمك نمر الجارح، أجاب غداً أقصر عمره وأكفيك شره، فشكره على ذلك وباتوا على أحسن حال، أما عساكر الغضبان فإنهم رجعوا من ساحة الميدان وهم في قلق واضطراب من قتال أبي زيد ودياب، وكان نمر قد جمع الأمراء والسادات وأخذ يستشيرهم في أمر الحرب عليه بطلب النجدة من عمه الملك الغضبان فاستصوب رأيهم وفي الحال كتب إلى خاله يعلمه بواقعة أحواله ويطلب منه المعونة.

وطوى الكتاب وختمه وسلمه إلى نجاب يقال له عقاب، فأخذه وجد في قطع البراري والقيعان حتى وصل إلى الملك الغضبان، فدخل عليه وقبل الأرض بين قدميه، ثم ناوله الكتاب فلما فتحه وقرأه، اغتاظ وتأثر وتطاير من عينيه الشرر، وأقسم أنه لا بد أن يفني بني هلال ولا يبقي أحداً منهم، ثم أمر بجمع العساكر والفرسان فركبت خيولها واعتقلت بسيوفها ونصولها، وركب أيضاً الضرغام أخو نمر ووزيره النعمان وقصدوا بني هلال بقلوب كالجبال، وجدوا في البراري وكان عدد الفرسان خمسمائة ألف عنان. هذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من نمر الجارح فإنه بعد إيفاد الرسول لخاله، ركب في ثاني الأيام بجميع فرسانه وأبطاله، وتقدم نحو بني هلال فتقابل الفريقان في ساحة الميدان، وتقدم الأمير نمر إلى معركة الطعان فالتقاه الأمير دياب، وهجم عليه كليث الغاب واشتبك بينهما الحرب وأخذا في الطعن والضرب، فلله درهما من بطلين وفارسين عظيمين! أما دياب فكان أشجع من نمر وأقدر وأعلم منه بمواقع الطعن، وأخيراً طعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من

ظهره، فوقع على الأرض قتيلاً وأيقن قومه بالهلاك والدمار، وطلبوا الهزيمة والفرار، وتبعتهم بنو هلال وقتلوا منهم عدداً كثيراً.

وبينما هم سائرون وفي الفلاة مشتتون، إذا بغبار قد ظهر عليهم ومن خلفه الجيوش والعساكر، فلما اقتربوا منهم وتأملوهم فإذا هم عساكر الغضبان، وكانوا قد حضروا لمعونة نمر فلما رأت العساكر المنهزمة ملكها الغضبان، تقدموا إليه وقبلوا يديه، وأعلموه بما حل فيهم من المصائب، وكيف أن بني هلال قتلت نمر الجارح، فلما سمع الملك الغضبان منهم هذا الكلام خرج عن دائرة الصواب فشخر ونخر وطغى وتجبر، وقال: وحق ديني ومعبودي لا بد من قتال بني هلال والتقتها بنو هلال تتقدمها السادات والأعيان، والأمير حسن بن سرحان، واشتبك الطعان بين الفرسان والتقى الضرغام بالأمير حسن وهو ينخي العساكر، فالتقاه الأمير بقلب أقوى من الصوان وأخذا يتضاربان نحو ساعة من الزمان، وكان الأمير حسن قد طعن ضرغام قاصداً أن يسقيه كأس الحمام فاختفى تحت بطن الجواد فراحت خائبة، ثم اعتلى الضرغام على ظهر حصانه وطعن الأمير حسن فالتقاه بترس البولاد، وما زالا في عراك وصدام إلى أن دقت طبول الانفصال، ورجعت العساكر من ساحة القتال، وفي الصباح ركبت الفرسان ظهور الخيول وتقدمت إلى ساحة الميدان، فتقدم الأمير ضرغام وطلب المبارزة والصدام، فبرز إليه الأمير عقل وهجم عليه بقلب شديد، فالتقاه بقوة وأخذا في الحرب فاشتد بينهما القتال مدة أربع ساعات، وكان الأمير عقل قد استظهر على خصمه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فوقع الضرغام قتيلاً وفي دماه جديلاً، فلما نظر الغضبان ما جرى استعظم الأمر وهجم على عقل وطعنه بالرمح ليعدمه الحياة فخلى منها عقل فراحت خائبة، وما زالا في قتال إلى قرب الزوال، فرجعت بنو هلال في السرور والأفراح، وعساكر الغضبان بالهم والأتراح، وأخذوا جثة الضرغام وأقاموا عليها النواح ثم كفنوه ودفنوه، ولما أصبح الصباح ركبت بنو هلال للحرب والكفاح، فالتقتها الأعداء وصاح الغضبان أين الشجعان أين جبابرة الضرب والطعان؟ فما أتم كلامه حتى صار الأمير دياب أمامه وصدمه صدمة ترتعد منها قلوب الفرسان، فالتقاه الغضبان وضربه بالسيف فالتقاه دياب بدرعه البولاد فانكسر السيف فأعطاه قومه غيره.

واشتد بينهما الحرب والكفاح إلى أن اختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الملك الغضبان، وقال له: خذها من يد فارس الميدان وليث المعارك والطعان، فغطس دياب تحت بطن الخضرا راحت الضربة خائبة، وما زالوا على ذلك وهم في أشد حرب إلى قرب المساء، فدقت طبول الانفصال فرجعت الفرسان من

ساحة الميدان وباتوا يتحارسون تحت مشيئة الرحمن، وعند الصباح برز الغضبان إلى ساحة الكفاح وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه أبو زيد ليث الميدان. واقتتلا طول النهار وفعلا أفعالاً تذهل الأبصار، ثم افترقا على سلام إلى المضارب والخيام، واستمر القتال بين عساكر الغضبان وبني هلال ستة عشر يوماً وقد قتل من عسكر الغضبان عشرون ألف فارس ومن بني هلال خمسة آلاف، ثم استعدت العساكر للقتال فدقت طبول الحرب وتقدمت الفرسان للطعن والضرب، فبرز إلى الميدان الملك الغضبان وقال: هل من مبارز هل من مناجز؟ فلا يبرز لي كسلان ولا عاجز اليوم يوم الهزاهز، فما أتم كلامه حتى صار أبو زيد قدامه فالتقاه الغضبان بقلب شديد وأخذ معه في عراك وصدام.

فلما رأى أبو زيد قوة حربه تأخر عنه فعند ذلك صاح الغضبان على الفرسان بالهجوم على بني هلال. وكانت بنو هلال قد قصرت في القتال، فتأخرت إلى الوراء وعساكر الغضبان تتبعهم في تلك الصحراء وبعدها اجتمع أبو زيد بسادات بني هلال وقال لهم: قد ساءت أحوالنا وفقدت أبطالنا ورجالنا فما هو رأيكم أيها الأعيان في قتل الملك الغضبان؟ فقالوا: الرأي عندك يا أمير فما فينا من يخالفك، فقال: الرأي عندي نكون أربع فرق ونهجم على الأعداء من أربع جهات نسد عليهم جميع الطرقات، وتكون الجازية في أول العماريات مع باقي النساء والبنات وأهجم أنا من جهة الشمال والأمير زيدان والأمير حسن والقاضي بدير من بقية الجهات بباقي الأبطال، ونقاتلهم أشد قتال وإلا حل بنا الوبال، فاستصوبوا رأيه لأنهم رأوه عين الصواب.

ولما أصبح الصباح ركبت الفرسان للحرب والكفاح وانقسمت بنو هلال أربع فرق، وكان السابق بفرقته الأمير دياب فصاح على الفرسان وحكم سيفه بالرقاب وتبعه أخوه زيدان بكل الفرسان بقلوب أقوى من الصوان، وجندلوا الأبطال في ساحة الميدان، ولما رأى الغضبان ما حل بقومه من الهوان استعظم ذلك الشأن فجعل ينخي الأبطال وتقدم بنفسه وقد هانت عليه المنية وضرب فيهم بالحسام وتبعه الفرسان من خلف وقدام، فثبت الشجاع وفر الجبان، وإذا بجيوش وعساكر الأمير حسن بن سرحان راكب ببني دريد وأبو زيد ببني زحلان والقاضي بدير بباقي الرجال والشجعان، ومن حوله السادات بالبيارق والرايات، فهجموا على عساكر الغضبان من كل جهة ومكان، واشتد قلب دياب بقدوم القوم وأمل بالنصر فقاتل أشد قتال، وهكذا فعلت بنو هلال وكان يوماً شديداً لم يسمع مثله في سالف الأجيال، وكان الملك الغضبان قد برز إلى الأمير دياب وهو غائب عن الصواب، ودياب يدور حوله

مثل الدولاب وهو ثابت على الحرب والجلاد كأنه طود من الأطواد، فعند ذلك تقدم الأمير حسن والأمير أبو زيد وهجموا هجمة رجل واحد على الغضبان وبهذه الفعال هان على دياب القتال، فقوم السنان وقال له: خذ هذه الطعنة من يد الأمير دياب وطعنه بالرمح في صدره. وتحمس دياب ومال على الأبطال ففرقها على اليمين والشمال، وتبعه بنو زغبي الشجعان وبنو زحلان وهجموا على عساكر الغضبان بقلب أقوى من الصوان، وكانت عساكر الغضبان لما رأت ملكها قد مات حلت بها الآفات وضعفت عزيمتها وأيقنت بالهلاك والبوار فولوا الأدبار إلى الهزيمة والفرار، فتبعتهم فرسان بني هلال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكسبوا غنائم ذات قدر وقيمة، وكانوا قد تبعوهم إلى البلد ونهبوا الأموال وسبوا الحريم والعيال، وبعد ذلك رجعوا إلى الخيام ثم حضر ابن الملك الغضبان، وكان اسمه عبد المدان، إلى عند الأمير حسن بن سرحان وبمعيته الأكابر والأعيان، وطلبوا منه الأمان فأجابهم إلى ذلك الشأن وعاملهم باللطف والإحسان، وبعد ذلك ولوا الأمير عبد المدان حاكماً على تلك الأوطان مكان أبيه، وقامت بنو هلال في الأوطان خمسة أيام ثم دقت طبول الحرب إلى الارتحال، حتى وصلوا إلى بلاد العراق ولما وصلوا إليها وجدوا أن الحاكم على تلك البلاد رجل من الأجواد قد اتصف بالجود والكرم والفضائل، يقال له الخفاجي عامر، يحكم على البصرة وبغداد والموصل والعراق، وكان عنده من الأبطال والفرسان نحو مائتي ألف عنان. فبينما هو جالس في الديوان وحوله الوزراء والأعيان، إذ دخلت عليه الرعيان وقالوا له: اعلم يا ملك الزمان أن بني هلال قد دخلت ديارنا وأكلت ثمار بساتيننا، وقد هربت من أمامهم الرعيان وتركت النوق والفصلان. فلما سمع الخفاجي هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام، والتفت إلى الأمراء وقال لهم ما قولكم في بني هلال؟ فعند ذلك تقدم الوزير عميرة وأشار عليه مشورة.

(قال الراوي): فلما فرغ الوزير من الكلام قال الخفاجي: هذا هو الصواب والأمر الذي لا يعاب، ثم كتب إلى الأمير حسن يطلب عشر المال والنوق والجمال والبنات الأبكار، وطوى الكتاب وختمه وأعطاه لوزيره سلام ليأخذه إلى حسن، فأخذه وجد حتى وصل إلى نجوع بني هلال، فدخل على الأمير حسن وناوله الكتاب، فلما قرأه وعرف فحواه اغتاظ من ذلك التهديد وخاف من عواقب الأمور ثم إنه أمر بأخذ الوزير إلى دار الضيافة ثم قال: ما الرأي والشور أيها السادة؟ قالوا: الرأي عندك فافعل ما تريد.

فقال: مرادي أن أرسل له كتاباً ينطوي على المودة وأنتظر الجواب فقال

الجميع: هذا هو الصواب، فعند ذلك كتب الأمير حسن شعراً وأعطاه إلى الوزير سلام فأخذه وسار حتى أشرف على الخفاجي عامر، فأعطاه الكتاب ففتحه وقرأه وعرف فحواه، وراح يرحب بهم أجمل ترحيب، وكذلك شكره الأمير حسن، فلما فرغ الأمير حسن من كلامه، انشرح خاطر الخفاجي عامر وتقدم بعده الأمير درغام وأشار يترحب ببني هلال، ثم ركبت بنو هلال مطاياهم والخفاجي عامر ودخلوا البلد في فرح وسرور، وتفرقت عرب بني هلال في تلك الأراضي وأما الأمير حسن والسادات فبقوا عند الخفاجي عامر على أكل طعام وشرب دام مدة ثلاثة شهور وهم على أحسن حال، فاتفق في بعض الأيام أن الخفاجي أولم وليمة عظيمة دعى إليها الأمير حسن وسادات بني هلال، وحضرتها النساء والبنات فأكلوا ولذوا وطربوا ودارت كاسات المدام على من حضر في ذلك المقام، وكانت البنات والنساء الحراير يشربن على اسم الخفاجي عامر، وكانت الجازية بديعة الجمال فصيحة المقال تقدمت إلى الخفاجي تصف له محاسن بنات بني هلال وما خصهن الله به من اللطف والكمال والظرف والجمال وأشارت تقول:

| | |
|---|---|
| تقول فتاة الحي أم محمد | ونيران قلبي زايدات أشعال |
| إن الأمارا يا أمير بناتهم | مثل الظبا في الحسن والأشكال |
| أما جمال الطعن بنت سلامة | الوجه منها مثل بدر قد مال |
| وبنت أبو موسى دياب الماجد | فعيونها يا أمير كعين غزال |
| وبنت قاضينا بدير الفايد | تشبه غزالاً بالفلاة جفال |
| وبنت سلطان البوادي أبو علي | شبيهة البدر في بهاه وكمال |
| انظر لحسني يا أمير فإنني | أجمل وألطف من نساء هلال |

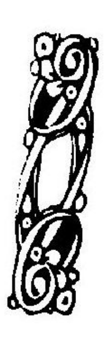
فلما فرغت الجازية من هذا الوصف شكرها الخفاجي على شعرها ونظامها ثم نهض الأمير حسن وشكر الخفاجي على ذلك الإكرام وقال له: أريد من أفضالك أن تشرفني غداً بجميع رجالك لأجل أكل الطعام وشرب المدام، فأجابه إلى ذلك فأولم الأمير حسن وليمة عظيمة ذبح فيها ألف رأس من الأغنام فكانت أعظم الولايم لم يسمع مثلها في الأعارب والأعاجم، حضر فيها الخفاجي عامر وقومه وسادات العشائر وجلسوا على مائدة الطعام ودارت بينهم كاسات المدام فطربت الأمراء والسادات فعند ذلك بدأ الأمير حسن والخفاجي يتبادلان التحية من جديد، ولما فرغ الخفاجي من الكلام أمر حسن بالرحيل فقال الخفاجي: لا بد من مسيري معكم إلى تونس، فلما سمع أبوه الضرغام منه هذا الكلام لم يهن عليه ذلك الأمر؛ لأنه ليس له صبر على فراقه ساعة واحدة، فلم يقبل الخفاجي وطلب من ابنته وزوجته أن يذهبا

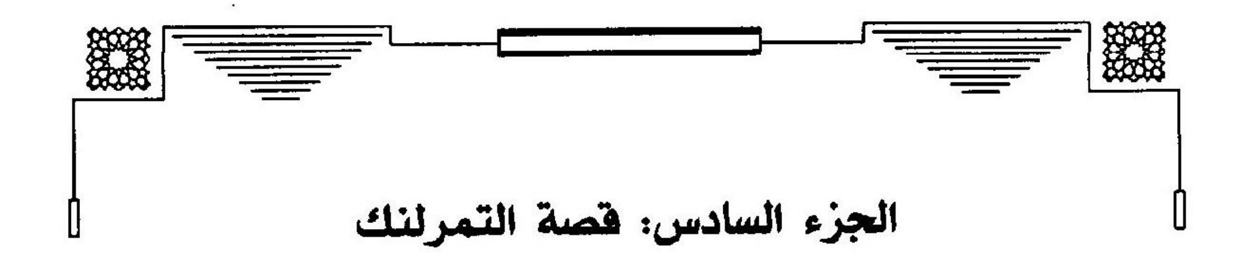
معه إلى تلك الديار ويتركا الحي، فامتنعتا عن المسير وبكتا بدمع غزير ثم تقدمت ابنته ذؤابة وأشارت تنهيه عن السفر وتقول:

تقول ذؤابة يا أبي لا تسافر ... فتترك الأهل في عنا ومصاب
فما لك يا أمير في الغرب حاجة ... ولا لك بها مال ولا أسباب
ولا ثار لك عند الزناتي خليفة ... ولا دم لك أيضاً ولا أصحاب
فكيف تشتتنا وتطلب بعادنا ... ونبقى ضايعين في عنا وحساب
وتبقى الهلاليين مجموع شملهم ... ونحن بلا أهل ولا أصحاب

وبعد ذلك حضرت سادات العشائر لوداع الخفاجي عامر، فودعوه بالبكاء والنواح، ودعوا له بالتوفيق والنجاح، ثم أمر الأمير حسن بدق طبل الرحيل، فعند ذلك هدت المضارب وركب الفرسان ظهور النجايب، واعتقلوا بالسيوف والنصول وركبت النساء والبنات في الهوادج وأمام الجميع زوجة الخفاجي وابنته والجازية ونساء الأمراء والسادات وكان الخفاجي من أفرح البشر في هذا السفر.







# الجزء السادس: قصة التمرلنك

(قال الراوي): لما قتلت بنو هلال ملوك العجم وكان الخرمند صهر التمرلنك يحكم على بلاد الموصل فلما قتل الخرمند أرسلت زهرة لأبيها كتاباً وأعلمته بقتل زوجها الخرمند فلما سمع التمرلنك ذلك الكلام طلع إلى الديوان وهو غضبان وأخبر وزيره إسكندر بمقتل خرمند. قال: يا ملك الزمان أرسل للبلاد واجمع العساكر ودعنا نلاقي بني هلال فأمره التمرلنك أن يأخذ معه مائتي ألف مقاتل وقال له: سر بالعساكر وكونوا رجالاً، فسار الوزير إسكندر بالعساكر إلى أن وصل إلى مكان يقال له القصر فوجد فيه تجاراً آتين من بلاد العجم، فسألهم من أين أتيتم وإلى أين متجهون؟ فقالوا: أتينا من بلاد العجم إلى هذا المكان فاستدعى كبير التجار وكان اسمه كمال الدين وقال له: ماذا سمعت عن بني هلال؟ فقال: قد قتلوا الملوك وخربوا الكوفة وقتلوا الوزير وابن عمه ورفقته وكل الفوارس، ونهبوا الأموال وسبوا النساء وهم راحلين إلى الغرب.

(قال الراوي): فلما فرغ كبير التجار من كلامه والوزير يسمع نظامه قال الوزير لقومه: الرأي أن نرسل مائتي فارس إلى بلاد الرها يكشفون لنا الخبر، ونحن نبقى هنا حتى يأتي الملك، وإذا قال لماذا ذهبتم، نخبره بأنه أتانا علم بأن بني هلال نازلون في بلد جاكدة، ونحن أرسلنا لهم رواداً يكشفون لنا خبرهم وبقينا ننتظرهم، فقالوا: هذا هو الرأي الصواب، أما التمرلنك فإنه بعث المكاتيب إلى جميع البلاد فحضرت العساكر فإذا هي أربع كرات ومعهم المدافع، وأحضر ابن أخته شروان وقال له: احكم موضعي حتى أحضر لك وطفا بنت دياب، فقال له: على الرأس والعين، ثم إنه سار بالعساكر والجيوش يقطع البراري والقفار والسهول والأوعار، حتى وصلوا إلى بلاد الفرقس التي نازل فيها الوزير إسكندر، فلما وصل الملك لاقاه الوزير وسلم عليه، فقال له: علامك ما لحقت بقوم هلال، فحكى له ما صار فعند ذلك غضب الملك وأمر بقتله، فتشفع به ملوك العجم من القتل فصفح عنه، ثم إنهم ساروا إلى أن وصلوا لرأس العين ونزلوا في ذلك المكان. أما ما جرى لبني هلال فإن الأمير حسن رأى مناماً هائلاً، فلما أصبح الصباح استدعى الأمراء وراح يخبرهم بالمنام.

فلما فرغ حسن من كلامه قالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فأحضر أبو زيد

كتاب الرمل وتفسير الأحلام وضرب تخت الرمل ورسم الأشكال على شرح الحال فرأى الأهوال فبكى بكاء شديداً.

فلما فرغ أبو زيد من كلامه قال لهم: كونوا على حذر من الأعادي، وباتوا إلى الصباح حتى صار وقت الضحى فما أقبل عليهم أحد، فقال أبو زيد: يا أمير دياب اعزل من قومك ألفاً ومن بني زغبة ألفاً ومن عرب القاضي ألفاً ومن قوم حسن ألفاً ومن بني هلال اثني عشر ألفاً، وتسلمهم الظعن وتجعلهم أربع فرق من كل فرقة أربعة آلاف فارس، فرجع دياب ولم الظعن وفعل مثل ما قال له أبو زيد، واجتمع الأمراء عند الأمير حسن فقال لهم: ما هو رأيكم، قالوا: الرأي أنك ترسل كتاباً للتمرلنك، وإذا بالأمير دياب رأى رجالاً آتين من ناحية بلاد التمرلنك فمسكهم وأتى بهم للأمير حسن، فقال: ما هذا يا دياب؟ قال: لقيتهم في البرية، فقال الأمير حسن: أنا أكتب كتاباً للتمرلنك وأرسله مع واحد منهم ثم أشار يرسل إلى التمرلنك.

طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى الذين جلبهم دياب، وقال لهم: أعطوه إلى التمرلنك، فأخذوه وساروا حتى دخلوا عليه وأعطوه الكتاب أخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه، وقال مرادي: أطلب منهم عشر المال والخيل والجمال والبنات الحسان وفي الحال أشار يكتب.

ثم طوى الكتاب وختمه وكان عنده عبد اسمه ألماس لكنه كان شديد البأس صعب المراس، فقال: يا ألماس خذ هذا الكتاب إلى حسن بن سرحان أمير العربان، وقل له يرسل لنا نصف مال بني هلال والنصف الآخر له بخشيش، فأخذ العبد الكتاب وسار حتى وصل إلى عند الأمير حسن فدخل وقبل يديه وأعطاه الكتاب، فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه وقال إلى قومه ما رأيكم أيها الأمراء؟ فتقدم الأمير أبو زيد وأشار يرسل له الجواب ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو زيد الهلالي سلامة | ولي دمع جرى فوق الخدود سكيبها |
| من أجل كتاب قد أفاض مدامعي | وعدت أقاسي من كلامه نحيبها |
| فترسل تريد المال منا غصيبة | وبنات هلال إليك نسيبها |
| ونحن رجال الحرب في يوم غارة | بيوم يعود الدم يجري سكيبها |
| فكم من ملوك كبار شتت شملهم | وراحوا من سيفي يقاسوا لهيبها |
| أنا أعلمك عن آل قيس وعامر | وآل زغبي خلاني أجيبها |
| إن طعتني ارحل بقومك يا فتى | نحن سباع الفلا ثم ذيبها |
| من قبل ما تعلق بكم نار حربنا | مغرور إن كنت تقدر تصيبها |

فلما فرغ أبو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى العبد، فأخذه إلى

التمرلنك ودخل عليه وأعطاه الكتاب فأخذه وقرأه، وعرف رموزه ومعناه وغضب غضباً شديداً وزاد به الغم والتنكيد، ثم استدعى بالوزير إسكندر وقال: إن العربان لم يعطونا حسب طلبنا، وحياة رأسي لأحصدهم حصداً وأشردهم بالبراري، قال له الوزير: دعني أكتب الجواب إلى الأمير أبي زيد فقال الملك: لا يلزم الجواب وغداً نصلي عليهم نار الحرب نسقيهم كأس الكرب، وثاني يوم ركب الأمير أبو زيد وأشرف على القوم رآهم مقبلين مثل الجراد المنتشر ما لهم أول من آخر فرجع أخبر بني هلال بهذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| قال أبو زيد الهلالي سلامة | يا حسن جتنا العجم تمشي سريع |
| يا ملك جانا التمرلنك قاصداً | من فوق أشقر يا أمير تليع |
| والخيل من خلفه جراد زاحف | دوارع وسيوف تلمع لميع |
| عشر ملوك كبار غير صغارهم | والتمرلنك في قومه جانا سريع |
| أيا دياب اركب وانهض عاجل | واجعل الأعاجم أن يغدوا قطيع |

(قال الراوي): وهم بالكلام وإذا بالعجم أقبلت مثل الجراد، فركب بنو هلال ولاقوا الأعاجم، ثم إنهم وقفوا مقابل بعضهم البعض فنزل وزير من وزراء التمرلنك إلى الميدان اسمه دخان، عرض وبان وطلب الفرسان وصاح على بني هلال، هل من مبارز هل من مناجز؟ لا يبرز لي كسلان ولا عاجز فما في حومة الميدان إلا الوزير دخان، فما أتم كلامه حتى صار القاضي بدير قدامه وصدمه صدمة هائلة، فقال له: من تكون من الفرسان حتى جئت تهاجم الوزير؟ فقال: أنا قاضي العربان ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وافترقا كأنهما مركبان، وثار الغبار حتى سد الأقطار وقدحت حوافر الخيل نار، فزعق القاضي في وجه دخان صوتاً مثل الرعد القاصف، ثم ضربه بالرمح فأخذها بالترس البولاد. راح ضرب القاضي خائباً فارتد الوزير وضرب القاضي بالسيف فشطب على رقبة الجواد فبراها كما يبري الكاتب القلم، فأراد أن يكمل عليه فأدركه الرياشي مفرج، وأركبوه جواداً والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال إلى وقت الزوال، دقت طبول الانفصال وكل عاد إلى حيه، ولما أصبح الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح وركب التمرلنك بقومه، وركب بنو هلال وخرجوا إلى حومة الميدان واصطفوا، فبرز الوزير دخان إلى حومة الميدان ونادى على الفرسان فبرز له الأمير دياب.

والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين، وضرب دخان دياباً بالسيف أخذها بترس البولاد راحت خائبة، ثم إن دياباً انحدف على دخان وكان معلم الخضرة إذا صار فيه الفارس وكان من ورائه تضربه

الخضرة بالجوز، فلما انحدف على دخان وأراد أن يضربه، برم دخان من وراء دياب يريد أن يضربه، وإذا بالخضرا ضربته بالجوز رمته هو والجواد على الأرض، فنزل له دياب وشد كتافه وأخذه أسيراً إلى أن وصل لعند الأمير حسن، فقال: هذا دخان الذي قتل جواد خالي القاضي بدير وقتل من بني هلال ستة عشر فارساً، قال حسن: والله هذا بطل لا أسمح فيه أن يقتل ثم أمر بخلعة سنبة ولبسها إلى دخان وقال له: عليك الأمان إن رحت عند التمرلنك مع السلامة وإن بقيت عندنا حلت البركة، فقال الوزير: يا ملك الزمان إذا رحت إلى عند التمرلنك ما أعود أقدر أنزل إليكم وإن ما نزلت إليكم يقتلني التمرلنك، والآن أنا بقيت منكم فقال: حلت البركة، فقال: يا ملك الزمان لي ولد عند التمرلنك فقال دياب: أبشر أنا أجيب لك إياه، فبقي دخان عند بني هلال، ولما أصبح الصباح ركبوا وركب ابن دخان وكان اسمه سكران فنزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه دياب وقال له: من أنت؟ فقال: أنا سكران ابن الوزير دخان وأنت أسرت أبي، قال دياب: واليوم ألحقك به ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وافترقا كأنهما مركبان، وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين، ودياب لا يريد أن يقتله إكراماً لأبيه، فداما على ذلك الحال إلى أن أمسى المساء، ودقت طبول الانفصال فافترقا عن بعضهما وكل منهما طلب أهله، وباتا إلى الصباح فنزلا للحرب والكفاح وتجاولا في الميدان من الصباح إلى المساء فقال دياب: وإلى متى وأنا أطول روحي، وسحب الدبوس وضرب به سكران أرماه ونزل إليه وشده وعاد به إلى أبيه الوزير دخان، فأخبره بما أكرمه به السلطان ففرح سكران بأبيه وبقيا عند بني هلال، وفي الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح ونزلوا إلى الميدان فبرز وزير للتمرلنك اسمه شاهين، فنزل له طوي بن مالك والتقى البطلان كأنهما جبلان حتى تعب منهما الزندان، ولم يزالا على تلك الحال من الصبح إلى العصر، فعندها قام طوي في عزم الركاب وضرب شاهين بعود القنا أخذها بترس البولاد راحت خايبة ثم قام شاهين وضربه ومن عظم الضربة وقع شاهين من على ظهر الجواد إلى الأرض فضربه بالسيف على هامه ألقى رأسه قدامه، فلما رأت الأعجام شاهين قتيل، هجموا على العرب وهجمت العرب على الأعاجم والتحم القومان في بعضهم البعض، ولم يزالوا على تلك الحال إلى أن دقت طبول الانفصال، فرجعوا إلى استحكاماتهم وفي الصباح اصطفت العساكر وبرز أبو زيد إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فنزل إليه إسكندر وزير التمرلنك فصدمه أبو زيد صدمة هائلة فتلقاه إسكندر وأنشد يقول:

قـــال أبـــو ســـرحـــان إســـكـــنـــدر     إنني قرم غضنفر رأس فرساني وعسكر

دوم في الجهات عابس إنني قرم غشمشم من يعاديني سيندم

فلما فرغ إسكندر من كلامه وأبو زيد يسمع نظامه أشار يرد عليه:

قال أبو زيد الهلالي فارس يوم المجال عادته قتل الرجال

يوم وقعات الصدم جاك أبو زيد المسمى من لقاكم ما يهما

ضربتي والسن سماً سمها يهري العظام

كما قتلت ملوك أكابر وزراً أيضاً عساكر، يا إسكندر قوم بادر والتقيني بالصدام.

فلما فرغ الأمير أبو زيد من كلامه والوزير إسكندر يسمع نظامه، التقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين، ولم يزالا على تلك الحال إلى وقت العصر حتى كلت منهما الزنود، فعندها قام الوزير في عزم الركاب وضرب أبا زيد بالسيف فأخذها بدرعه البولاد راحت خائبة، ثم إن الأمير أبو زيد هجم عليه كأنه السبع الكاسر وضربه بالقرضاب على عنقه فقتله، عند ذلك حملت العجم على العرب والعرب على العجم، وانحطت من الأعدا الهمم ولله در أبو زيد ودياب وباقي الشباب بما قاموا به من الجهاد والنضال! وما فرق بينهم إلا الظلام، عندها دقت طبول الانفصال فافترقوا عن الحرب والقتال وقد قتل من العجم خلق كثير، وفي الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح واصطف الفريقان فبرز التمرلنك إلى الميدان، فلما رأى بنو هلال التمرلنك تعجبوا من همته وهو كأنه البرج الحصين، فقال حسن: يا أبا زيد ماذا تقول في هذا الفارس، فقال أبو زيد: العلم عند الله أنه عفريت من عفاريت سليمان فقال حسن: نادوا إلى دخان لربما يعرفه، فنادوا له فحضر فقال حسن: يا دخان من يكون هذا الفارس الذي في الميدان؟ فقال له: هذا التمرلنك، فقال حسن: من ينزل إليه فقال دياب: أنا أنزل إليه وعلى الله الاتكال، ثم نزل إلى الميدان وصدم تمرلنك فالتقاه وقال: من تكون من الفرسان؟ قال: أنا دياب حداف الرقاب، فلما سمع التمرلنك هذا الكلام انطبق عليه والتقى البطلان كأنهما جبلان والتطما كأنهما بحران، ولم يزالا على تلك الحال إلى المساء. دقت طبول الانفصال ورجعا عن القتال، وفي الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح فنزل التمرلنك إلى الميدان وطلب الفرسان، فتقدم إليه فارس من بني زغبة فضربه التمرلنك طير رأسه، ثم نزل ثاني قتله وثالث جندله ورابع ما أمهله حتى قتل منهم عشرين فارساً، وأمسى المساء فدقت طبول الانفصال فرجع كل فريق إلى حيه فقال الأمير حسن: ما رأيك يا أبا زيد؟ فقال أبو زيد: الذي تريده يصير فقال حسن: مرادي أن أرسل إلى التمرلنك كتاباً لكي يترك القتال، فقال أبو زيد: اكتب فكتب حسن إلى التمرلنك يقول:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي | بدمع جرى فوق الخدود سكاب
نعم أيها الغادي على متن ضامر | تشابه نسيم الريح مثل شهاب
إذا جيت للتمرلنك بلغ رسالتي | أيا ريت عمره ما يشوف نكاب
وقل له قال الأمير أبو علي | أمير ابن أمير من فروع أنساب
ألا يا ملك اسمع مقالي وقصتي | وافهم كلامي لا تزيد عتاب
فإن طعتني أسلم بروحك وعزوتك | وفز بنفسك من ملوك أعراب
من قبل ما تعلق بكم نار حربنا | وتوقع بأوشم شومها وأنكاب

فلما فرغ حسن من كلامه طوى التحرير وختمه وأعطاه إلى عبده، فأخذه وسار إلى التمرلنك وأعطاه التحرير، فقرأه فغضب غضباً شديداً وسحب السيف وضرب العبد طير رأسه، وقال لقومه: غداً يكون آخر أيام بني هلال، فوصل الخبر للأمير حسن فغضب غضباً شديداً، وشاور الأمير أبو زيد على هذا الأمر فأجابه هاتوا لنا ثمانين ألف جمل وحملوها تراباً ناعماً، ويركب مع الجمال ثمانون أميراً والعبيد تسوقها من الوراء ونركب نحن والله يعطي النصر لمن يشاء، فاعتمدوا على هذا الرأي ولما أصبح الصباح ركب الأمير أبو زيد بقومه التسعين ألفاً والقاضي بقومه والأمير دياب بقومه، والأمير حسن بقومه ومشوا الجمال بعدما حملوها تراباً، وقال أبو زيد للذي مع الجمال إذا انكسرتم تعالوا صوبنا، ثم إنهم دقوا النوبات وطلبوا اللقا والثبات، فلما سمع التمرلنك صوت الطبول دق طبله وركب بقومه، فهجمت الأعاجم بالمدافع وكان عددها خمسمائة مدفع، فعندها لكزت بنو هلال الجمال على المدافع فجفلت من صوت المدافع، وكثر الصياح من وراء الجمال والعبيد تشكهم بالرماح وفزروا عدول التراب وهب الهواء وثار العجاج والغبار حتى عميت الأبصار، فركضت الجمال وداست الأعاجم وخيلها، وحينئذ هجمت الأعراب الأسود وطعنوا الصدور والكبود، فلما نظر التمرلنك إلى ما صار في قومه أراد الهرب، وإذا بالأمير صبرا بن أبو زيد عارضه في الطريق وصاح به، إلى أين يا ابن ألف قرنين فالتقاه التمرلنك بقلب مثل الصخر، وتجاولا في الميدان وتكسرت بينهما العيدان ثم هجم التمرلنك على الأمير صبرا هجمة الأسود وحمله على راحة زنده فتعلق صبرا بخصمه وسحب الخنجر وطعن به التمرلنك، وإذا بالأمير حسن أدركه وفي يده السيف ونزل وقطع رأس التمرلنك فعندها مالت العرب على العجم وما سلم منهم إلا كل طويل عمر، وفاتوا على خزائن التمرلنك وغنموا الأموال وفرقها الأمير حسن على العرب وأحضر قوم التمرلنك والوزير دخان وجعله ملكاً عليكم ومن بعدها ارتاحت العساكر من الحرب والصدام وأقاموا عدة أيام ورحلوا إلى أرض حلب.



# قصة الخزاعي والملك بدريس بحلب

وكان حاكم حلب يقال له الملك بدريس، وكان صاحب مال وخيل وأبطال، فوصل له خبر بني هلال أنها أمحلت أرضهم وما فعلوا في الملوك الذين حاربوهم وكيف أن الخفاجي عامر أضافهم وسافر معهم، فلما سمع هذا الكلام جمع أكابر قومه فقال وزيره الخزاعي: علامك يا ملك جمعت القوم والفرسان؟ فأجابه أريد أن أخبركم عن بني هلال وما فعلوا قبل أن يدخلوا بلادنا ويقتلوا أبطالنا ورجالنا، وإذا لم نعمل تدبيراً وقعنا في أمر عسير فقال الخزاعي: الرأي عندي أن ترسل لهم رواداً إلى أرض الكبيسة، يرودها ويعرف كم يكون معهم من العساكر والأبطال ويعود بالحال، حتى نحضر رجالنا لأجل حربهم وقتالهم، قال: هذا هو الرأي الحميد، ثم استدعى برجل يسمى سابق وقال له: مرادي منك أن تذهب وترود لنا بني هلال تنظر قومهم والفرسان وترجع لنا الخبر الشافي، فقال: سمعاً وطاعة، وركب ناقة عشارية وصار يقطع الفيافي والقفار، حتى أشرف على نجوع بني هلال فرآهم بعدد الرمال وإذا بالأمير أبي زيد آتيا من الصيد فلما رآه عرف أنه رواد، فقال له: أنت آت إلى بني هلال لتخبر مولاك بدريس عن أحوالنا، فأجابه أصبت في ظنك وما عاد شيء مخبأ عنك ولكن قل لي عمن اسمك حتى أعرفك، فقال له: أنا أبو زيد، فقال له: يا أمير أعطني الأمان حتى أحكي لك السبب، فقال: لك الأمان وألف مرحباً بك، أنت ضيفي، عندها أشار سابق يقول شعراً.

فلما فرغ أبو زيد من كلامه وسابق يسمع نظامه، أطرق إلى الأرض فقال أبو زيد: أنت اليوم ضيفي قم بنا إلى المنزل، فسار معه إلى بيته وأكرمه غاية الإكرام ثم قال: قم بنا يا سابق إلى عند الأمير حسن نواجهك فيه، فأجاب أخاف أن يقتلني، فقال له: لا تخف بكفالتي فقام وأخذه معه وسار لعند الأمير حسن فدخل أبو زيد وسلم فردوا عليه السلام، وجلسا فقال له حسن: من أين ضيفك يا أمير أبا زيد؟ فقال له: من حلب فاسأله عما تريد، فعندها ناداه حسن فقام سابق وقبل يديه فقال له حسن: من أين أنت آت وإلى أين ذاهب؟ فحكى له قصته على التمام ثم أقام عند أبي زيد عدة أيام وبعدها طلب إذناً للسفر، فأذن له وأعطاه مائة دينار، فسار وما هو مصدق بالنجاة إلى أن وصل إلى سيده ووزيره وأشار يقول شعراً بدوره.

فلما فرغ سابق من كلامه والملك يسمع نظامه، تغيرت منه الأحوال من عظم هذه الأقوال، ثم قال: ما رأيكم أيها الناس الأعيان هل نبادرهم بالحرب أم ندعهم يجوزوا بلادنا بالأمان؟ فقالوا: يا ملك الزمان نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك، والذي ترى فيه الصواب افعله، فقال الوزير: أرى أن ننتظر حتى يصلوا إلينا ونكون قد جمعنا قومنا وأبطالنا حتى إذا ما وقع بيننا وبينهم القتال، نشيلهم على أسنة الرماح وننهب مالهم ونسبي عيالهم، فقال الملك: هذا هو الرأي الموافق، ثم إنه بعث بالأمر إلى جميع عماله بأن يحضروا حالاً بالفرسان والأبطال، وما مضى إلا قليل من الأيام حتى غصت حلب الشهباء بالعساكر فسر الملك بهم وأمر القادة أن يكونوا دائماً متيقظين لقدوم بني هلال. أما بنو هلال فإنهم لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مكان قريب من حلب، فنزلوا فيه وامتدوا في نواحيه وأكلوا الأثمار من الأشجار وشربوا المياه، فهربت الأهالي والسكان وأعلموا الملك بدريس بهذا الشأن فصاح الملك عليهم: أيها الأبطال فقال له الوزير: اطلب منهم عشر المال والنوق والجمال فإن أجابوا هذا الطلب كان غاية المراد وإن امتنعوا بادرهم بالقتال، فاستصوب الملك هذا المقال وكتب.

فلما فرغ بدريس من شعره ونظامه طوى الكتاب وختمه وأرسله مع نجاب إلى بني هلال فدخل نجاب على الأمير حسن وقبل يديه ثم سلمه الكتاب وطلب الجواب، فلما قرأه وفهم فحواه تغيرت منه الأحوال ولكنه أخفى الكمد وأظهر الصبر والجلد، وأمر بأن يأخذوا الساعي إلى دار الضيافة فأخذوه وبعد ذلك التفت الأمير حسن إلى السادات والرجال وأعلمهم بما كتب بدريس.

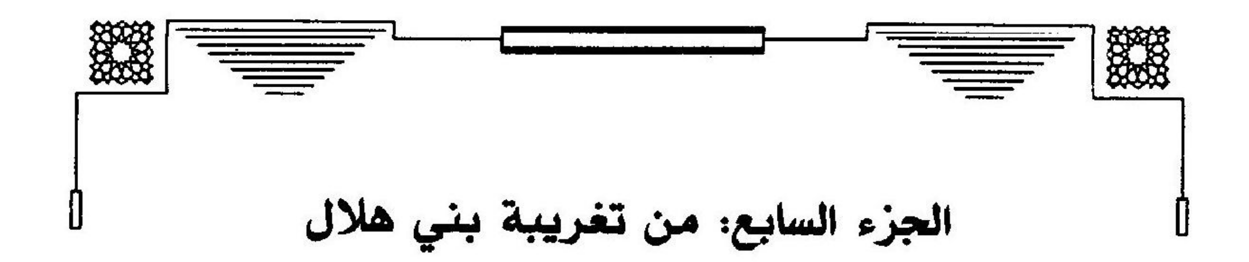
عندئذ قال أبو زيد: يا ابن عمي ليس لبدريس غير ضرب السيف وأما دياب فصار الشرر يتطاير من عينيه وعوارضه ترقص في وجهه وقال: علي في بدريس والخزاعي وحدي فعند ذلك أشار القاضي بدير يرد له الجواب ثم أعطاه للنجاب فأخذه وسار حتى وصل إلى الملك بدريس فناوله إياه، فلما قرأه اسودت الدنيا في عينيه ثم أمر بجمع العساكر والأبطال، فامتثلوا أمره وجمعوا مائتي ألف بطل فركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول وركب الخزاعي بهذا الجيش الكثير وساروا لاستقبال بني هلال قبل وصولهم إلى الأطلال، فلما التقى الجمعان للقتال برز الخزاعي إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه الأمير دياب فالتقاه الخزاعي بقلب كالحديد وصدمه صدمة الفرسان الصناديد وأنشد يهدده.

فلما فرغ دياب من شعره التحم البطلان في القتال، وما زالا في كر وفر وطعن وضرب من الصباح إلى وقت الظهر وكان الخزاعي قد ضاقت به الحيل فطعن خصمه

بالرمح فانقلب دياب تحت الفرس، فراحت الطعنة خايبة فعند ذلك استوى على ظهر الخضرا وضرب الخزاعي بالسيف، فالتقاه بدرعة البولاد فوقعت على رقبة الجواد، فوقع الوزير على الأرض، وإذا بقومه أدركوه وخلصوه، فلما رأى دياب هجوم الفرسان والأبطال صاح في بني زغبة وأمرهم بالهجوم والقتال، فهجموا عليهم ومكنوا الصوارم في رقابهم وما زال دياب وراهم في الطلب حتى أوصلهم إلى مدينة حلب. فدخلوا المدينة وأغلقوا الأبواب ورجع دياب وقصد حسن في الصيوان وسلم عليه فقبله حسن بين عينيه وشكره، فأخبره بما جرى في ذلك اليوم وقال: لا بد للملك بدريس أن يقصدنا باكراً ويخرج إلى ميدان القتال فأذيقه الوبال وأستخلص منه الغنائم والأموال.







# الجزء السابع: من تغريبة بني هلال

هذا ما كان من بني هلال، وأما الخزاعي فإنه رجع إلى حلب وهو في حالة العناء والكرب، ودخل على الملك بدريس وأعلمه بما جرى في ذلك اليوم وكيف قتلت الرجال وفقدت الأموال وظفر بهم بنو هلال، فلما سمع منه هذا المقال اعتراه الانذهال وخرج عن دائرة الاعتدال، وبات بدريس على غير هدى. ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، أمر بخروج الأبطال للحرب والنضال فاستعدت في الحال وركب بأول العسكر كأنه الأسد الغضنفر، وخفقت على رأسه الرايات وحوله الوزراء والسادات، فلما علمت بنو هلال بقدوم الملك بدريس للقتال استعدت للنضال وركب الأمير حسن في الفرسان والأبطال فاصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف، وبرز الملك بدريس إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان طالباً مبارزة الفرسان وقال: لا يبرز لي سوى الأمير حسن بن سرحان، فما أتم كلامه حتى صار الأمير حسن أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال فأنشد بدريس يقول:

قال الفتى بدريس الهمام الماجد ... اسمع كلامي يا حسن يا قايد
لا بد لي من قتل كل رجالكم ... في حد سيفي يا أمير القلايد
وأقتل أبو زيد الأمير سلامة ... ودياب والقاضي بدير الفايد
قال الملك بدريس هذا يومكم ... يا من يودع قومه ويعاود
رد الفتى حسن الهلالي أبو علي ... نيران قلبي زايدات وقايد
لا بد من قتلك ونهب أموالك ... مع قتل أبطالك وكل معاند
لو أن قومك ألف ألف ومثلهم ... لا بد أن يبقوا الجميع فقايد
قومي أنا تسعين ألف ومثلهم ... تسعين في تسعين ألف ماجد
فيهم أبو زيد الأمير سلامة ... ودياب والقاضي بدير الفايد
هلا رأيت دياب طرد جموعكم ... وكسر عساكركم بغير مساعد

(قال الراوي): فلما فرغ بدريس من كلامه وفهم الأمير حسن فحوى شعره ونظامه زاد حمقه وعظم غيظه فحمل عليه كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل فالتقاه بدريس في الحال واشتبك بينهما القتال وعظمت الأهوال، وكانا تارة يتقدمان

وتارة يتأخران كأنهما أسدان كاسران وبحران زاخران، وما زالا يتجاولان في ساحة الميدان حتى كلت منهما الزندان وتعجب من قتالهما الفرسان، وقد اختلف بينهما طعنتان وكان السابق بدريس فراحت خاية بعد أن كانت صاية فارتد إليه حسن وهجم عليه وضربه بالسيف فاستتر في طارقة البولاد فبرى السيف رقبة الجواد فوقع على الأرض، فأدركه قومه في الحال وخطفوه من ساحة المجال وأركبوه على جواد، واشتبك القتال وتضاربوا بالسيوف والرماح وما زالوا على تلك الحال وهم في أشد قتال إلى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فرجعت بنو هلال إلى المضارب والخيام وهم منصورون.

وأما بدريس فإنه رجع غضبان كثير الهموم وقد خاف من العواقب وحلول المصائب، وفي الحال كتب الرسائل وأرسلها إلى ولاة المدن بإرسال المؤن والسلاح والعَساكر لقتال بني هلال الأوغاد، وأن يحملوا عليهم من أربع أركان المجال فلما وصلت هذه الرسائل والأخبار إلى ولاة الأقطار فامتثلوا أمره في الحال، وجمعوا الفرسان والأبطال وقصدوا بني هلال من حدود البحر الأسود في جمع كبير العدد وكان بنو هلال بأفراح وهم يؤملون الفوز والنجاح، وإذا بالمواكب والكتائب أقبلت عليهم وأحاطت بهم من أربع جهات الميدان وهم كعدد الرمل، فهجموا عليهم وسبوا النساء والبنات فعلت الضجات والصيحات، وتضايقت بنو هلال وأيقنوا بالهلاك والدمار وقاتلوا قتالاً يذهل الأبصار وألقوا نفوسهم على الأخطار وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل حتى صار وقت الزوال، فدقت طبول الانفصال فافترقت العساكر عن بعضها، وبات بدريس في سرور على ذلك الانتصار وبات بنو هلال في أسوأ حال مما أصابهم من الذل والوبال.

ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح جمع بدريس أكابر دولته وأرباب ديوانه وقال لهم: اعلموا أيها الرجال أن بني هلال قد تضعضعت منهم الأحوال، ومرادي أن أطلب منهم عشر المال فإن أبوا وامتنعوا نقاتلهم ونستخلص منهم المال بالقوة ونبليهم بالويل والدمار، فلما سمع الخزاعي وأكابر الديوان هذا الكلام قالوا: افعل ما تريد أيها الملك الهمام فعند ذلك كتب كتاباً وسلمه إلى نجاب وأمره أن يسلمه إلى الأمير حسن سيد بني هلال، فامتثل أمره وسار يجد في قطع القفار حتى وصل إلى بني هلال، فدخل على الأمير حسن وسلمه الكتاب وطلب منه الجواب، فلما فتحه وقرأه انشغل باله وتضعضعت أحواله، وأمر أن يأخذوا النجاب إلى دار الضيافة ثم التفت إلى سادات الرجال وقال لهم: ما قولكم أيها الأماجد؟

قالوا: الرأي السديد عند أبي زيد الفارس الصنديد، فلما سمع أبو زيد هذا

الكلام قال: أرى أن نكتب إلى بدريس نوعده بإرسال المال بعد عشرة أيام بشرط أن يرفع عنا القتال، ومتى مضى الوقت نرحل بالليل من هذه الأطلال، ولا يعلم بنا حتى نكون قد قطعنا مسافة طويلة، فإذا لحقنا بالعسكر نبادر بالقتال ونسقيه كأس الوبال، ونملك مدينة حلب ونبلغ القصد والأرب، فاستحسن الحاضرون هذا الخطاب فعند ذلك أشار حسن في كتاب بذلك وختمه وسلمه إلى النجاب. فأخذه وسار حتى وصل إلى حلب فدخل على الملك بدريس وناوله الكتاب فلما قرأه فرح فرحاً شديداً وقال: لقد بلغنا المراد ونلنا مسرة الفؤاد، ثم إنه أمر الرجال أن تهيئ المخازن في الحال لوضع الأموال التي ستأتيه من بني هلال، وأن تفرش القصور والحارات برسم البنات المخدرات، فامتثلوا أمره وزالت عنه الهموم والأحزان وكتب إلى الأمير حسن يعطيه الأمان ويأذن للعرب بالدخول إلى حلب وذلك على سبيل البيع والشراء وهذه صورة الكتاب.

ثم إنه طواه وسلمه إلى النجاب، وأمره أن يسير إلى بني هلال ويسلم الكتاب للأمير حسن ويأتيه بالجواب، فامتثل الأمر وسار، فدخل على الأمير حسن فسلمه الكتاب. فلما قرأه وفهم فحواه فرح فرحاً شديداً وأكرم النجاب وأرسل معه الجواب وهو يتضمن على كلام لطيف ويشكر بدريس، ثم ابتدأت العرب بالدخول إلى مدينة حلب يشترون من أهلها البضائع الثمينة ويبيعونهم من المكاسب التي اكتسبوها من البلاد والمدن، وما زالوا على تلك الحال إلى أن مضت تسعة أيام من المدة، فعند ذلك اجتمع الأمير حسن بالأمراء والسادات وقال لهم: هذا هو اليوم التاسع فما هو رأيكم أيها السادات؟ فقال أبو زيد: نركب ظهور الخيل ونسير في ظلام هذا الليل، وأن لا يذهب أحد منا إلى حلب خوفاً من بدريس أن يعلم بواقعة الحال فيقبض عليه، فاستحسنوا هذا الخطاب ورأوه عين الصواب، وفي الحال أرسل الأمير حسن منادياً ينادي بين جموع العربان أن لا يذهب أحد منهم إلى حلب. أما الملك بدريس فإنه صبر إلى اليوم العاشر، ولما بلغه بأنه لم يدخل أحد إلى البلد من العرب، تكدر بعد الفرح والسرور وخاف من عواقب الأمور، فأرسل بعض الجواسيس ليكشف له الأخبار وكان اسمه المحتال، فغير زيه وتنكر حتى لا يعرفه أحد، وأخذ حماراً وحمله من المنقولات والعطريات وجد في قطع الفلوات قاصداً بني هلال، ولما وصل إليهم بدأ ينادي ويقول: يا معشر العرب معي ملبس وزبيب وفستق وكرابيج حلب، فمن أكل وشرب حصل له السرور والطرب ومعي أيضاً العطر والطيب الذي يصلح لكل حبيب، ثم حانت منه التفاتة إلى الوراء فلم ير أثراً للحمار، فقال: لقد نفقت بضاعتنا مع الحمار. ولما وصل إلى صيوان الأمير حسن جعل يتجسس

الأخبار، فوجد عنده جماعة من الأمراء وهم يتداولون في أمر المسير، فعرف أن قصدهم الرحيل تحت ستور الظلام، فرجع على الأثر وأعلم بدريس بذلك الخبر، فعظم عليه وتكدر فقال: لقد خدعنا بنو هلال بالمكر والاحتيال، فما رأيكم الآن في هذا الشأن؟ فقال الوزير: الرأي يا ملك الزمان أن أسير بالمراكب والكتائب وأكمن لبني هلال في سهل سراقب؛ لأنه لا بد لهم من العبور في ذلك المكان ثم أنت تدركني بباقي الأبطال والفرسان ونبادرهم بالحرب والصدام ونبلغ منهم القصد والمرام، فاستصوب بدريس هذا الكلام فعند ذلك ركب الوزير بالعساكر وقصد سهل سراقب وكمن لبني هلال. وكان الملك بدريس قد كتب إلى ولاة المدن والبلدان يطلب منهم أن ينجدوه بالأبطال والفرسان، فأرسلوا له مائتي ألف بطل فدقت الطبول ونفخت الزمور وتقلدت الرجال بالرماح والنصول وعلت الفرسان ظهور الخيول وساروا بالعساكر قاصدين ذلك المكان.

وأما ما كان من بني هلال فإنهم لما أظلم الظلام أمر أبو زيد العرب أن تضرم النار أمام المضارب والخيام حتى لا يشعر بهم أحد من الأنام، وأن تركب الحريم والعيال على ظهور الهوادج أمام الأبطال، ففعلوا كما أمر وتجهزوا للسفر وسار الخفاجي عامر بخمسة آلاف من الفرسان مع البنات والنسوان خوفاً من نكبات الزمان وطوارق الحدثان، حتى وصل بالقرب من سراقب، وعند وصوله إلى ذلك المكان أدركه الخزاعي بالأبطال والشجعان وهجم عليه من كل جانب ومكان، فخاف الخفاجي عامر على الحريم والعيال، فهجم ومن معه على الأعداء بقلوب كالجبال، وفي الحال انتشب القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال، وكان الخفاجي من أشد فرسان الصدام، فبذل في الحرب غاية المجهود غير أن عساكر الأعداء كانت أكثر فانصبت عليه القوات من سائر الجهات فظفر الخزاعي بعد قتال شديد وأسر عدداً من البنات، فبينما كان الخفاجي في أشد الأهوال، إذا بفرسان بني هلال قد أقبلت وأمامها الأمير أبو زيد ليث الميدان وكان قد بلغه الخبر بما حصل إلى الخفاجي، فغار بالفرسان والأبطال حتى أدرك بني هلال وهجم إلى ساحة المجال وتبعته العساكر والجنود وقاتلوا قتال الأسود، وبعد معركة عظيمة ومذبحة جسيمة خلصوا البنات والنسوان من الأسر والهوان وإذا بغبار من خلفهم قد ظهر وانكشف للأبصار وبان عن عسكر جرار كعدد رمل البحار، وكان عسكر بدريس ملك حلب قد حضر لقتال بني هلال، فبادرهم للقتال من اليمين واليسار فانتشب القتال وعظمت الأهوال واستمر القتال إلى وقت الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال، فانفصلت العساكر في كل ناحية وكان في قلب بدريس لبني هلال نار الاشتعال لعدم إعطائهم

المال وما بدا منهم من الفعال وبات في قلق عظيم وغم جسيم.

(قال الراوي): ولما أصبح الصباح، دقت طبول الحرب والكفاح، فركب الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح والنصول فاصطفت الصفوف وبرز الخزاعي وقال: لا يبرز لي سوى أبي زيد المحتال، فما أتم كلامه حتى صار أبو زيد أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال فالتقاه الخزاعي بقلب كالصوان وأنشد يقول:

| | |
|---|---|
| قال الخزاعي فالحرب مرادي | أما مريع الخيل يوم طرادي |
| اليوم يابو زيد أفني جمعكم | فأنتم غاية مقصدي ومرادي |
| أقتل حسن أميركم بمهندي | وأقتل عرندس والأمير حماد |
| وأقتل دياب الخيل من حاز الملا | وآخذ الخضرا بضرب جلادي |
| واليض آخذها وأقتل كل من | يوم الوغى عند البنات ينادي |
| وآخذ الحمرا رغماً يا فتى | من بعد طعن يشيب الأولاد |
| وأجعل نساكم خادمات نسائنا | طول الزمان وما لهن من عاد |

فلما انتهى الخزاعي من شعره ونظامه أجابه أبو زيد يقول:

| | |
|---|---|
| قد قال أبو زيد الهلالي سلامي | اليوم تبصر يا خزاعي طرادي |
| اليوم تبصر فارساً ذا همة | وعزيمة أقوى من البولاد |
| شهدت لنا بحروبنا كل الورى | يا أخبث الوزراء والأوغاد |
| اليوم تبصر فارساً ذو همة | وعزيمة أقوى من البولاد |
| إني سأملك أرضكم وبلادكم | ويطيب في هذا النهار فؤادي |
| ومدينة الشهباء تخت جلوسنا | من بعد حرب خاطف الأكباد |

(قال الراوي): فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر والنظام اغتاظ الخزاعي من هذا الكلام وصدمه صدمة الأسد الضرغام فالتقاه أبو زيد وانطبق عليه إلى أن سبق منهما ضربتان كأنهما صاعقتان وكان السابق الخزاعي فالتقاه أبو زيد بدرقة البولاد فسقط السيف على رقبة الجواد فبراها كما يبري الكاتب القلم، فوقع أبو زيد على الأرض وتحطم، فأراد أن يعجل فناه وإذا بفارس قد أقبل من وسط المجال وصاح صيحة تزعزع الجبال، وانقض على الخزاعي مثل العقاب وقال: ارجع يا كلب الرجال فسوف يحل بك الوبال، وكان صراخ الأمير دياب فالتقاه الخزاعي بقلب كالجبال واشتد بينهما القتال إلى وقت الزوال وهما في ضرب وطعان وقد اختلف بينهما طعنتان قاتلتان وكان السابق الأمير دياب، فطعن الأمير الخزاعي بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فوقع على الأرض يختبط بدمه، فلما رأت العساكر ما حل بوزيرها، حملت في الحال على بني هلال من اليمين والشمال بقلوب كالجبال

وهم يصيحون يا لثارات الوزير! وقاتلوا قتال الأبطال، فالتقتهم بنو هلال واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وتمددت الرجال على وجه الرمال وما زالوا على تلك الحال إلى وقت الزوال، فدقت طبول الانفصال وافترقوا عن القتال ورجع بنو هلال في فرح واستبشار، وأما دياب فإنه رجع من ساحة الميدان وهو مسرور فرحان، فالتقته النساء بالفرح والسرور والغبطة والحبور وشكرته على ما فعل وقلن لله درك من بطل، لقد قهرت الغريم ودافعت عن الحريم فلا عدمناك يا فارس الخضراء وليث الصحراء، وبعد ذلك دخل على الأمير حسن، فقام له على الأقدام والتقاه بالترحاب والإكرام، وقال له: مثلك تكون الفوارس يا زينة المجالس ولما استقر به الجلوس وطابت من القوم النفوس، التفت الأمير دياب إلى أبي زيد وأشار يخاطبه بشعره.

(قال الراوي): فلما فرغ دياب من شعره ونظامه شكرته الأمراء والسادات على حسن اهتمامه ثم أشار أبو زيد يرد عليه بشعر جديد.

(قال الراوي): فلما فرغ أبو زيد من شعره ونظامه وفهم الحاضرون فحوى كلامه، شكره حسن على هذا المقال وقال له: مثلك فلتكن الرجال، وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح وانبساط وأفراح على الانتصار والنجاح، ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، استعدت الفرسان للحرب والكفاح فدقت الطبول وركبت الأبطال ظهور الخيول واصطف الجنود والعساكر وركب بدريس ظهر الحصان وقلبه يقدح بالنيران على ما جرى له وكان من الأنكيس والخذلان، وقد برز إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان وقال: من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فما بي خفى، أنا بدريس ملك حلب فابرزوا لي يا أمراء العرب، فما أتم كلامه حتى صار دياب أمامه، فأشار بدريس يتهدده بالكلام فأجابه الأمير دياب بكلام مماثل.

(قال الراوي): فلما فرغ دياب من هذا الشعر والنظام هجم على الملك بدريس بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات، وكان قد اختلف بينهما طعنتان قاتلتان، وكان السابق دياب ليث الميدان، فطعنه في صدره خرجت تلمع من ظهره، فوقع بدريس على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً، فلما رأت العساكر ما حل بملكها أيقنت بهلاكها، فصممت على القتال وهي تصيح الثأر! الثأر! وحملت من اليمين إلى اليسار بقوة واقتدار، فالتقتها بنو هلال في الحال واشتبك بين الفريقين القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وتقطعت الأوصال وتزلزلت الأرض من ضجيج الأبطال وقعقعة النصال، وما زالوا في عراك وقتال يشيب الأطفال إلى وقت الزوال، فعند ذلك تأخرت عساكر بدريس وقصدت مدينة حلب خوفاً من الهلاك والعطب، فتبعها

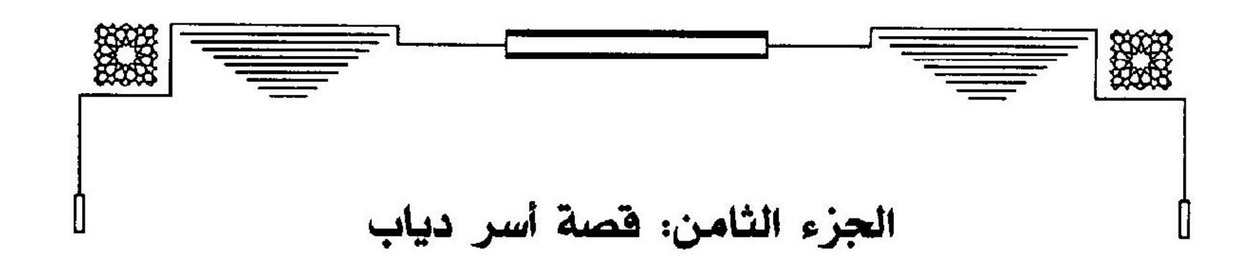
أبو زيد بالأبطال والفرسان، فلما رأت ما حل بها من الهوان طلبت لنفسها الأمان، وعندما بلغ أهل المدينة بما جرى وكان خرجت الأكابر والأعيان، فالتمست من أبي زيدان أن يصفو عنهم ويعاملهم بالفضل والإحسان، فأجابهم إلى ذلك الشأن بعد أن استشار الأمير حسن ثم بموت بدريس ملك حلب، زال عن بني هلال العناء والكرب وطابت لهم الأوقات. وكان لبدريس ولد حميد الخصال، ممدوح بين الرجال، اسمه جمال، خرج مع جماعة من الأبطال ووقع على يد حسن سيد بني هلال، فأقامه ملكاً مكان أبيه وأمر أهل المدينة أن تطيع أوامره، وقامت بنو هلال في تلك الأطلال عشرة أيام وهم بين طعام ومدام تجهزت للرحيل والسفر، فدق طبل الرجوع وفي الحال هدت الخيام وركبت الفرسان وصارت النساء والبنات في الهوادج وركب الأمير حسن وباقي السادات ورفعت على رؤوسهم الأعلام والرايات وجدوا في قطع البراري والفلوات كأنهم ليوث الغابات، وما زالوا يقطعون الروابي والآكام مدة ستة أيام حتى وصلوا إلى مدينة حماه، فنزلوا على نهر العاصي ولم يعترضهم أحد؛ لأن أهل البلد بلغهم ما جرى على أهل حلب، فخافوا عواقب الأمور وإثارة الفتن والشرور، فاستقبلهم الملك بالإكرام والاحترام وصار لهم من جملة الأعوان والخلان.

(قال الراوي): ومن الأمور الغريبة والحوادث العجيبة أنه كان بمدينة حلب تاجر اسمه كساب وكان من أشهر الناس ومن أتباع صاحب جزيرة قبرص الملك هراس، قد حضر إلى تلك المدينة وكان يتاجر بالبضائع الثمينة، فاتفق أنه لما قدمت بنو هلال إلى تلك الديار نهبت أمواله مع جملة الأموال، فشكى أمره للأمير دياب وطلب رد أموا'له التي كسبتها بنو هلال، فلم يحصل على ما يريد، فترك حلب وقصد الملك هراس فدخل عليه وشكا أمره إليه وأعلمه بواقعة الحال وما فعلت بنو هلال، فاغتاظ الملك غيظاً شديداً ووعده بإحضار دياب وكان عنده ثلاثة من الأتباع، أصحاب حيل وخداع، فأحضرهم إليه وأعلمهم بواقعة الحال وفقدان الأموال وطلب منهم أن يسيروا مع كساب ويأتوا بالأمير دياب فقالوا: سمعاً وطاعة، وغيروا ثيابهم وساروا بالمراكب من تلك الساعة وصحبتهم الهدايا، وعند وصولهم اللاذقية نزلوا إلى المدينة وجعلوا يتجسسون أخبار بني هلال حتى علموا أنهم في حماه، فعند ذلك ركبوا وساروا إلى أن وصلوا إلى البلد وخلوا منزل دياب ومعهم هدايا ثمينة. فسلموا عليه وقدموا له الهدايا فترحب بهم غاية الترحيب وسألهم عن حالهم فقالوا له: نحن تجار وإخوة ثلاثة جئنا في تجارة عظيمة وتركناها في اللاذقية فقد خفنا من الطريق ومرادنا أن تعدينا من هذا الطريق، وعند ذلك شالوا ثلاث بدلات مزينة بالجواهر

الثمينة التي تدهش الأبصار وتحير الأفكار وقالوا: هذه إلى الأمير حسن وهذه إلى الأمير أبي زيد وهذه إلى القاضي بدير، فقال دياب: ومن هؤلاء الذين تقولون عنهم وكلهم تحت يدي، فقالوا: الذي تريده أعطه والذي لا تريده لا تعطه، فقال لهم: نحن لا نقول لأحد عنكم لئلا يلحقوكم، قالوا: نحن تجار ولا أحد يجلب متاجر مثلنا ومعنا مركب موسوق خلاف ما معنا الآن وكل سنة نبيع ونشتري ونكسب النصف في بضاعتنا ولا نجيء إلا إلى حلب، وكان اللعين بدريس يشتري منا ما يلزم من البضائع كل سنة وقد أتينا هذا العام على حسب عادتنا فلم نجده وقد وجدناكم ناصبين على حلب، فسألنا بعض المسافرين.







# الجزء الثامن: قصة أسر دياب

فأخبرونا أنك قتلته وملكت بلاده ففرحنا لأنك قتلت هذا الملعون الخيبري، ونحن أتينا إليك ومالنا ونوالنا وكل ما تحت يدنا فهو لك وهذه البدل منا هدية إليك. ففرح بهم فرحاً شديداً ثم التفت إلى التاجر الثاني وسأله ما اسمك؟ قال: منذر، ثم التفت إلى التاجر الثالث فسأله ما اسمك؟ فأجابه نطرون العقيلي، فقال لهم: إن كان متاجركم تعوز مائة جمل أعطيها لكم ولكن إن كان مرادكم أكون لكم حمى من المضرين أخفركم إلى أرض تونس الغرب، فاحلفوا لي بالله العظيم لا تخونوني، فحلفوا له أنهم لا يخونونه أبداً فقال لهم: سيروا بنا إلى المركب حتى أنظر متاجركم وأرى الحمولة إلى كم جمل تحتاج حتى أرسلهم لكم مع عبيدي، فدخلوا معه بالخداع قالوا: أنت تريد أن يشعر الناس بنا ونحن نريد أن لا يضطلع على سرنا إلا الله وأنت؛ لأن العرب متى رأوا متاجرنا يطمعون بنا، فيقع الخلاف بيننا وبينهم وينشب القتال، فنكون نحن السبب في هذا الشر والكدر، فلما سمع منهم هذا الكلام قال: سيروا وأنا أسير معكم وحدي حتى أنظر ما ذكرتموه لي، فركبوا خيولهم وساروا ليلاً خوفاً من أن ينظرهم أحد فتظهر حيلهم، وبينما هم سائرون وإذا بالأمير عمار أخو الأمير حسن التقى بهم فلم يعرف منهم سوى الأمير دياب فقال: يا ابن غانم إلى أين سائر مع هؤلاء القوم؟ فأجابه هؤلاء ضيوفي ومرادي أوصلهم خوفاً عليهم من السفهاء، فقال: أتريد أن أذهب معك؟ فأجابه اذهب في حالك.

فسار الأمير عمار إلى منزله وأما الأمير دياب فإنه سار مع أصحابه من العشاء إلى ثاني يوم الظهر حتى أشرفوا على البحر المالح، فسمع دياب صوت دوي الماء فدخل عليه الوهم وقال في باله: والله أعلم أن هؤلاء الثلاثة خائنون؛ لأن أعينهم ملأى بالغدر، فأراد أن يرجع من وقته ولكن المقدر لا بد من نفاذه، ولما رأوه قد تغير وفي سيره تأخر قالوا: أما تنزل معنا في البحر؟ فأجابهم أن نزولي معكم في البحر ليس ضرورياً وإن كان كلامكم صحيحاً انزلوا وهاتوا ما قلتم لي عليه، ثم نزل عن الشهبا ومسك مقودها بيده اليسار والسيف بيده اليمين، ووقف ينتظر فتركوه ونزلوا إلى البحر، حتى أتوا إلى الغلبون وجابوا له خيمة من الحرير مكللة بالدرر والجواهر والياقوت والمرجان والزمرد، فلما رأى دياب تلك الخيمة وفرشها الذي

يدهش البصر، تعجب غاية العجب وظن كلامهم صحيح ودخل معهم إلى الخيمة وجلسوا يتحادثون وأتوا بالمأكل والمشرب فبنجوه، وفي الحال جابوا السلاسل، قيدوه ونزلوا إلى المركب ورفعوا المراسي وأقلعوا، ثم أعطوه ضد البنج، ففاق فوجد حاله مقيداً بالسلاسل، والتفت يميناً وشمالاً فرأى الجماعة وقد كانوا في ملابس بيض صاروا في برانيط سود، فعرف أن الحيلة تمت عليه، فتنهد وأنشد يقول:

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم — بكيت على حالي وأنا مأسور
بكيت على جاهي وعزي وهيبتي — وأنا فوق تختي جالساً مسرور
ومن بعد عزي وارتفاعي وشمختي — بقيت مقيد بينكم مأسور
وخنتموني لا عمر الله دياركم — وبقتون في وأصبحت مقهور
يا رب يا رحمن يا سامع الدعاء — يا من تسبح له شجر وطيور
يجيني أبو زيد الهلالي سلامة — يخلصني من كل هلاك وشرور
مقال الفتى الزغبي دياب الغانم — دهتني الليالي والزمان غدور

فلما فرغ دياب من كلامه، ندم على ما فعله، ثم قالوا: لا بد من قتلك. فلما وصلوا إلى جزيرة قبرص أدخلوه على الملك هراس، ففرح الملك الفرح العظيم وألقاه تحت العذاب الأليم. هذا ما كان من دياب وما جرى له من الأحوال والعذاب، وأما ما كان من بني هلال فإنهم كانوا في فرح ومسرات والهدايا تأتيهم من جميع الجهات. فبينما هم في بسط وانشراح إلا والخضرا قادمة مثل هبوب الرياح وهي كئيبة حزينة على فقد خيالها الأمير دياب، فأول ما نظرتها بنته وطفا، طار الشرر من عينيها فصاحت وولولت، فتراكض جميع الفرسان والأبطال على صياحها وصار ضجة عظيمة ما صار مثلها في سالف الزمان. أما الأمير حسن فإنه قال لأبي زيد: إن دياب صار له مدة ما حضر معنا وأظن أنه مغتاظ منا لأننا ما خليناه ينهب حلب، فقال له أبو زيد: قم نزوره لأن دياب لو ما حصل له شيء ما كان طول علينا هذه الغيبة، فمن ساعتهم ركبوا على ظهور خيولهم ومعهم القاضي بدير وساروا نحو منازل دياب، فسمعوا البكاء والنواح، ولما رأوهم تقدم غانم أبو دياب باكي العين زائد الانتحاب.

فلما سمع الحاضرون فحوى كلامه حزنوا على فقد دياب واستعظموا ذلك المصاب، ثم التفت الأمير حسن إلى أبي زيد وقال له: حطت عندك الحكاية وما أحد يقضيها غيرك، فالتفت أبو زيد إلى عبده أبي القمصان وقال له: هات لنا الرمل فأحضر الرمل وأعطاه إلى أبي زيد فأخذه ورسم الأشكال، فبان له أشكال النحوس على دياب وعرف الغريم، فبكى أبو زيد وبكى كل من كان حاضراً، فقال له حسن:

لماذا يا أبا زيد بكيت وبكيتنا معك؟ فأخبرهم أن دياب في قبرص عند الملك هراس، يقاسي أنواع العذاب. فلما سمعوا هذا الكلام صاح الجميع عن فرد لسان، ما لنا سواك يا أبا شيبان؛ لأنك مفرج الهم فقال لهم: سمعاً وطاعة. وتجهز للسفر وودع الأمراء والسادات وركب الحصان وصار يقطع البراري والفلوات وما زال سائراً إلى قبرص إلى أن وصل إلى باب المدينة، فرأى الهراس طالعاً بجماعته إلى الصيد والقنص، فعرف أبو زيد أنه الملك، فتقدم إليه بقلب أقوى من الصوان وسلم عليه بأفصح لسان، وسحب المبخرة وحط بخوراً فعقد الدخان وقال له: هذا البخور من دير الجيروان، وأخرج ثلاث شمعات وقال له: خذ هذه الشمعات فهي من دير البنات ودير الحميرة المباركات. فقال الهراس: وقعت يا أبا زيد وكيف وصلت وأنا مربط عليك الطرق؟ فقال سلامة: لا تقل هذا الكلام يا ملك الزمان، أنا خدام الملك مثقال ولي مائتا يوم سائح، ما تركت ديراً ولا صومعة وأنك انتصرت على دياب وأسرته لأنه قتل بدريس.

فقال الهراس: يا راهب أما دياب فقد مسكناه وفي الحديد رميناه، ولكن بحياتي عليك أنت بعثك مثقال، فقال أبو زيد: أي وحق الإله المتعال، فعندها أخبره الهراس كيف عمل في دياب، فقال أبو زيد: بخ بخ لك على هذه الحيلة التي يعجز عنها أعظم الرجال. ثم إنهم دخلوا إلى الديوان وأمر لأبي زيد بالجلوس وبالطعام ثم بدأ أبو زيد حديثاً للملك ما سمع مثله في طول عمره حتى ولا من العلماء والفلاسفة، فسرَّ منه ونادى في أكابر ديوانه بأن يكون أبو زيد الكبير فيهم وقال لهم: الذي يريد منكم أن يسأله شيئاً فليتقدم، فعندها تقدم كبير الرهبان ويسمى أبو برناس.

وتكلم فتعجبوا من فصاحة لسانه، فما بقي عند الهراس أكبر منه وقال: تمنى علي ما تريد يا سلامة، قال له: أريد أن تريني دياب حتى أشفي قلبي منه بالعذاب، فأمرهم بما طلب، فأخذوه إلى السجن، ولما رآه في هذا البلاء والعذاب، غاب عن الصواب، وتقدم إليه وضربه بكفه طير الشرر من عينيه فتألم دياب وصاح الله يقطع يمينك، فقال له: وأنت الله يقطع عمرك من هذا السجن، ثم خرج من عنده وعاد إلى الهراس وقال: يا ملك الزمان هذا دياب ما بقي ينفع، فكه من الحديد ولبسه شيئاً جديداً وطلعه إلى القصر، وأطعمه دجاجاً وخبزاً حتى يسمن ويعود يصلح للعذاب. فقال الهراس: أطلعه فطالعوه وعمل فيه مثل ما قال الراهب سلامة وكان مراده أن يرد دياب إلى عافيته؛ لأنه قد انسل من شدة الجوع ولا عاد عنده قوة ولا حيل. قال: واستقام أبو زيد عند الهراس فلا يغلبه أحد من الناس، فسمع به راهب من الرهبان وكان يسمى مغلوب بن توما، فركب وأتى إلى عند الهراس، فلما وصل إلى

المدينة، قامت الضجة وقالوا: يا ملك أتى مغلوب بن توما. فركب الهراس ولاقاه وسلم عليه، فما رد سلامه. قال له: لماذا يا سيدي ما ترد السلام؟ قال: كيف أرد سلامك وعدوك أبو زيد عندك وأتى لأجل خلاص دياب؟ فقال الهراس: أنا لا آخذ أحداً ظلماً وعدواناً. فقال مغلوب: هذا يتكلم بالسبع لغات ويصبغ حاله سبع صبغات لأنه غضبة من الغضبات، وأخاف أن يقتلك ويخرب بلادك. فقال الهراس: اذهب معي إلى الديوان شوفه، فساروا إلى الديوان ولما دخلوا التفت الهراس إلى الراهب سلامة وقال له: أنت أبو زيد صاحب المكر والكيد وأتيت تفك دياب من البلاء والعذاب وحضر من يعرفك وقد سحرتنا بمكرك، فقال سلامة: من الذي حضر يعرفني؟ فقال الهراس: هو مغلوب عالم بلادنا وخطيب ديارنا. فبكى الراهب سلامة بكاء شديداً وقال: ما دام كل من أتى إليك تسمع كلامه، أنا ما بقي لي عندك قعود وأشار إليه يقول:

| | |
|---|---|
| قال الراهب سلامة يا ملك | اسمع كلامي وأنت فاهم هالسؤال |
| من عند مثقال أتيت لعندكم | ودرب قبرص والسهول مع الجبال |
| وجيت إلى عندك وقد أكرمتني | وأعطيتني كل المواهب والأموال |
| وعلى الجميع قد رقيتني | وجعلتني يا ملك أحكم بالرجال |
| وكل من يسمع بفضلي يا ملك | يبقى بنيران الحسد في اشتعال |
| هات لي مغلوب يأتي بالعجل | ينظر لفعلي وناظره بين الرجال |
| وأنا ورائي ألف عابد سائحين | مأكولهم عشب الفلا ثم الزلال |
| وصائمين الدهر عن أكل الخبز | ما يعرفون الخيل أيضاً والجمال |

(قال الراوي): وهما في الكلام إلا والراهب مغلوب داخل عليهم، فقاموا له وسلم عليهم، فردوا عليه ثم التفت إلى من حوله وقال: هذا الراهب سلامة؟ قالوا: نعم. قال له: من أين يا راهب؟ قال: من بيت المقدس. قال: هذه أول كذبة وأنا لي أربعين عاماً في بيت المقدس ما سمعت في راهب اسمه سلامة. قال أبو زيد: أنا كنت سايح في رؤوس الجبال. قال له: قطعت يدك يا محتال ولكن اقرأ لنا الإنجيل فقرأه فقال له: اقرأ لنا المزامير فقرأها، فتعجبوا غاية العجب قالوا: المسلم لا يعرف كل ذلك. قال لهم: مغلوب هذا يعرف السبع ألسن يقرأ فيها.

وتكلم أيضاً فتعجبوا من فصاحة لسانه وعلمه وبيانه، وأما مغلوب فقال له الملك: لماذا لا ترد جوابه وقد أرميت عليه مسائل ردها؟ قال: يا ملك هذا أبو زيد إن أردت اقتله وإن أردت أبقه. فقال الهراس: ما تقول يا راهب سلامة؟ فقال: يا ملك قد أمسى المساء وأنا الليلة أجتمع بساداتي الذين ربوني من صغر سني، وما أظن أنهم

ينسوني ومن هذا المشكل يخلصوني، وغداً أخبرك. وانفض الديوان، وتوجه أبو زيد واختلى بنفسه ثم أحضر الدهن والشمندل ودهن به جسمه حتى إذا لمس النار لا تؤذيه، وبات إلى الصباح وطلع الهراس وقال: كيف أنت يا سلامة؟ فبكى أبو زيد وقال: وحق الغمامة أتاني أربعون عابداً وكل واحد طول أربعة رجال وعمرهم ما تركوا الصلاة وهم في أقطار الأرض طائرين، ينظرون حال المساكين، فحكيت لهم عن مغلوب، فحلفوا أنهم لا بد أن يحرقوه، وحكيت لهم عن فضلك، باركوا لك في طول عمرك وكل واحد أوهبك من عمره عاماً، فقال الهراس: جزاك الله عني خيراً لأنه زاد عمري أربعين عاماً وكيف قالوا لك أن تفعل؟ فأجاب: قالوا لي: خلي الملك يوقد النار في الفرن، وتدخل الفرن أنت ومغلوب والذي يكون غلطان تحرقه النار. قال الملك: ماذا تقول يا مغلوب؟ قال: دعه يدخل النار قبلي. فقال سلامة: نعم أدخل قبلك.

وأمره أن يوقد الفرن، فأوقدوه حتى صار جمراً ودخل أبو زيد الفرن من بعد ما تلا اسم الله الأعظم، فعادت النار باردة بإذن الله، فنظر الهراس بعد ساعة، وجده جالساً كأنه في روضة خضرة، فقال: أدخلوا مغلوباً، فقدموه فصرخ صوتاً من صميم فؤاده، فمد يده أبو زيد وشده حتى صار داخل الفرن، فاحترق، أما أبو زيد فقد خرج سالماً فصاروا يتباركون به واعتقدوا فيه العبادة والولاية، وصارت تحبه النذورة ثم طلب من الملك أن يجمعوا الأسرى من جميع البلاد في مكان واحد. فجمع الأسارى من جميع البلاد وإذا هم اثنا عشر ألف أسير، فوضعوهم في مكان حصين، فأخذ أبو زيد شمعة ودخل عليهم وكان بينهم رجل اسمه عمر، فلما شاف سلامة، قال: آه يا ملعون على ما أكون مطلوق السواعد، فتقدم إليه وأطلقه، وقال له: دونك وما أنت طالب. فاستعد وانطبق على أبي زيد فالتقاه كالأسد ومد يده من وسطه ورفعه إلى رأسه وخبطه بالأرض، وقال: كيف رأيت نفسك؟ فقال: أرجو عفوك أيها السيد. فقال: عليك الأمان أنت ودياب وجميع المسجونين. ففرحوا جميعاً ودعوا له بالتوفيق ثم أخذهم إلى محل السلاح، فأخذوا ما يحتاجون ثم أرسل عمر مع ألفين من الشباب وربطوا الطريق والأبواب وفرق الباقي في جميع أنحاء البلدة، وأخذ معه دياباً وألف فارس وسار بهم نحو السرايا، ودق الباب فرد عليه الحارس فقال أبو زيد: أنا الراهب سلامة. ففتح ودخل الأمير أبو زيد وضربه بالسيف، قطعه نصفين، ثم دخلوا على الهراس وجدوه نائماً، فرفسه أبو زيد برجله، ففاق وفتح عيونه فقال: من أنتم؟ قال أبو زيد: أنا الراهب سلامة. فتقدم دياب وضربه على هامه رمى رأسه قدامه ثم تفرقوا في الأسواق والأزقة، فقتلوا اثني عشر ألفاً وباقي الناس طلبوا الأمان، فعفوا عنهم، فطلع المنادي ينادي في الأمان.

وجلس أبو زيد في الديوان وأتى عنده الأكابر والأعيان وكان بين أبي زيد ونوفل إشارة كانت مراكبه دائماً في البحر، فرفع أبو زيد الإشارة فتقدم نوفل بمراكبه حالاً، وصعد إلى البر، فأخذه أبو زيد إلى الديوان وقال لهم: قد وليت أرقل حاكماً عليكم، ولا أحد منكم يخالف له أمراً. ودخلوا إلى دار الهراس وجدوا المال الذي فيه لا يعد ولا يحصى فأخذوه إلى المراكب وودعوا نوفل وسافروا، فلما وصلوا إلى دير اللاذقية أرسل أبو زيد يبشر الأمير حسن وبني هلال بقدومهم فقامت عندهم الفرحات وعلت الصيحات وركبت الأربع كرات والأمراء والسادات وساروا حتى التقوا فسلموا على بعضهم سلام الأحباب، فهنؤوهم بالسلامة ثم حملوا الأحمال وساروا في عراضة، قدام الأمير أبي زيد. فلما وصلوا إلى الخيام، استقبلتهم النساء والبنات والنوبات وهنؤوا الأمير دياب بخلاصه من الأسر، وشكروا الأمير أبا زيد على حميد أفعاله وصرفوا ذلك النهار بالفرح والسرور وعمل الأمير حسن وليمة عظيمة لها قدر وقيمة، وما زالوا على تلك الحال وهم في أرغد عيش وأنعم بال مدة عشرة أيام، ثم ركب السادات ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول، وركبت النساء والبنات في الهوادج والعماريات وجدوا في قطع البراري والفلوات طالبين أرض عنتاب، فوصلوا إليها بعد أيام فنصبوا المضارب والخيام ورفعوا الرايات والأعلام.







# قصة أبي بشارة العطار

(قال الراوي): لما رجع بنو هلال من قبرص واجتازوا في طريقهم ماردين أحبوا أن يذهبوا إلى الصيد فسار حسن والأمير دياب وبدير مع جماعة صيادين، فصاروا يصطادون الأرانب والغزلان حتى وصلوا إلى أرض يقال لها قلعة سواكن، وإذ لاقاهم رجل عطار قدامه حمار، واضع عليه العطارة، فلما أقبلوا سلموا عليه فما رد عليهم السلام بل قال لهم: وقعتم يا أوباش لا بد ما أقتلكم وأريح الدنيا منكم. ثم تقدم إلى حسن وقال له: إلى أين سائر في هذه الأطلال أنت ودياب وبدير؟ قال حسن: اخرس قطع الله لسانك. وصاح القاضي بدير وارتمى على أبي بشارة ليفتك به فارتخت أعضاؤه وكذلك حسن، فلما نظر دياب هذه الأحوال صاح فيه اليوم يومك يا ابن اللئام، ثم إنه قوم الرمح وقال له: خذها من دياب الأسد الرئبال، فأراد أن يطعنه فما نظر نفسه إلا مكتفاً، فعند ذلك صاح فيهم ومشى أمامهم، فتبعوه مثل الغنم، حتى وصل إلى قلعة صهيون، فأدخلهم إلى السجن ووضع لهم الحديد والأغلال، وقال لهم: ما بقي لكم خلاص من ضيق الأقفاص. أما الذين كانوا مع الأمراء فأسرعوا عائدين فسألهم أبو زيد عن حسن وباقي الأمراء فأعلموه بما جرى لهم. فلما سمع أبو زيد هذا الكلام، غاب عن الصواب، وأقامت نساء هلال الصياح والبكاء، واجتمعت بنو هلال عند أبي زيد وقالوا: ما هذا المصاب وما يكون الجواب؟ قال لهم: قوموا بنا ندور عليهم في البراري، ونفحص عن هذه الأحوال. فبينما هم كذلك وإذا برجل في الطريق، فسلموا عليه فرد عليهم السلام. فقال له أبو زيد: ما عندك من الأخبار؟ فقال له: كنت أمس سائراً في تلك الناحية إذ رأيت أبا بشارة العطار ومعه ثلاثة أمراء من بني هلال وهم في أوشم حال، وقد أخذهم إلى قلعة صهيون ووضعهم في الحديد والأغلال وإذ كنتم ذاهبين إلى خلاصهم فارجعوا لئلا يصير فيكم مثلهم من أبي بشارة؛ لأنه سحار مكار. ثم تركهم وسار إلى حال سبيله.

أما أبو زيد فقال لفرسانه والأبطال: ارجعوا إلى الأطلال، وأنا وزيدان، نكفي لهذه الأحوال، فعندها رجعت العرب، وأما أبو زيد وزيدان فسارا في تلك البراري والقفار طالبين قلعة صهيون، وإذ رأيا أبا بشارة العطار وقدامه الحمار، فلما رآهم

وقف حتى وصلوا إليه فصاح فيهم ويلكم أيها الأنذال، وقعتم في أوشم الأحوال، وقعت يا أبا زيد أنت وزيدان والله يا أبا زيد لا بد أن أقتلك وأريح الناس منك. فقال له: من عرفك فينا حتى تعادينا؟ فقال: عرفتكم قبل أن تخرجوا من أوطانكم ولا بد أن أذيقكم الأهوال. فقال أبو زيد: سد فمك لعن الله أباك ارجعوا إلى الأطلال، وأنا وزيدان نكفي لهذه الأحوال، فعندها رجعت وأمك وما أنت إلا ملعون يا بايع الفلفل والكمون وأشار يهدده:

| | |
|---|---|
| قال أبو زيد تخسا يا ردي تخسا | أنا أبو زيد حاوي جميع أوصاف |
| لا بد ما أقتلك وأقتل إلى حنا | وكان عندك ثلاثين ألف سياف |
| زيدان اسحب سيفك واقطع رأسه | واحدف إلى رقبته عن الأكتاف |
| عطار عمرك خلص ما عاد لك نجا | يا ناقص العقل يا عديم الإنصاف |
| أنا أبو زيد وكل الناس تشهد لي | قرم صميدع من نسل أشراف |

فلما فرغ أبو زيد من كلامه سحب زيدان حسامه وغار عليه يريد إعدامه، فما رأى حاله إلا وهو مكتوف ورأسه مكشوف، فلما رأى أبو زيد ما صار في زيدان، خرج عن دائرة الاعتدال وسحب سيفه وهجم عليم هجمة الأسد الرئبال وقال له: ويلك يا ابن الأنذال دع عنك هذه الأحوال، فلما نظر أبو بشارة من أبي زيد تلك الفعال قبض كمشة من التراب وعزم عليها ثم حدفها على أبي زيد وإذ برجليه قد يبست وكذلك يده ثم زعق في أبي زيد صوتاً هائلاً كأنه الرعد ورفعه في يد فإذا هو طائر بين الأرض والسماء وأما زيدان فجره ذلك الملعون ووضعه في حصن صهيون مع حسن ودياب وبدير.

فقال الأمراء: هذا ملعون يأسرنا واحداً بعد واحد وصاروا في حساب وأمور صعاب، هذا ما كان منهم، وأما أبو زيد فإنه ما وعي على ذاته إلا بين بني هلال، يبكي ويضرب بيده اليمنى والشمال، فلما رأته بنو هلال بهذا الحال قالوا أبو زيد جن، ثم تقدموا إليه وحطوا القيد في رجليه وبقي على هذا الحال ثلاثة أيام لا يعرف ذاته في أي مكان، فصاروا يواسونه بالكلام ثم قالوا: إلى متى هذا الحال يا أبا زيد ومن الذي عمل فيك هذا؟ فقال لهم: أين أنا ومن أنتم؟ فقالوا: نحن أهلك وأحبابك بنو هلال، فعند ذلك صحا وأنشد شعراً.

فلما فرغ أبو زيد من كلامه تقدم الأمير غانم أبو دياب يسأله عن ولديه دياب وزيدان.

ثم قال القوم: يا أبا زيد إلى متى هذا الحال وأنت قاعد يا مفضال؟ قم وسر بلا إمهال وانظر حال الأمراء والأبطال وخلصهم وأرنا عوايدك وفعالك، فقال لهم:

يا قوم هذا أبو بشارة كهين من الكهان وما يقدر عليه أحد، لا من إنس ولا من جان، ولكنني أستعين عليه بالواحد الديان وإن شاء الله ما أموت إلا وأنا مخلص السادات من الأسر والشدات، ثم إنه قام من ساعته وقلع ما كان عليه من الثياب ولبس صفة درويش وأخذ في يده عكازاً وإبريقاً وكولك، وسار يقطع البراري والقفار والسهول والأوعار، وما زال سائراً حتى أتى إلى ضيعة من حكم تلك البلاد، فبينما هو ينظر في تلك الوهاد إذ به يسمع صوت أبي بشارة ابن الأوغاد وهو ينادي على العطارة، فقال أبو زيد: الله يخفي لك هذا الصوت يا ستار استرني من هذا الجبار، ثم إنه دخل خرابة وتخبى فيها من ذلك الملعون إلى أن طلع أبو بشارة من تلك الضيعة وأبو زيد يراه عند ذلك، لحقه من خلف إلى خلف حتى يقتله، فالتفت إليه وقال له: ادن مني حتى أريك نفسي يا كلب يا مكار يا مخرب الديار. فلما سمع أبو زيد هذا الكلام أراد أن يهرب في الآكام وإذا برجليه قد يبستا ولصقتا في الأرض، فقال له العطار: مت كمداً ولا يدري بك أحد، ثم سار وتركه فعند ذلك رفع أبو زيد رأسه إلى قبلة الدعاء وباسط الأرض على وجه الماء وقال: إلهي ومولاي ورجائي يا من نجيت كل الأنبياء والمرسلين نجني من هذا اللعين بجاه سيدنا الخضر عليه السلام. فما أتم كلامه إلا وقائل يقول: لا تخف يا أبا زيد ولا عليك من بأس أقبل شيخك الخضر أبو العباس عليه السلام. فعند ذلك انطلق أبو زيد من مكانه وسار قليلاً وإذا أبو بشارة العطار مقبل عليه وقال له: من فكك يا غدار يا مكار؟ فقال له: يا عطار أنا عمري ما تدخلت على أحد فأرجو يا فتى أن تطلقني من وثاقي وأنت اذهب واقتل المحابيس الذين عندك وأنا بدمهم قد سامحتك، فقال له: إذا أطلقتك وسرت إلى عند المحابيس وقتلتهم فأكون قطعت ذنب الحية وأبقيت رأسها، ولكن أنا لا بد لي عن قتلك يا ابن الأنذال وقتل محابيسك بني هلال، فلما سمع أبو زيد هذا الكلام، صار الضياء في عينيه ظلاماً وأشار يقول:

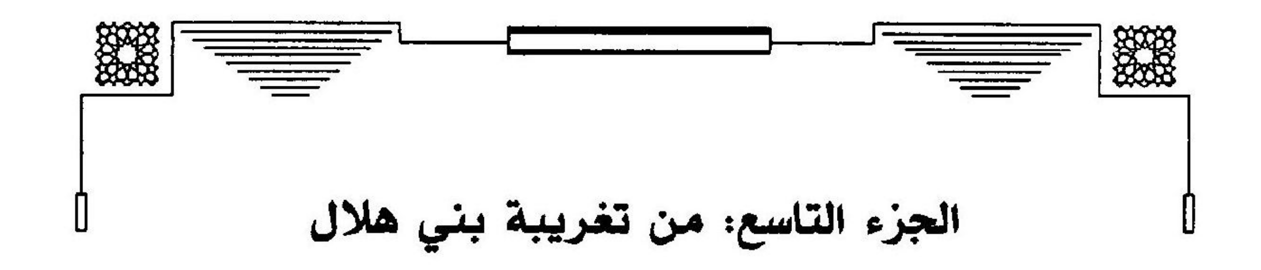
| | |
|---|---|
| يقول أبو زيد الهلالي سلامة | ونيران قلبه زايدات شعال |
| سألتك يا رحمن يا سامع الدعا | بجاه من على الجبال قد جال |
| أبو بشارة ما تخاف الله يا كاهن | يا حيف تنقتل أمراؤنا وبطال |
| لو كنت مأسور كان الأسر أهون لي | وكنت أشوف رفقتي ورجال |
| إلهي بحق الحرم وكعبة الغراء | وبجاه الأنبياء وكل مفضال |
| بأنك تجيرني من الكهين الساحر | أبو بشارة الفاجر المحتال |

(قال الراوي): فلما فرغ أبو زيد من كلامه والحق متجلي على دعائه استجاب نداءه فأراد أبو بشارة أن يسير إلا وصوت يقول: الحقه يا أبا زيد يا مفضال واسقه

كاس الوبال، أنا أستاذك الخضر أبو العباس. فلما سمع أبو زيد هذا الكلام، لحق أبا بشارة وصاح عليه وقال له: أين عدت تسير يا ابن اللئام؟ اليوم أسقيك كأس الحمام، وما عاد لك خلاص من ضيق الأنفاس. فأراد أبو بشارة أن يلتفت إليه ويسحره وإذا بكف صفعه على وجهه فعقد لسانه وجمدت عيونه وما بقي له كلام، فسحب أبو زيد النمشة من العكاز وطسه على هامه حط رأسه قدامه، فوقع قتيلاً يتخبط في دمه، عند ذلك فرح أبو زيد وحمد الله الذي خلصه من هذا الساحر وقرأ الفاتحة وأهداها إلى الخضر أبي العباس، ثم إنه أخذ حماره ونزل عنه بضاعته ففردها ونظر ما فيها، وبعد ذلك حزمها ووضعها على الحمار ثم خلع ما كان عليه من الثياب وتزيا بزي أبي بشارة العطار وساق قدامه الحمار وقال له: الله يحرق عظام صاحبك ابن الأوغاد وسار في تلك البراري والوهاد إلى قلعة صهيون وصاح أنا الحنون ساقي الضد كأس المنون ومعي فلفل وكمون وحنة وأساور وإبر وحلق ودهون، وحمرة وسبيداج وخطوط، أرخص لكم البضائع في هذه السفرة يا بنات! فتواردت عليه النساء من كل مكان، فصار يكمش ويعطيهن بدون ثمن وهو يقول لهن: لقد ربحت في هذه السفرة ربحاً كثيراً. ولم يزل أبو زيد سائراً حتى وصل إلى قلعة صهيون فاستقبله شخص بالترحيب والإكرام وأجلسه على مرتبة وأمر له بالخمر والشراب.







# الجزء التاسع: من تغريبة بني هلال

فقال أبو زيد في سره: أنا عمري ما شربته وكيف أشرب الآن؟ فقال له صاحب القلعة، وكان اسمه حنا: لماذا لا تشرب وتطرب كعادتك؟

فقال أبو زيد: لقد أقسمت يميناً أن لا أتناول الشراب أسبوعاً كاملاً، فقد عن على بالي قتل هؤلاء الأسارى. فقال له: ونحن في انتظارك حتى تحضر وتفعل فيهم مرادك. فقال لهم هاتوا زيدان لأسقيه كأس الهوان. فلما أحضروه صاح به يا جبان أنا أسألك عن أبي زيد أين هو الآن؟ فقال له: غداً يأتي ويقتلك، فقال له: سأقتلك وأقتله وأقتل حسن ودياب وآخذ منكم الثأر وأكشف عني العار.

فقال له زيدان: يا أبا بشارة ليست الشجاعة والبطولة في السحر إنما الشجاعة تظهر في ركوب الخيل. هات جواداً وعدة جلاد ودع قومك كلهم يقابلوني في الميدان يا كلب يا جبان.

فقال أبو بشارة له: يا نذل من قتل ابن عمي أنت أم أبو زيد أم دياب؟ فقال زيدان: تقول إنك عارف وشاطر وتعلم السحر أتاريك كذاب! فقال له: كيف لا أعرف ذلك وأنا ياما لي وقائع ومهالك. قال له زيدان: اعلم أن كل الذين قتلوا ما قتلهم غير دياب، وأما أنا وأبو زيد ما قتلنا أحداً. فقال أبو بشارة: هاتوا دياب ومن معه حتى ننظر، فساروا في الحال وأحضروا دياب وبقية الأبطال، فحينئذ التفت أبو زيد إلى دياب وقال له: من قتل أولاد عمي؟ فإن زيدان يقول: أنت قتلتهم، أفدني بالجواب قبل أن أعلي رأسك بهذا الحسام! فأجابه اعلم يا أبا بشارة أن المكتوب يقرأ من عنوانه، انظر إلى كلام زيدان تحاكيه بالدرهم وهو يجاوبك بالقنطار هذا كلامه في هذه الأمصار فكيف يكون في البراري والقفار، والله ما أنحبس منه إلا أبو زيد الفارس العنيد وهؤلاء الذين عليهم الكلام، فقال أبو بشارة: والله ما فيكم واحد مقصر وكلكم أنجس من بعضكم البعض، أنت مثل الحية تلسع وتخبي رأسها.

ثم قال: ارموا دياباً فرموه حالاً فأخذ العصا وقام ليضربه فقال له زيدان: مكن يدك يا أبا بشارة، فقال دياب: ويلك يا زيدان كيف يهون عليك هذا الأمر وأبوك غانم وأخوك دياب؟ فقال أبو بشارة لزيدان هل هو أخوك؟ فأجابه: نعم من فرد أم وأب ولكن اقتله لأنه هو الذي قتل رجالك وألقانا بين يديك. فقال دياب: والله يا

أبا بشارة صاحب اللسان غلب صاحب الإحسان والله ما يستاهل القتل غير زيدان وأبي زيد لأنهما قتلا أولاد عمك، وهذا زيدان تربابة ذلك الشيطان. فقال أبو بشارة: أنت تربية أبي زيد وتجعل نفسك مسكيناً، فأجاب زيدان: نعم أنا تربية أبي زيد ولا بد ما يعدمك روحك فقال الأمير حنا لأبي بشارة: اقتل هؤلاء الأسارى فقال له: طول بالك يا ملك ولا تعرف قتلهم إلا مني ولكن لا تقتلهم حتى أجيب أبا زيد ونذبحهم سوا. فلما سمع حنا كلامه قال: افعل مرادك، عندها التفت أبو زيد إلى القاضي وقال: أنت قاضي العرب؟ قال: نعم قال: أنت قلت لقومك أن يقتلوا عباد النار لأبي حتى قتلوا أمراءنا وفرساننا فقال له قتلهم حلال في كل المذاهب لأنه لا يعبد إلا الله تعالى. فقال: مرادي أرمي عليك مسائل، فقال: اسأل عما شئت. فقال: أخبرني عن شجرة فيها اثنا عشر غصناً في كل غصن ثلاثون ورقة وفي كل ورقة خمس ثمرات، اثنتان لونهما أبيض وثلاث لونها أسود، فقال: هي السنة والأشهر والأيام والصلوات الخمس فقال له: أخبرني كم بين السماء والأرض، فقال: خمسمائة عام، فقال زيدان: بقي عليك أن تسأل دياباً وإن ما عرف يجاوبك اقطع رأسه فقال دياب: ويلك يا زيدان أما أنا أخوك لا شك أنك ابن لئام أنت وأبو زيد قتلتم بدريس فإن قتلوكم يكونوا أخذوا ثأرهم وأشار يقول:

دياب غنى قصيداً من ضمائره ... ودمع العين عالخدين طوفان
يا أهل المروءة اعفو اليوم عن قتلي ... إن كنت تقتل قوم اقتل زيدان
هذا وأبو زيد قتلوا أعمامك ... وخلوا الفوارس في بلا وأحزان
ونحن يا أبو بشارة قوم اقتلنا ... أنا وبدير مع ابن سرحان
وإن كان زيداً ما يعرف سؤالك ... ما يعرف اللغز إلا أخي زيدان
واقتل أبو زيد الهلالي سلامة ... اقتله يا أمير بحد يمان
أنت صاحب العزة والمجد والعلا ... واجمع عليهم يا أمير فرسان
ترمي علينا مسائل لا نعرفها ... أنت صاحب الصيوان والعمدان

فلما انتهى دياب قال أبو بشارة: أنت تقول ما قتلته وحسن والقاضي وزيدان يقولون ما قتلوا أحداً، ومرادي أعلم من الذي قتلهم أخبروني وإلا قتلتكم في الحال. فقال له دياب: ما أحد قتل أعمامك سوى أبي زيد والأمير زيدان وأنا أعلمك بصدق اللسان وما بقي علي ملام، فقال زيدان: ويلك يا دياب من قتل بدريس والخزاعي غيرك! فأنت تعمل عمايلك وتتهمنا، ثم أنشد يقول:

قال زيدان قصيدة من ضمايره ... أبيات كالدر موزونة بميزان
وحق عيسى وموسى والنبي محمد ... قولي صحيح ما فيه بهتان

دياب هو الذي قتل ابن عمك قتل بدريس بسيفه وسنان
أيضاً قتل الخزاعي ما اختشى منه أكيد يا أبو بشارة ما أنا وهمان
حنا يا ملك صهيون قوم اذبحه واجعل دمه فوق الثرى غدران
بحياة رأسك تشفي خاطرك منه هذا يقيم الفتن كأنه شيطان
وهذه المسائل يحلها دياب بسرعة وإنْ ما عرفها اجعله اليوم قربان

فلما فرغ زيدان من كلامه والجميع يسمعون نظامه، فقال حنا: كيف يا أبا بشارة دياب يقتل أهلنا ورجالنا وأنت ساكت عنه بحياتي عليك تشفي خاطري منه، فقال: ارموه تحت الضرب، فرموه وقام أبو بشارة والعكاز في يده ومال عليه حتى كسر أجنابه، والتفت إلى القاضي وقال له: مرادي أرمي عليك مسائل إن ما أجبت عنها ضربتك مثل رفيقك. فقال له: سل عما تريد. فقال: أخبرني كم طيراً نزل بالكتاب؟ فقال له تسعة: الذباب والنمل وطير الأبابيل والجراد وطير عيسى وهو الخفاش والغراب والهدهد والصفا واللهو وهو السمك. قال: أخبرني عن طير يمني ويحيض وعن شيء إذا حبس عاش وإذا شم الهوى مات. فقال له: أما الطير فإنه الوطواط وأما الثاني فهو السمك ثم إن القاضي التفت نحو أبي بشارة وقال: مرادي أسألك سؤالاً قال: سل عما شئت، فقال: أخبرني عن شيء كان حلالاً ثم صار حراماً؟ فقال له: البيضة حلال وإذا وضعت تحت الفرخة صارت حراماً. فقال القاضي: أخبرني يا أبا بشارة عن رجل قام إلى الصلاة سلم عن يمينه وجب عليه مائة دينار وسلم عن شماله طلقت زوجته ونظر إلى موضع سجوده بطلت صلاته.

(قال الراوي): فلما فرغ من كلامه والقاضي بدير يسمع نظامه، فقال له: عفاك الله يا أمير على هذا العلم، لكن يا حيف كيف تكون عابد النار ويكون عندك هذا العلم؟! فضحك وقال: يا قاضي خلص روحك وإلا أقتلك أنت ورفقاءك. فقال القاضي: أريد أن أسألك سؤالاً فقال: قل ما شئت، قال: أخبرني عن خمسة أرواح أكلوا وشربوا وليس لهم أم ولا أب، فقال له: أنا ما عرفت سؤالك ثم التفت أبو بشارة إلى رفاقه وقال: أجيبوا سؤال هذا المسلم، فقالوا: لم نعرف سؤاله فقال: يا قاضي ما عرفنا سؤالك فاشرحه لنا وخذ لك خمس دجاجات محشيات رز وصنوبر، وكان أبو زيد مراده يطعمهم لحماً حتى ترد روحهم إليهم، فقال له بدير: يا أمير هؤلاء هم آدم وحواء وكبش إسماعيل وعصا موسى وناقة صالح فقال أبو زيد: أخبرني عن موضع لا يجوز فيه الصلاة، فقال له: ظهر الكعبة، فأمر أبو زيد بأخذهم إلى موضعهم فأجابوه بالسمع والطاعة وأما أبو زيد رتب لهم كل يوم خمس دجاجات وما زالوا على هذا عدة أيام.

وفي ذات يوم من الأيام قال أبو زيد: يا أمير حنا مرادي أسير إلى بني هلال وأقتل أبطالهم ورجالهم وأدعهم بأوشم حال وأقتل أبا زيد ونبقى ندبر أمراً في هلاك الجميع ثم أشار يعلمه في هذا القصيد يقول:

هذه المحابيس يوم العيد نذبحهم ... واجعل دماهم في الأرض طوفان
وجيب أبو زيد الماكر واشنقه ... ويشوفوا العذاب أشكال وألوان
وحياة ديني لأجعل قتله شهرة ... وأجلي صدى القلب وأكشف الأحزان

فلما فرغ أبو زيد من كلامه والملك حنا يسمع نظامه قال: افعل ما تريد، فقال أبو زيد: مرادنا في هذه الليلة أن نعمل كيفية، فقالوا: حباً وكرامة وما كان إلا برهة من الزمان حتى حضر الخمر فقالوا: لا أحد يسقينا غير أبي بشارة؛ لأن يده مباركة. فقام المذكور وصار يسكب الخمر ويسقيهم حتى سكروا فتركهم أبو زيد وسكر عليهم الباب وسار حتى وصل إلى أمراء بني هلال وفتح باب السجن ودخل عليهم وقال: قوموا! ولما رأوه ارتعدوا منه وقالوا: نحن في جيرتك يا أبا بشارة فقال: لا تخافوا أنا لست أبا بشارة أنا أبو زيد وعليكم الأمان فقالوا: لله درك يا أبا شيبان ولولاك متنا في هذا المكان ولكن احذر من أبي بشارة لربما يعرفك! فقال لهم: كونوا براحة بال من هذا الأمر ولازم أذيقه كأس الحمام فطيب خاطرهم ورفع عن وجهه اللثام وحدثهم بما جرى بينه وبين أبي بشارة وبما فعل بهم، فلما سمعوا منه هذا الكلام، شكروه فعند ذلك تقدم إليهم وفكهم من وثاقهم وأخذوا يقطعون البراري والآكام، حتى وصلوا لقومهم ففرحوا بهم فرحاً شديداً ما عليه من مزيد وطلعوا لاقوهم بالطبول والزمور وشكروا الأمير أبا زيد على تلك الفعال التي تعجز عنها صناديد الأبطال وسلموا عليهم وقدموا لهم الطعام.

(قال الراوي): هذا ما كان من أمر بني هلال وأما ما كان من أمر حنا والأبطال فظلوا سكارى إلى الصباح تفقدوا الأسارى، فما وجدوهم وفتشوا على أبي بشارة فما وجدوه فحينئذٍ علموا القضية ثم صاح حنا في الفرسان وأمرهم أن يركبوا الخيل فركبوا ظهور المهارة وجدوا في قطع الصحارى طالبين بني هلال وما زالوا مجدين في سيرهم حتى قاربوا الأرض التي فيها بنو هلال، فقال لهم الوزير وأخوه مرقص: خذوا أهبتكم للقتال واستعدوا للحرب والنزال، فقال حنا: وأين هم بنو هلال؟ فقال جرجس: إذا أقمنا هنا إلى وقت السحر وسرنا بلا مهل نصف النهار، نصل إلى بني هلال، وفيما هم على ذلك وإذا بخيل بني هلال طلعت ولمعت رماحها في شعاع الشمس وفي أوائلها أبو زيد ومن وراه دياب وحسن والقاضي وزيدان وفرسان الحرب والطعان، فتبادرت إليهم عساكر جرجس وحنا وصاحوا بهم فارتجت

لصياحهم الوديان فحمل عليهم دياب بدون جواب فتلقاه فارس يقال له الدهقان وتجاول هو وإياه ساعة من الزمان، فحكم دياب عليه السنان وطعنه في صدره خرج يلمع من ظهره وكان معه عشرة من الفرسان، فلما نظروا ما حل به، حملوا على دياب فتلقاهم كأنه الأسد وفي أقل من ساعة قتل سبعة فرسان وانهزم الباقون وهم ينادون: أنقذونا من الجن، فقد حل بنا العطب وأنت قم يا حنا وقاتل الجان فقد برز إلينا من هؤلاء القادمين شيطان بصورة إنسان، فقتل مقدمنا دهقان وسبعة من الفرسان. فلما سمع حنا هذا الكلام، صعب عليه وكبر لديه وقال لهم: كأن هؤلاء القوم ما عرفوكم ولو عرفوكم ما كانوا حاربوكم وإن صدقني حزري فما هذا الجيش إلا مع أبي زيد وأظن أنه لما خلص الأسارى سار إلى العرب وأتانا للطلب والآن يحل بهم العطب.

ثم إنه غار عليهم ولما وقعت العين على العين علا الصياح من الفريقين ووقع السيف بين الطائفتين ونادى حنا تظنون أني أترك لكم مالي وما قتلتم من رجالي اليوم أبلغ منكم مأربي وآمالي، فلما سمع أبو زيد كلامه قال له: ويلك يا فاجر لمثلي تفزع هؤلاء الأنذال وأنا أبو زيد مقدم الأفيال! ثم أمر رجاله بالحملة فحملوا من غير إمهال ووقع بينهم القتال ساعة من الزمن فوقع بقوم حنا الفناء والدمار وخاب منهم الأمل وأيقنوا بحلول الأجل، وخاضت بنو هلال الغبا وأبروا الرقاب وطعنوا الصدور وقاتلوا قتال الجبابرة فلله در أبو زيد وما فعل ودياب وقد استقتل وسطا زيدان سطوة البطل ونزل الأمير حسن بين تلك الأمم حتى التقى في الوزير مرقص أخو جرجس فرآه ينخي الفرسان، فأقبل عليه وطعنه بصدره بالرمح، خرج يلمع من ظهره. فلما نظرت قوم حنا إلى مرقص وهو قتيل، تصايحوا على حسن وأسعروا نار الحرب وسالت الدماء وتطايرت الجماجم وخلت السروج من ركابها وكحلت الأجفان بموارد العما وثبتت عسار الملك حنا واجتهدت برد أعدائها فما قدرت، بل هالها ما رأت وانحلت عزائمها وتفرقت، ولم يزل السيف يعمل والدم يجري إلى أن أمسى المساء، فعند ذلك دقت طبول الافتراق وكفوا عن الحرب وكل فريق ذهب إلى مكانه، أما عساكر حنا فصاروا يقولون: إن كان الأمر على هذا الشأن فهذه مصيبة لا ترد إلا بكثرة الفرسان وأما بنو هلال فإنهم هنؤوا بعضهم بعضاً بهذا النصر وباتوا تلك الليلة مسرورين.

ولما أصبح الصباح نهضوا للحرب والكفاح وإذا بالوزير جرجس برز إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فنزل الأمير دياب فالتقاه جرجس بقلب لا يهاب وقال له: لو لم تكن جاهلاً لما دخلت هذه الأوطان وطلبت قتالنا في شرذمة من الفرسان فسلم نفسك قبل الفوات. فضربه دياب على هامه. فلما نظر ملكهم حنا إلى

وزيره وهو قتيل، صاح في قومه ائتوني بهذه العصابة القليلة حتى أشفي غليلي فحملوا عليهم من كل جانب، فالتقتهم بنو هلال كالأسود وانطبقوا على بعضهم البعض وغطت الدماء وجه الأرض وأبو زيد ينثر الرؤوس ويبلي الفرسان بعد وجودها بالعدم فوقع في معسكر حنا التقصير ولما نظر إلى عساكره قد انكسرت وبنو هلال قد انتصرت، نادى في العساكر يشجعهم على الثبات، فانطبقوا على بني هلال انطباق الليالي على الأيام وحمل حنا بأوائلهم وأخذ ينخي الفرسان فالتقى به أبو زيد فحمل عليه وضربه بالحسام بين عينيه، خرج من بين فخذيه وأما دياب وبقية الفرسان فإنهم فرقوا الكتائب وأظهروا العجائب ولما رأت عساكر الأعداء ما حل بملكها من الدمار ولت الأدبار وركنت إلى الفرار والتجأت إلى القلعة، فتبعهم أبو زيد والفرسان فطلبوا الأمان فأعطاهم الأمان ورتبوا عليهم الجزية في كل عام ورجعوا إلى مضاربهم كاسبين غانمين، وفرق الأمير حسن ما غنموه على الجميع وأقاموا على شرب قهوة وأكل طعام مدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك صمموا على الارتحال فهدمت الخيام وانتشرت الرايات والأعلام وركبت الفرسان ظهور الخيال والنساء والبنات في الهوادج، وجدوا في قطع البراري والآكام حتى وصلوا إلى حمص، فأقاموا فيها خمسة أيام وكانت تأتيهم الهدايا من جميع الولاة والحكام، ثم ارتحلوا إلى بعلبك ومنها إلى زحلة، فطابت أيامهم لأنهم كانوا يصرفون الأوقات في السرور والطرب ثم ساروا قاصدين مدينة الشام فوصلوا إليها عند الظلام ونصبوا بقربها المضارب والخيام.







# قصة شبيب التبعي

(قال الراوي): إن بني هلال بعدما قتلوا أبا بشارة العطار حاكم بلاد صهيون، جدوا في قطع الفلوات حتى أقبلوا على مدينة الشام وكان الحاكم عليها شبيب التبعي ابن مالك، وكان رأى حلماً في المنام أرعبه، فجمع أكابر الديوان والأعيان وقال لهم: رأيت في منامي أنه أتى إلى هذه البلاد سباع مثل الجراد وكان كل سبع يأتي إلى شجرة يقلعها بأنيابه ولا يبالي بالأخطار. وكان لهذا الملك وزير اسمه عميرة.

فلما فرغ الوزير من تفسير حلمه استعظم شبيب هذه الأمور وكان قد بلغه قدوم بني هلال إلى قرب الشام فزاد اهتماماً على اهتمام؛ لأن أبا زيد كان عند رجوعه من تونس ومروره إلى الشام قد استخلص من دار شبيب سرية عربية واسمها قنوع العامرية لما مر به وسار بها نحو بني هلال، فتأثر شبيب من هذه الأفعال فاستدعى بنجاب وأمره أن يسير في الحال ويكشف له أخبار بني هلال. فسار ودخل على بني هلال، فأضافوه ثلاثة أيام، ورجع لعند سيده وصار يخبر بما جرى له، شعراً.

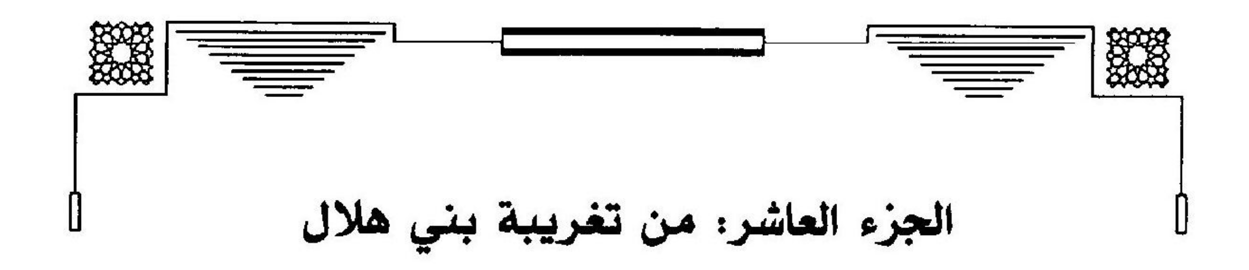
فلما سمع شبيب الشعر والنظام صار الضيا في عينيه كالظلام فقال لمن حضر في الديوان: ما رأيكم في هذا الشأن لأن بني هلال حضروا إلى هذه الأطلال بعساكر كعدد الرمال. فقالوا: الرأي قبل المبادرة بالقتال أن تطلب منهم عشر المال. فإن أجابوك إلى هذا الطلب بلغت القصد والأرب، وإلا تحاربهم وتشتتهم في البر فاستصوب شبيب رأي القوم وأرسل يطلب منهم عشر المال.

وسطر بذلك كتاباً وختمه وأرسله مع نجاب إلى الأمير حسن، فأخذ الكتاب وسار إلى أن وصل إلى الأمير حسن، أعطاه الكتاب، فلما فتحه وقرأه، قال: لا حول ولا قولا إلا بالله، ثم جمع بني هلال وقال: ما هو رأيكم؟ فقال الأمير أبو زيد والأمير دياب: ليس عندنا جواب إلا الحرب. فحينئذٍ قال الأمير حسن للرسول: اذهب إلى مولاك شبيب وقل له: أني سأرسل له الجواب في وقت قريب وبعد ذهاب النجاب، نهض أبو زيد وقال: اعلم أيها الملك الهمام أن شبيب، ملك دمشق الشام استعد لمحاربتنا والرأي والصواب أن أسير مع بعض الفرسان إلى تلك الديار لكشف الأخبار والوقوف على عدد العساكر والأبطال التي تجهزت للحرب والقتال وذلك بصفة شعراء، لعلنا نبلغ المقصود. فاستصوب الأمير حسن هذا الكلام واستقر الرأي

على مسير أبي زيد ودياب وعرندس والرياشي مفرج وأبي الليث الكندي إلى تلك الديار، ليجسوا الأخبار، وفي ثاني يوم استعدوا للمسير وجدوا في قطع البراري حتى وصلوا إلى دمشق الشام، فدخلوا بسلام وقصدوا الأمير شبيب حتى دخلوا عليه وسلموا عليه، وكان جالساً على كرسي مرصع بالجواهر يدهش العقل ويذهل البصائر، وحوله الأتباع والخدم، فرد عليهم السلام وقال: من تكونون من العرب أيها الأجواد؟ فقالوا: نحن شعراء نقصد الملوك والأمراء، فنمدحهم بالقصائد الحسان ونرجع بالخلع والإحسان، وقد سمعنا بجودك ومكارم أخلاقك وحسن مزاياك، فأتينا إليك لنمدحك وننقل ثناك ونرجع مجبورين الخاطر للديار، ثم إن أبا زيد عدل الرباب وصار يمدحه:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى المدعو الأمير سلامة | بدمع جرى فوق الخدود سكيب |
| ركبنا وجينا يا أمير على نقا | من فوق نوق شبه ريح هبيب |
| فقلنا لها يا نوق أين مسيركم | فقالت إلى نحو الأمير شبيب |
| شبيب بن شيبان بن مالك | أمير البوادي والبلاد شبيب |
| شبيب الذي كل البلاد عياله | ونحن يقينا من عيال شبيب |
| شبيب فتى لا يوجد في الترك مثله | ولا ربت العربان مثل شبيب |
| يا أمير أعطنا ولك منا الثنا | فنثني عليك عند الضحى ومغيب |

فلما فرغ أبو زيد من كلامه شكره شبيب على حسن نظامه ثم إنه صرف معهم هذا النهار في الحديث والأخبار، ولما أصبح الصباح، استعد شبيب إلى الصيد مع الفرسان وابنه صقر، فالتفت شبيب إلى الشعراء وقال لهم: لماذا لا تركبون معنا؟ فقالوا: هو عدم وجود الخيل؛ لأن مطايانا لا تصلح للركوب في الوعر والسهول. فأمر لهم شبيب بخمسة أفراس من الخيل فذهبوا مع السايس إلى الإصطبل وجعل أبو زيد ينظر في الخيول فلم يعجبه سوى جواد شبيب وهو غطاس وكان أبو زيد قصد هذا العمل اكتشاف خيول شبيب، فعاد السايس وأعلم شبيب بذلك الخبر، فقال له: أعطه إياه إن كان يقدر يركبه، فعاد السايس إلى أبي زيد وقال له: اعلم يا شاعر العرب أن هذا الحصان هو جواد الأمير شبيب الغطاس فلا يقدر أحد منا أن يقرب منه فخذه إن كنت تقدر عليه. فتقدم أبو زيد إليه، فصهل الحصان حتى زعزع المكان، فلطمه أبو زيد بالكف بين عينيه وسرجه، وركب عليه وسار إلى عند شبيب، فتعجب منه كل العجب وقال في نفسه: وحق ذمة العرب إن هذه الأفعال لا يقدر عليها الشعراء، بل صناديد الأبطال وقد تأثر من ذلك الأمر، ثم إنهم ساروا في جوانب البر وصاروا يصطادون حتى صار وقت العصر فارتدوا راجعين قبل دخول الليل.



# الجزء العاشر: من تغريبة بني هلال

في أثناء طريقهم، جعل شبيب ميداناً لسباق الخيل، فامتثلت لأمره الفرسان وجعلوا يتسابقون في الميدان، فعلم أبو زيد على الجميع بالسيف والسنان، حتى حيّر العقول وأذهل الأبصار، فرجعوا إلى البلد ونزل أبو زيد في دار الضيافة مع جماعته، وكان للتبعي رمال اسمه عكرمة، فاجتمع به على انفراد وقال له: أريد أن تعلمني عن هؤلاء الشعراء، هل هم جواسيس؟ فقال: السمع والطاعة. ثم أحضر الرمل وولد البنات مع الأمهات وجعل يعلمه ببعض الأبيات.

فلما فرغ الرمال من الشعر، عرف شبيب فحوى الحديث والكلام، فغضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد، وفي الحال أحضر أبو زيد ومن معه من الرجال وصاح فيهم أتيتم أيها الأشرار إلى هذه الديار لتجسس الأخبار ونسبتم أنفسكم بأنكم شعراء تمدحون الملوك والأمراء فلا بد من قتلكم!

ثم إن الأمير شبيب أمر العبيد أن يأخذوهم إلى المشنقة، فامتثلوا أمره وأخذوهم ودوروهم في المنازل والأطلال، وبعد ذلك رجعوا إلى المشنقة وأرادوا أن يشنقوهم وإذا بصقر ابن الأمير شبيب أتى ونزل عن ظهر الجواد وقطع المرس ومن رقابهم، فوصل الخبر إلى شبيب، فأحضرهم عنده في الديوان، ووبخ ولده على هذا الشأن وقال: هؤلاء من بني هلال أعدائنا، أتوا إلى منازلنا ليقتلوا الرجال ويدعونا بأوشم الأحوال، قال له صقر: ليس عندي خبر هذا الأمر وقد جرى وصار فشفعني في هؤلاء الشعراء ولا تبطل كلامي وتنقص بين الشباب مقامي، وإذا قتلتهم من دون سبب، فتبقى معيرة بين العرب. فقال شبيب نلقي عليهم مسائل وإذا لم يعرفوها نقتلهم، ثم إنه التفت إلى أبي زيد فقال له مرادي أحضر شعراءنا ليرموا عليك رموزاً، فإن لم تعرفها فإني أقتلك وأعجل من الدنيا مرتحلك، قال أبو زيد: افعل ما تريد يا ابن الأماجد. فعند ذلك أحضر الأمير شبيب شعراء بلاده وكانوا أربعة وعشرين شاعراً وكبيرهم يدعى صولجان بن ماهر، فلما حضروا أمرهم أن يرموا رموزاً على أبي زيد ورفاقه فأجابوه بالسمع والطاعة، فالتفت أبو زيد إلى صولجان وقال له: يا سيد الفرسان مرادي قبل أن تبدي شعرك وقصيدك أن تأتي لنا بطعام حتى يصير بيننا خبز وملح، فأجابه بما قال وسار إلى بيته وأحضر إلى أبي زيد قصعة ملآنة عصيدة

وفيها ملعقة وقال: كل يا ابن الكرام وادع لنا بدوام العز، فأخذ أبو زيد شقفة برأس الملعقة وذاقها فوجدها مرة مثل الحنظل، قال: هذا زادك لا رحم الله شبابك يا ذليل يا مهان هات ما عندك من الأوزان، فعند ذلك تقدم الصولجان وأخذ الرباب وبدأ يلعب حتى أطرب ذوي العقول والألباب، أما أبو زيد فكان يرقب الكواكب، فرأى نجمه سعيداً ففرح بذلك فرحاً شديداً ما عليه من مزيد، فلما رآه الصولجان ينظر في الكواكب ظن أنه ينظر إلى بنات نعش فقال شعراً، فرد عليه أبو زيد بشعر فهم فحواه.

فلما فرغ أبو زيد من كلامه وشاعر طي يسمع نظامه تعجبوا من ذكاء أبي زيد وما عاد الشاعر يعرف يجاوبه فاغتاظ شبيب غيظاً شديداً ما عليه من مزيد وحلق ذقن الشاعر وطرده من عنده، والتفت إلى أبي زيد وقال له: بقي عليك أن تغلب ستة أبطال إن غلبوك قتلت أنت ورفاقك، فأجابه: ومن هم؟ فقال: المصارعون والمشابكون والمدافعون ورمايو النشاب وحمالو العلم وطباخو الكيميا. فقال أبو زيد: إن لم أغلبهم فإننا لا شك هالكون، ثم إنهم باتوا تلك الليلة إلى الصباح، فقام شبيب وأحضر كبير المصارعين وهو بطل رزين ليس له قرين، فلما رآه أبو زيد قال له: يا أخا العرب دونك والطلب فلا بد أن أجعلك في التراب، فقال له المصارع: دع عنك شقشقة اللسان يا ذليل يا مهان والآن يظهر الشجاع من الجبان، فقال أبو زيد: اليوم عندي عيد بقتلك يا مهان، ثم نهض وأثبت الأقدام وأسرع إليه مثل الأسد الضرغام، والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق رأسهما غراب البين، قال: وكان المصارع مخبئاً حربة مثل الثعبان وهي شغل بلاد الروم مدخرها لمثل هذا اليوم فرآها دياب وقال: خذ بالك يا أمير من هذا الشيطان وانظر هذه الحربة التي كأنها نقمة. فقال أبو زيد: رأيتها قبلك يا دياب وهذا اليوم أدعيه ملقى على التراب، ثم اصطدما وافترقا وابتعدا، وما زالا على هذا الحال مقدار ساعة من الزمان حتى هجم أبو زيد على المصارع وعرقله برجله رماه إلى الأرض واتكأ على عنقه وظل كامشاً عليه حتى خرجت روحه من بين جنبيه، ثم تقدم المدافق ودافق أبو زيد ساعة من الزمان، فالتقاه بهمة وعلو شأن، وضربه بالعصا على دماغه فطرش بزر مخه ومات. فتقدم المشابك وشابك أبو زيد ففرك أنامله ولقطه من يده ملخها من الباط فتقدم رامي النشاب، فذهب أبو زيد ووقف في تلك الهضاب، وأما ذلك الرجل، فرشق أبو زيد أربعين رشقة فما أصابه شيء ثم ضربه أبو زيد بنشاب فرماه على الأرض قتيلاً وبدمائه جديلاً، فعند ذلك تقدم حمالو العلم فغلبهم وكذلك طباخو الكيميا طلعت طبخته أحسن من طبختهم، ثم التفت إلى شبيب وقال له: يا

أمير لك عندنا شيء بعد هذا الانتصار، فاتركنا نذهب إلى أهلنا، فقال له: لا شك أنك عفريت من عفاريت سيدنا سليمان، ثم أمر الخدم أن يأخذوهم إلى السجن، فأخذهم في الحال، ووضعوا في أرجلهم القيود والأغلال ووكلوا بهم جماعة من صناديد الرجال، وكان الأمير دياب ومن معه من الأصحاب في خوف واحتساب من القتل والعذاب، وقد قطعوا الأمل من السلامة، فجعل أبو زيد يشجعهم ويقول لهم: إنّ الفرج قريب بعون الله السميع المجيب وأننا في هذه الليلة نذهب إلى أهلنا وننال المأمول، فاطمأنوا وجعلوا يتحدثون حتى أظلم الظلام ونامت الحراس، فعند ذلك أخرج أبو زيد من الكيس حجر المغناطيس وألقاه على القيود والأغلال، فتساقطت في الحال، وقال: هلموا بنا للذهاب فقد تخلصنا بإذن الله، فنهضوا في الحال وجدوا في قطع الروابي والتلال حتى وصلوا إلى بني هلال وكان وصولهم عند الصباح، فدخلوا على الأمير حسن، التقاهم بالسرور والأفراح وقال: الحمد لله على سلامتكم لأني كنت مضطرب الأفكار عليكم فأخبروني بأحوالكم وما جرى لكم مع شبيب في سفرتكم، فأخبروه بحديثهم، فشكروا الله على خلاصهم من الاعتقال وأثنى على أبي زيد نظراً لما أبداه من حسن الفعال، وبينما هم في هذا الحال إلا وقد أتى إليهم مرسال من عند الأمير شكيب بكتاب يطلب فيه عشر المال وذلك بعدما تفقد المحابيس فلم يجدهم، فأجاب السلطان حسن بعد أن عرف حقيقة الأحوال وعرف ما عند شبيب من الفرسان يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي | فلي حربة كالمشعل الموقود |
| ولي همة تعلو على كل ماجد | أخلي الأعادي على الجبال شرود |
| تهيأ غدا أيا شبيب لحربنا | مع كل أبطالك وكل جنود |
| فكم حاكم مثلك ملكنا بلاده | من بعد حرب يشيب المولود |
| تريد منا اليوم عشر أموالنا | فسوف ترى منا رجال أسود |

فلما فرغ حسن من هذا الخطاب طول الكتاب وسلمه للنجاب وأمره أن يسير إلى سيده بالعجل، فأجاب وامتثل، ولما دخل على سيده سلمه الكتاب، فلما قرأه غاب عن الصواب وفي الحال أمر العساكر والأبطال للاستعداد إلى الحرب والقتال، فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، دقت طبول الحرب واستعدت العساكر للطعن والضرب وركب شبيب في أول الفرسان وحوله الوزراء والأعيان وساروا إلى قتال بني هلال وكانت بنو هلال قد استعدت في ذلك النهار. ولما تقابل الجيشان برز شبيب إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الشجعان، فبرز إليه أبو زيد، فلما رآه شبيب حمل عليه وأنشد يقول:

يقول شبيب التبعي ابن مالك | صرفت كل الليل بالتفكير
أبو زيد يابو زيد يا ولد الخنا | فأنت ردي الأصل يا طنجير
ذهبت لأرض القيروان وقابس | ترود الأرض مثل لص حقير
رجعت إلى أهلك أتيت بجمعهم | أخذت قنوع والظلام عكير
وبسوء فعلك قد حبست رفاقتك | وخبثك بين الأنام كثير
فوالله إني قاتلك بمهند | وأهرق دماك مثل نهر كبير
وأقتل دياب الخيل صبحاً أو مسا | وأجعل حسن من ضرب سيفي يطير
أجاب أبو زيد الهلالي سلامة | ونيران قلبي زايدات سمير
أنا أبو شيبان فهار العدا | أفك رموز العلم بالتفسير
ولا فخر للمرء إلا فعاله | وفرط السخا وكل فضل شهير
أنا الرجل الذي يبرد حربته | يوم الوغا في صدر كل أمير
اليوم تنظر حربنا وقتالنا | وفعالنا حقاً بلا تنكير

فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر والنظام، انطبق الفارسان على بعضهما وأخذا في الحرب والصدام، وكان شبيب من الجبابرة، فقاتل قتال الأسود وفعل فعالاً تشيب المولود، فثبت أبو زيد أمامه كالجبل الراسي والتقاه بقلب أقوى من الصوان، فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما أسدان كاسران، وقد تعجبت من قتالهما جميع الفرسان وتعلمت منهما حقيقة الضرب والطعان، وما زالا على تلك الحال إلى قرب الزوال وكان أبو زيد قد انحل عزمه وقصر، فرجع إلى الوراء، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فافترقت العساكر من الميدان ورجع أبو زيد في أسوأ حال مما شاهده من الأهوال، فسأله الأمير حسن عن خصمه، فقال: إنه فارس شديد وبطل صنديد وإني قد بارزت الأبطال في معارك النزال، فما وجدت أفرس منه في القتال ولما أصبح الصباح وشرق بنوره ولاح، ركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول، واصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف فكان أول من برز إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان الأمير شبيب، فبرز إليه الأمير دياب وهجم عليه كليث الغاب، فالتقاه شبيب في الحال والتحم بين الفارسين القتال، إلى أن أقبل الظلام وكان الأمير دياب قد أبصر في ذلك النهار من قتال شبيب ما يذهل الأبصار ويحير العقول والأفكار فلم يقدر أن ينال منه المرام، فارتد راجعاً إلى الوراء ثم نزل إلى الميدان القاضي بدير وتصادم مع شبيب نحو ثلاثة ساعات، وكان القاضي قد كل ومل وضعف عزمه وانحل، فرجع وتأخر خوفاً من وقوع الخطر، فبرز إليه الأمير زيدان وتقاتل معه في ساحة الميدان، وبعد قتال شديد وحرب ما عليه من مزيد، ولّى

الأمير زيدان من أمامه خوفاً من حربه وصدامه، ثم تقدم غانم أبو دياب وتقاتل معه القتال الشديد وثبت ثبوت الجبابرة الصناديد، إلا أنه لم يكن من رجاله ولا يعد من أقرانه، فما مضى ثلاث ساعات حتى طلب الهزيمة والفرار، فبرز إليه الأمير عرندس فجال معه وصال وتقاتلا في ساحة المجال إلى وقت الزوال، وكان عرندس قد ضعف عزمه، فولى هارباً، وبعد ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت عن بعضها الفرسان والأبطال، وكانت بنو هلال قد اعتراها الانذهال وخافت من عواقب الأحوال، فلما رجعت إلى الخيام جمع الأمير حسن الأمراء الكرام واستشارهم في أمر شبيب، فقالوا: إنه فارس جبار وبطل مغوار لا يصطلى له بنار؛ هجماته هجمات الأسود وقلبه أقوى من الجلمود ومن الصواب أن نحاربه غداً بالعسكر ونترك مبارزته إلى يوم آخر، بينما يكون تعب من القتال، فحينئذٍ تبرز إليه الأبطال، فاستصوب الأمير حسن مشورتهم وباتوا تلك الليلة على هذه النية وفي قلوبهم نار الحمية، ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، استعدت بنو هلال للحرب والقتال فدقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح والنصول، وركب الأمير حسن وتبعته جميع أبطاله وفرسانه، وكان شبيب قد التقاهم بالعسكر، فعند ذلك حمل وصاح وحملت معه فرسان الكفاح، وفي الحال التحم القتال وكان بينهم وقعة عظيمة، قتل فيها خلق كثير، ولله در الأمير أبو زيد والأمير دياب، فإنهما هجما على الرجال وحكما السيوف والحراب في الصدور والرقاب ونكسا البيارق بطعن أشد من نزول الصواعق، وفعل شبيب أيضاً في ذلك النهار العجب وألقى نفسه في العطب، وداموا على تلك الحال إلى وقت الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال، فرجعت الفرسان والأبطال، وفي اليوم الثاني، اصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وكان يوم شديد الأهوال، انتصرت فيه عساكر الشام وأسرت فيه عدة من البنات والنسوان ولما أقبل الظلام رجعوا وباتوا في الخيام وفي الصباح برز الأمير حسن إلى الميدان فبرز له شبيب.

فانطبق عليه الأمير حسن كليث الآجام فالتقاه التبعي بالحسام وتجاول معه في معركة الصدام حتى حبسهما الغبار عن العيون والأبصار، وما زال الأمير حسن يحارب شبيب حتى أبصر منه الأهوال فقال له: دعنا الآن من القتال وفي الصباح نعود إلى المبارزة، فتبسم شبيب وقال: أنا أمهلك ثلاثة أيام، ثم رجع عن القتال، وعند رجوع حسن قالت له الجازية: لم رجعت والعرب ليس لها رجعات في الوقائع والغارات، فتحمس الأمير حسن ورجع إلى خصمه وطعنه طعنة نهمة وحمية فأصابته في رقبته ووقع عن ظهر الجواد فأدركه قومه في الحال ونشلوه من ساحة المجال وهو

يقاسي الألم والأوجاع، هذا وقد ارتدت العساكر على بعضها البعض، واقتتلوا قتالاً شديداً كثرت فيه الأهوال وجرى الدم وزاد الخوف وعظم البلا وتمددت القتلى على وجه الفلا، واستمر القتال على هذا المنوال إلى وقت الزوال، وكانت بنو هلال قد حلت أسراها من الأسر والاعتقال بضرب السيف وطعن النصال، فعندها دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ورجعت بنو هلال في فرح واستبشار على ذلك النجاح والانتصار، وأما الملك شبيب لما رأى حاله طريح الفراش، زاد عليه الخوف والارتعاش، واسودت الدنيا في عينيه ولا سيما عندما رأى الأهل والأصحاب في عويل وانتحاب فتنهد من فؤاد متبول. ثم غاب عن الدنيا لكثر الآمه فوقع في قومه البكا والنحيب.

هذا ما كان من أمر شبيب، وأما ما كان من بني هلال فإن الأمير حسن جمع سادات الرجال وقال لهم: مرادي هذا الصباح أبادر الأعادي بالقتال والكفاح، فقال أبو زيد: تمهل فسوف تبلغ القصد والأمل وأنا مرادي عند طلوع النهار أن أدخل المدينة وأنا بصفة طبيب لعلي أجتمع بشبيب فيفرح قلبي ويطيب، فقال حسن: اَفعل ما تريد أيها الفارس الصنديد. فعند ذلك سار أبو زيد إلى مضربه ولبس أفخر الحلل وتعمم بعمامة كبيرة ولبس جبة قصيرة وغسل وجهه ببعض العقاقير، فصار أبيض مثل الثلج حتى لم يعد يعرفه أحد من الأنام، ثم ركب ظهر فرس أصيلة ودخل مدينة الشام وجعل يجول في الأسواق وهو ينادي: أنا الطبيب أنا الحكيم، فمن فيه علة أزلتها عنه بإذن الله، وما زال يطوف ويجول وينادي ويقول: أنا الحكيم أنا الطبيب، حتى وصل إلى قصر شبيب، وكان لشبيب ولد مثل البدر يقال له صقر، فاتفق أنه كان هناك وسمعه فقال في نفسه: إن هذا الطبيب رجل غريب ولو لم يكن من الشطار والحذاق ما كان يطوف في الأسواق، فمرادي أن يداويه لعله يشفيه، ثم طلبه فحضر وسلم عليه، فسأله: هل أنت حكيم؟ قال: نعم. قال: إذا شفيت أبي وأزلت عنه المرض أغنيتك إلى الأبد، وقدمتك على جميع أطباء البلد. فقال: سأبذل الجهد وأداويه ولا أخرج من هذا القصر حتى أشفيه، ففرح كل من حضر هناك بهذا الخبر وزال عن قلوبهم الغم والكدر، ولم يعلموا بأن الطبيب هو عدوهم الأكبر، ثم تقدم أبو زيد إلى شبيب في صفة حكيم وطبيب وهو يترقب الفرصة ليقتله، وكان رأس شبيب معصوباً بمنديل وهو يتنهد من قلب عليل، ففك العصبة ومسح الدم ووضع له المراهم وقال: زالت الأضرار بإذن الواحد القهار. فاتفق أن شبيب فتح عينيه فرأى أبا زيد حوله، فخاف وأيقن بالموت الأحمر، فصاح من حلاوة الروح بصوت خفيف: هذا أبو زيد! هذا أبو زيد! فقال الحاضرون: ما يقول شبيب أيها الطبيب؟

قال يريد أن تملؤوا السراج زيتاً وتخرجوا جميعاً من البيت حتى يستريح ويزول عنه البأس؛ لأن العليل تضيق أخلاقه بكثرة الناس. ففرحوا وخرجوا من القاعة، ولما خلي المكان، أخرج أبو زيد من جنبه السكين، وذبح شبيب من الوريد إلى الوريد، ثم غطاه لفوق رأسه وخرج، فسألوه عن حال شبيب فقال: إنه بخير، فلا تدخلوا عليه إلا بعد ساعة لبينما يكون قد صحي من النوم ولا بد أن يشفى من علته في هذا اليوم لأني عالجته بأحسن علاج، فلا تكونوا في قلق وانزعاج، فشكروه على ذلك الاهتمام ووعدوه بالخلع والإنعام، ثم ودعهم وسار، وأما زوجة شبيب وباقي الجماعة، فإنهم بعد ذهاب أبي زيد بساعة، دخلوا على شبيب فوجدوه على تلك الحال، فخرجوا عن دائرة الاعتدال وعلموا أن الطبيب كان أبو زيد المحتال، فاستعظموا الأمر وأقاموا العزاء والنحيب على وفاة شبيب وهم يلعنون ذلك الطبيب، وكان لشبيب أخ اسمه الصحصاح، وكان من الأبطال، فاسودت الدنيا في عينيه وقال: لا بد لي أن أتبع هذا الغدار وأسقيه كأس الدمار، ثم سار وراءه وهو يهدر كالأسد إلى أن التقى به قرب طاحون، فلما نظره أبو زيد عرف أنه الصحصاح وأنه يريد قتله، فدخل على الطاحون وغير لونه بالأعشاب ونزع عنه تلك الثياب، ثم خرج ووقف على الباب، فلما وصل الصحصاح إليه سأله في قلب محزون أعلمني أين صاحب هذه الفرس؟ فقال له: في الطاحون فنزل عن الحصان وسلمه إلى أبي زيد ثم سل سيفه ودخل إلى الطاحون فلم يجد سوى الطحان هناك فضربه أورثه الهلاك وخرج في الحال وهو يظن أنه قتل أبا زيد فوجد أبا زيد على ظهر الحصان وقال له: من تكون فطعنه أبو زيد بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ومات، فسار أبو زيد وهو مسرور على ما فعل حتى دخل على الأمير حسن في الصيوان وحوله الأمراء والأعيان فأعلمه بما جرى وكيف قتل شبيب والصحصاح ورجع بالفوز والنجاح، فشكروه على ذلك الاهتمام وقالوا: لا عدمناك يا فارس الصدام، فقد هان علينا الحال وبلغنا المرام، وسوف نبادر الأعداء بالحرب والصدام.

هذا ما كان من بني هلال، وأما ما كان من أهل شبيب، فإنهم لما علموا بقتل الصحصاح، زاد عندهم النواح، وأحضروه لجانب أخيه، وأقاموا عليهما النحيب، فتقدمت جنوب زوجة شبيب ترثيه بهذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| تقول جنوب الحميرية بما جرى | بدمع جرى فوق الخدود سكيب |
| الأيام والدنيا كفى الله شرها | ومن عاش فيها ينظر التنكيب |
| فما أضحكت إلا أبكت بعد ضحكها | فيا لها من حسرة بعد شبيب |
| شبيب الذي فرقع له الرعد بالسما | وصاحت ديوك العرش مات شبيب |

شبيب الذي ما ربت الترك مثله — وما ربت الدايات مثل شبيب
شبيب الذي يلقى الضيوف بفرحة — ومسرة ولو كان الزمان جديب
فيا ليت من كان السبب بفراقنا — يقتل بحد الماضيات قريب
ألا يا حمام النوح نوحوا واندبوا — وابكوا على فقد الأمير شبيب
يا هل ترى الأيام عادت تلمّنا — وتجمعنا به بوقت قريب

فلما فرغت من هذه المرثية، جعلت تبكي وتنوح وتلطم على خدودها من شدة الأسف وتقول: والله لقد انهدم بعد شبيب العز والشرف، فبكت الناس لبكاها وعزوها على ما دهاها، ثم أجلسوا شبيب على كرسي من الذهب الأصفر مرصع بالدر والجوهر، وألبسوه عدة الحرب وتقدمت البنات والنساء والأمراء والسادات، وبكوا عليه حتى كثر الصياح وارتفع البكاء والنواح، وتقدمت جنوب وقبلته بين عينيه وقالت: باطل يا أبا الخنساء، لماذا أنت نايم يا مقري الضيوف؟ قم وانظر إلى هؤلاء الأمراء الذين جاؤوا لضيافتك، فمالك لا تقوم بواجبهم؟ ثم سحبت خنجراً وصارت ترقص وتقول: أنا من بعدك لا أريد الحياة وبسرعة جنونية أغمدت الخنجر في بطنها، فحينئذٍ ضج الجميع في العويل وكثرت الولاويل ثم دفنوا الثلاثة باحتفال عظيم، وأقاموا مناحة طويلة، هذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من بني هلال، فإنهم استعدوا للحرب والقتال، فاعتقلوا بالسيوف والنصال وهجموا على المدينة بقلوب كالجبال ومكنوا الضرب على الرجال من اليمين والشمال، ونهبوا ما فيها من الأمتعة والأموال، فعند ذلك خرجت الأمراء والأعيان وابنه في جماعة من النسوان، وطلبوا من الأمير حسن العفو والأمان، فأجابهم إلى ذلك الشأن، وأرسل منادياً ينادي في الأسواق بالأمان، فتوقف القتال وخرجت بنو هلال وأقامت في الخيام وبلغت المرام وزالت عنها الأوهام، وبعد ذلك بعشرة أيام ولى الأمير حسن الأمير صقر مكان أبيه، ثم أمر بدق طبل الارتحال، فهدموا الخيام والمضارب وركبت الفرسان ظهور النجائب، وجدوا في قطع الروابي والآكام حتى وص لوا إلى القدس الشريف بعد ستة أيام، فنزلوا خارج المدينة في المضارب والخيام، وزاروا الأماكن المقدسة بكل احترام وتصدقوا على الأرامل والأيتام، ثم رحلوا منها بعد عشرة أيام قاصدين غزة بقلوب معتزة.

□□□□□



# الجزء الحادي عشر:

# من تغريبة بني هلال قصة السركسي بن نازب

(قال الراوي): فلما وصلوا إليها وجدوها محصنة، فنصبوا حولها الخيام والأعلام، وفرقوا مواشيهم في جوانب أقطارها، وأكلوا من محصولها وأثمارها، فلما رأت الرعيان تلك الفرسان قد ملأت البراري، ذهبوا إلى ملكهم وأعلموه بذلك الشأن، وكان ملكهم قوي الجنان، صاحب جيوش ومواكب، يقال له السركسي بن نازب، وكان عدد عساكره خمسمائة ألف من الأبطال يعتمد عليهم في الحرب والقتال، فلما بلغه الخبر من الرعيان بقدوم بني هلال، جمع الوزراء والأعيان وأكابر الديوان واستشارهم في ذلك الشأن وكان عنده وزير ذو رأي وتدبير يقال له الأمير راشد، فقال: اعلم أيها الملك الهمام أنني أخبر الناس ببني هلال وأعرف ما عندهم من الغنم والجمال والخيل والأموال لأنني ذهبت إلى نجد وأقمت فيها جملة أيام فعندهم أربع تسعينات ألوف وبناتهم مثل البدور، وبما أنهم أقبلوا إلينا فمن الصواب أن نبادرهم بالحرب والقتال وننهب ما عندهم من الأموال؛ لأننا أشد منهم بأساً وأقوى مراساً، ثم أشار يصف له بني هلال وبناتهم.

ولما فرغ السركسي طوى الكتاب وسلمه إلى النجاب وأمره أن يأخذه إلى الأمير حسن ويأتيه بالجواب فأخذه وسار وما زال يقطع الروابي والتلال يطلب منهم عشر المال.

فاستصوبه السركسي وقد طمع في مال بني هلال وفي الحال كتب لهم حتى وصل إلى بني هلال فدخل على الأمير حسن وسلم عليه وأعطاه الكتاب، وكان حسن جالساً وسط الديوان وحوله الأمراء والأعيان منهم الأمير أبو زيد والأمير دياب وغيرهم من السادات والأنجاب، فلما فتح الكتاب وقرأه وعرف حقيقة ما حواه، عرضه على الأمراء، وقال لهم: ما رأيكم أيها السادات؟ فقالوا: ما عندنا سوى الطعن، فعند ذلك أشار الأمير حسن يجاوب السركسي على كتابه، ثم سلمه إلى النجاب فأخذه وسار إلى السركسي بن نازب، فسلم عليه ثم ناوله الكتاب فلما قرأه وعرف ما تضمنه، طار الشرر من عينيه وأمر بجمع ثلاث مائة ألف بطل بالأسلحة الكاملة والعدد الشاملة وركب في أول العسكر مع الأمير راشد الوزير وحوله الأعلام والرايات والفرسان والسادات وجد في قطع البراري والقفار لقتال بني هلال ونهب

الأمتعة والأموال. ولما عرفت بنو هلال بقدومه استعدت للقتال والنزال وركب الأمير حسن وتبعته بنو هلال، وكان الأمير أبو زيد راكباً عن يمينه والأمير دياب راكباً عن شماله، ولما التقت العساكر ببعضها البعض، وقف كل فريق في ناحية من الأرض وكان أول من برز إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان السركسي وهو كالليث، فبرز إليه أبو زيد في الحال فالتقاه السركسي وتناشدا شعراً.

ثم انطبق أبو زيد على السركسي انطباق الرعد في الغمام فالتقاه السركسي كأنه ليث الآجام وأخذ معه في الطعن وضرب الحسام، وكان السركسي أفرس زمانه ولا أحد يعادله في ميدانه وكانت تضرب به الأمثال وتهابه الفرسان والأبطال، فقاتل خصمه أشد قتال وضربه بحد الحسام، فاستتر أبو زيد بالدرقة نزلت الضربة على رقبة الحصان، فبرتها كما يبري الكاتب القلم، فوقع أبو زيد على الأرض، فهجم السركسي عليه وأراد أن يكمل عليه، فلما رأى أبو زيد تلك الحال، خاف الهلاك والوبال فطلب منه أن يعفو عنه فأجابه إلى ذلك الشأن وقال له: اذهب من الميدان وأرسل لي الأمير دياب حتى أعلمه حقيقة الضرب والطعن أو تحضروا لي عشر المال حتى أوقف عنكم القتال، فرجع أبو زيد بغاية الكدر ورجع معه باقي الجيش والعسكر حيث كان أظلم الظلام واعتكر، ولما وصل إلى المضارب التقت به النساء والبنات وسألوه عن حاله وما جرى في قتاله.

ثم ذهب أبو زيد بنفسه إلى الأمير حسن وأعلمه بما جرى وكان، فتعجب الأمير حسن وباقي الأمراء، وقالوا: ما دام الأمر على هذا الحال، فما بقي غير الأمير دياب أن يبرز إلى السركسي، لعله يبلغ منه الآمال وإلا تضعضعت منا الأحوال، فاستصوب الأمير حسن هذا الكلام وصار يحمس الأمير دياب والأمير يرد عليه.

فلما فرغ الأمير دياب من كلامه، شكره الأمير حسن على حسن اهتمامه، ولما أصبح الصباح، برز السركسي إلى ساحة المجال فصال وجال وطلب مبارزة الأبطال فبرز إليه دياب كأنه ليث الغاب وهو راكب على الخضرا، فالتقاه السركسي بقلب كالصوان وقال له: من تكون من الفرسان؟ فقال: أنا الأمير دياب بن غانم. فضحك السركسي والتقاه في ساحة المجال واقتتلا بالرماح والنصال أقوى قتال وهجما على بعضهما هجوم الأسود وما زالا على تلك الحال إلى وقت الزوال، وكان السركسي من أقوى الفرسان في تلك الأيام، فإنه استطال على الأمير دياب بعد أن لعب عليه اثنين وسبعين بابا، فهرب من أمامه مع عسكره، ولم يثبت لحربه وصدامه حتى دخل المضارب والخيام وهو مقهور، فرجع السركسي إلى قومه بغاية الفرح والسرور، وبات تلك الليلة مشروح الفؤاد على نيل المراد، وأما دياب فرجع غائباً عن الصواب حتى أقبل على الأمير حسن، فصار يخبر بهذه الأبيات:

قال المدعو الأمير دياب النار في قلبي تزيد لهاب
يا حسن اسمع كلامي وافتهم وأصغي إلى قولي ورد جواب
السركسي ما رأيت مثله فارس يفتح علي بالحروب أبواب
وقد هالني لما يروح ويرتجع ينزل علي مثل سبع الغاب
ما له مثيل في هلال وعامر أيضاً ولا في ساير الأعراب
قوموا بنا بالليل حتى نرحل يا أبو علي الرأس مني شاب

فلما فرغ الأمير دياب من كلامه وأمراء بني هلال تسمع نظامه، خافوا من الشرور وعواقب الأمور، وجعلوا يتشاورون في قتال ذلك البطل، فقرروا على مفاجأته بهجوم خاطف وباتوا تلك الليلة، وفي الصباح جمع الأمير حسن الأبطال والفرسان، ونزلوا إلى ساحة الميدان، فالتقتهم عساكر السركسي في ساحة المجال، واقتتلوا أشد قتال، وهجموا على بعضهم البعض، واشتبك بين العسكرين القتال، وجرى الدم وسال، فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماء فائرة وفرساناً غائرة، حتى دارت على قوم السركسي الدائرة وكانت بنو هلال محيطة بهم من اليمين والشمال، فبينما هم في ضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات وإذا بغبار قد ثار حتى سد منافس الأقطار وبان عن عسكر جرار، ليس له قرار، وفي مقدمتهم الوزير راشد الأسد المعاند، وكان السبب في قدومهم أن السركسي أرسل يطلب منهم الأمداد للحرب والطراد، فحضر الوزير بمائتي ألف عنان، فلما وصل إلى ساحة الميدان ووجد قومه بالذل والهوان، هجم على بني هلال وأحاط بهم من اليمين والشمال، وخلص السركسي من بين أيدي بني هلال واقتحم هو والعساكر إلى ساحة المجال، وما زالت الحرب على قدم وساق إلى أن انكسرت بنو هلال أشد انكسار وانهزم الأمير دياب ببني زغبي وأبو زيد ببني زحلان والأمير حسن والقاضي بدير ببقية الفرسان، وتبعهم الوزير راشد بكل بطل مغوار وأسد كرار، وشتتهم في جوانب القفار وكسب غنائم كثيرة وأموالاً غزيرة، ولما أظلم الظلام رجع الوزير والملك منصور، وقد كسبوا من بني هلال المال والبنات والنوق والجمال، وصارت بنو هلال مشتتين في البراري والتلال، ثم اجتمع الأمير حسن والأمير دياب والأمير أبو زيد وأكابر الديوان، وأخذوا يتشاورون في خلاص ما أخذه منهم قوم السركسي وكيف يقتلون الوزير الذي كان سبب هذا البلاء.

وكان للأمير حسن ابن أخت شديد البأس قوي المراس يسمى الأمير عقل عمره أربعة عشر عاماً، فلما انهزم الأبطال والفرسان من قتال السركسي في ساحة الميدان استعظم ذلك الشأن فجاء إلى خاله الأمير حسن وتعهد له بقتل السركسي بشرط أن تذهب معه النساء والبنات يشجعنه في الحرب والثبات ثم إنه أنشد شعراً شكره عليه

الأمير حسن، وباقي الأمراء على حسن اهتمامه، وقد تعجبوا من ذلك وقالوا: لعل الله أن يأتي على يده بالفرج والنصر، ثم إن الأمير حسن أمر أخته الجازية أن تنتخب في الحال مائة بنت من خيار البنات الأبكار اللواتي يشبهن الأقمار، فحضرت بهن عند أخيها وقالت له: ماذا تريد أن تفعل؟ قال: تذهبين مع البنات ومع الأمير عقل إلى ساحة الميدان وتشجعنه بالأشعار الحسان حتى يتحمس على قتل السركسي بن نازب لعله ينال المقاصد، فلما سمعت الجازية فحوى كلامه، استعظمت الحال وقالت: كيف نذهب مع عقل وهو ولد صغير السن وليس من رجال الحرب والقتال، فإذا كان أبو زيد ودياب لم يقدرا على السركسي فكيف يقدر هذا الصبي وربما يأسرنا السركسي ونبقى معيرة بين الأعارب. فلما انتهت من هذا الخطاب تقدمت وطفا بنت الأمير دياب وتكلمت بهذا المعنى. فقال الأمير حسن: هذا الكلام لا يفيد، ثم أمر بالركوب مع الأمير عقل، وفي الحال ركبت العماريات أمام الفرسان والأبطال، واعتقلوا بالرماح والنصال وقصدوا ساحة القتال، فلما وصلوا اصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف وكان الأمير عقل راكباً على ظهر جواد يسابق الرياح، فبرز إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه السركسي كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل فقال له عقل: من تكون من الأبطال فإني أرى نفسك شامخة معتزة؟ قال: أنا السركسي أمير غزة. وأنت من تكون؟ قال: أنا الأمير عقل بن الأمير بدر.

وبعد أن تساجل البطلان التقيا في ساحة الميدان كأنما جبلان أو أسدان كاسران، وعلا عليهما الغبار حتى حجبهما عن الأبصار وقدحت حوافر خيلهما النار، وما زالا على تلك الحال وهما في أشد قتال إلى قرب الزوال، وكان السركسي قد تعجب من حرب الأمير عقل واستعظم قتاله لأنه رأى منه في مواضع الطعن والضرب ما أدهشه وأهاله، ثم ضربه في الدبوس قاصداً أن يعدمه الحياة، فخلا عنها، فراحت الضربة خائبة بعد أن كانت صائبة، ثم إن الأمير عقل ارتد على خصمه مثل الأسد وضربه بالسيف المهند، فجاءت الضربة على رقبة الجواد فبرتها كما يبري الكاتب القلم، فوقع السركسي على الأرض، فأدركه قومه ونشلوه من ساحة القتال، فهجم عليهم الأمير عقل بالحسام فولوا وطلبوا الانهزم حتى وصلوا إلى غزة. فرجع الأمير عقل والفرسان من المعركة والصدام وهم في فرح واستبشار، ورجعت معه البنات الأبكار وقد تعجبن من أمره نظراً لصغر سنه، فدخل على الأمير حسن وسلم عليه وعلى جميع الأمراء الذين حواليه وأعلمه بما جرى وكان، وكيف أن خصمه ولى من ساحة الميدان، بعد أن حاربه طول النهار، فشكره الأمير حسن على فعاله وقد تعجب من قتاله وثباته، وأجلسه بقربه في صدر الديوان ووعده بالجميل

والإحسان، ورفعه إلى درجة الأمراء والأعيان، هذا ما كان من بني هلال.

وأما ما كان من السركسي، فإنه رجع من ساحة القتال وهو مشغول البال، فاجتمع بوزيره وأعلمه بقتال الأمير عقل ذلك الولد الجبار والبطل المغوار، فقال له الوزير: لا تخف يا ملك الزمان غداً أنزل إلى الميدان وأبارز هذا الولد وأذيقه الأهوال. وباتوا تلك الليلة يتحادثون وفي الصباح اصطف الجيشان وتقابل العسكران وبرز الوزير راشد إلى ساحة الميدان، وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه الأمير عقل، فالتقاه راشد بقلب كالجبال، والتحم بينهما القتال وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وفعلا أفعالاً تعجز عنها صناديد الأبطال وما زالا على تلك الحالة مدة خمسة أيام، وفي اليوم السادس التقيا في ساحة الميدان وتقاتلا أمام الفرسان إلى أن اختلف بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الأمير عقل، فجاءت الضربة على رأس الوزير راشد، فوقع قتيلاً وفي دمه جديلاً، فلما رأى قومه ما حل به من الوبال، نشلوه من ساحة القتال وأما السركسي لما علم أن الوزير قتل، غاب عن دائرة الصواب وهجم على الأمير عقل مثل ليث الغاب فالتقاه عقل بقلب أقسى من الصوان وتقاتلا معاً في ساحة الميدان حتى تحيرت من قتالهما الفرسان وما زالا على تلك الحال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعا عن الحرب والقتال ورجع السركسي وهو غضبان مما قاسى من الحرب والطعان وصمم النية أنه في ثاني الأيام يهجم بالفرسان والأبطال على بني هلال ويذيقهم الأهوال. أما الأمير حسن فإنه أحضر الأمراء والسادات وقال لهم: اعلموا أيها الرجال أن قصدنا الوصول إلى تونس الغرب لنخلص رجالنا من أسر الزناتي خليفة، والرأي عندي الآن أن نهجم في الصباح بالأبطال والفرسان ونحارب أعداءنا بقوة الجنان حتى نبلغ الآمال ونسير بالعجل من هذه الأطلال، فيركب الأمير دياب في بني زغبي الشجعان والقاضي بدير والخفاجي عامر مع الأمير زيدان والرياشي مفرج وعرندس الزغبي والأمير عقل يقصدون الميدان والأمير أبو زيد يركب في بني زحلان ويقصدون أبواب غزة بعد حضور السركسي إلى الميدان وهكذا تم الاتفاق.

وفي الصباح، دقت طبول الحرب وركب الفرسان للطعن والضرب، واندفعت الشجعان إلى ساحة الميدان من كل جهة ومكان، وقصد السركسي معركة القتال وطلب مبارزة الأبطال، فبرز إليه الأمير دياب وجال معه ساعة من الزمان، ثم هجمت العساكر على بعضها البعض كأنها كواسر السباع وجعلوا يتضاربون بالسيوف ويتطاعنون حتى جرى الدم وساح وزهقت الأرواح، وما زالوا على تلك الحال إلى قرب الزوال، فعند ذلك، هجم الأمير عقل وزيدان واقتلعا السركسي من ظهر

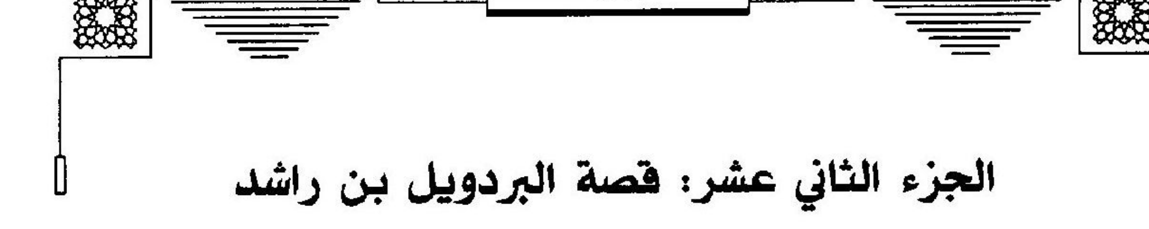
الحصان وأوثقاه بالسلاسل والقيود وأخذاه إلى الخيام وبلغا المقصود، ولما بلغ أبو زيد هذا الخبر، فرح واستبشر وهجم بالفرسان والأبطال على عساكر السركسي الذين انهزموا من ساحة المجال، وحكم فيهم ضرب السيف الفصال وبعد أن دخلت بنو هلال غزة بقلوب معتزة، غنموا الأموال وبلغوا الآمال وخلصوا سباياهم من الاعتقال وكان أظلم الظلام، فخرجوا وباتوا في الخيام وفي اليوم الثاني أقبلت أهالي البلد وطلبوا من حسن الأمان، فأجابهم إلى ذلك الشأن وأرسل منادياً ينادي بالأمان، فاستتبت الأحوال واستبشرت بنو هلال بالعز والإقبال، ثم حضرت الفرسان والأمراء عند الأمير حسن، فشكرهم على ذلك الاهتمام وغمرهم بالعطايا والأنعام، ثم أحضروا عقل وأكرموه غاية الإكرام على ما أبداه من الحرب والصدام وقلده الأمير حسن مقام الأمراء العظام وألبسه سيفاً مرصعاً بنفيس الجواهر، ثم أشار يمدحه ويعرض عليه ما يريد من بنات النساء والسادات.

فلما فرغ الأمير حسن قال له الأمير: يا خال أرجو أن أحوز الكمال بنظرك السعيد مدى الأيام. والآن ما حل وقت زواجي، فتقدم الأمير زيدان شيخ الشباب والتمس من الأمير حسن أن يأمر بعمل عرس لأولاد الإمارة الذين حان وقت زواجهم، فقال له حسن: لا بأس وركبت أولاد الأمراء فوق ظهر الخيل وعملوا عراضة عظيمة لها قدر وقيمة، وبعده عملوا عرساً طافحاً بالمسرات ورقصت أمامهم النساء والبنات المخدرات، ومكثوا على هذا الحال ثلاثة أيام بالفرح والسرور، أحضروا السركسي مقيداً وأدخلوه عند الأمير حسن، فترامى على أقدامه وكان الأمير أبو زيد جالساً عن يمينه والأمير دياب عن شماله، فحينئذٍ طلب منه العفو والأمان وقال: يا أمير إن الوزير هو الذي كان السبب في الأذية والضرر وكان سبباً لسبي النساء الحسان، فأرجوك أن تعفو عني، فأمر السلطان حسن بفكه وقال: يا سركسي أعفو عنك إذا حفظت الشرائع الملوكية وهي أوصيك بمحبة الله وحفظ شرائعه ووصاياه ما دمت في قيد الحياة، ولا تكن لجوجاً في الكلام ولا مدمناً لشرب المدام بل حافظاً زمام الاحتشام متخلقاً بأخلاق الكرام مع الخاص والعام، متجنباً كلام الهزء والهذيان، واقياً نفسك من عثار اللسان؛ لأن صدور الأحرار قبورها، فمن صان سره ملك أمره، ومن باح لم ينجح وزاد ندمه، واحذر يا سركسي من النساء الشريرات فإن مكرهن عظيم وهن أصل الأذى والضرر وسلاح إبليس عدو البشر، يتظاهرن بين الرجال بالحشمة والكمال، وهن أغدر من الحيات ومن أعظم المصائب والبليات، وبالجملة فإنهن مفاتيح الشرور؛ لأنه ليس لهن عهد ولا أمانة.

فقال السركسي: أنا طوع يديك وجميع أموري راجعة إليك فشنف أذني بأقوالك

اللطيفة فإني لأمرك سامع. فقال له السلطان حسن: متى توليت أحكام البلاد وتحكمت على رقاب العباد إياك أن تغفل عن أحوال الرعية وتتعدى القواعد الهلالية وتخالف القوانين والشرائع الملوكية، بل كن سالكاً الطريق المرضية، معاملاً الكبير والصغير بالسوية، رافعاً عن شكوى المظلوم حجابك، فاتحاً في وجهه بابك، واضعاً الأشياء في محلها والمناصب في يد أهلها، ولا سيما ولاة الأقطار وأرباب الوظائف الكبار، فينبغي أن يكون هؤلاء الرجال من أهل الفضل والكمال موصوفين بالاستقامة والأمانة ومشهود لهم بالحلم وبصدق الديانة، لا يميزون بين الحقير والشريف ولا يظاهرون القوي على الضعيف، فيهابهم جميع المأمورين ويقتدي بهم باقي المستخدمين؛ لأنهم أصحاب الكلام وولاة الأحكام وبيدهم أزمة الأمور وتدبير مصالح الجمهور ومحافظة الحدود والثغور، فإذا كانوا على هذه الحالة، تستقيم أحوال الرعايا وينتشر العدل في كل مكان، فترعى الذئاب مع الغنم وتبات العصافير مع الرخم، أما إذا كانوا خلاف هذه الأوصاف، مائلين إلى الاعوجاج والانحراف، لا يبالون بمنافع الخلق ولا يعلمون بما يقتضيه الحق، بل يصرفون الأوقات بالملاهي والملذات، فتضطرب الأحوال ويقع الاختلاف ويكون سبباً لضرر البلاد بدل الاصطلاح، فيضيع الحق والإنصاف ويكثر الجور والاعتساف، فتسقط المملكة الهلالية ويصير وجودها كالعدم بين ملوك الأمم.

فإياك أيها الأمير أن تسمي وزير إلا بعد الفحص والامتحان ولو كان ابن رفعة وشأن، حتى تستقيم أمور دولتك وتسعد به أحوال رعيتك، فهذا الذي يقتضيه مقامك ويحسن به في الدارين ختامك، وإياك أن تغتر في الدنيا ولذتها وتلتهي بأفراحها ومسرتها، فإنها محتالة غدارة، جميع أمورها مستعارة، فلا تركن إليها ولا تثق بها وتعتمد عليها، فكم أفنت من الملوك وفتكت بالأنبياء وما هي إلا كظل زائل، واعلم أن المراتب العليا إنما هي مواهب وعناية من رب البرايا لأناس خصهم الله بأبواب الخير، وذلك لغايات لا تدركها العقول. ثم قال له: وإياك أن تهمل الجزية بل أرسلها لي في كل عام. فحينئذٍ نهض السركسي فقبل يديه وقال: أنا طوع يديك وجميع أموري متجهة إليك، ولن أنسى جميلك وإحسانك ما دمت في قيد الحياة، فحينئذٍ أمر له السلطان بخلعة سنية وحلة ملوكية ونهض أبو زيد ودياب وألبساه إياها أمام الوزراء والقواد وأرسلوه إلى محكمته في احتفال عظيم وأجلسوه على تخت المملكة وودعوا بعضهم، ثم أخذوا في أهبتهم للمسير إلى بلاد الغرب، لكي يخلصوا أولادهم من الأسر والكرب فانتشرت البيارق والصفوف وضربت الطبول في الصحاري والسهول، وأخذوا يجدون في المسير ويسابقون في مسيرهم الطير إلى أن أقبلوا إلى مواشيهم في تلك البراري والآكام.



# الجزء الثاني عشر: قصة البردويل بن راشد

قال الراوي: إنه كان في العريش ملك من الملوك العظام، صاحب بطش وإقدام، يقال له البردويل بن راشد وكان فارساً شديداً وبطلاً عنيداً، له قصر مشيد الأركان عالي البنيان وحوله العساكر والفرسان، وكان مجوسياً يعبد النار دون الجبار ويسجد للشمس كل نهار ويلبس طاقية الأخفا ويقرأ الطلاسم ولم يعد أحد يراه، وبهذا الشأن يقهر الأبطال والفرسان. ففي بعض الأيام أخذ خبر بنت ملك سنبس مرصاد حاكم هاتيك البلاد وعنده ثلاثة آلاف فارس، ما بين مدرع ولابس، والبنت اسمها عليا وكانت ذات حسن وجمال وبهاء وكمال، فلما سمع البردويل بوصفها ما بقي يملك من العقل ولا درهم، فكتب كتاباً إلى أبيها الملك مرصاد، يطلب ابنته عليا إلى الزواج، فأبى الملك مرصاد ذلك، فحار به البردويل وقتله وقتل وزيره وأخذ بنته عليا زوجة له. هذا ما كان من أمر البردويل والملك مرصاد، ولنرجع بالكلام إلى بني هلال، فإنهم لما انتهوا من حرب السركسي في غزة، قصدوا وادي العريش فنصبوا فيها المضارب والخيام وسرحوا مواشيهم في تلك البراري والآكام التي يحكم عليها البردويل. فلما سمع بقدوم بني هلال ونزولهم في وادي العريش يأكلون الأثمار ويتلفون الأشجار، اغتاظ وتكدر وشخر ونخر وأقسم أن لا يبقي أحداً من بني هلال الأعداء الأشرار.

فقال له الوزير: اكتب إلى الأمير حسن في طلب عشر المال، والنوق والجمال، فإن أعطى كان قتالهم حراماً وإن لم يعط يكون قتالهم حلالاً، فطلب البردويل قلماً وقرطاساً ودواية من الذهب الخاص وأخذ يكتب إلى الأمير حسن في طلب عشر المال والخيل والجمال.

ثم طوى الكتاب وأعطاه لعبده سعيد، فأخذه وسار إلى أن وصل إلى بني هلال وسلم الكتاب للسلطان حسن، فقرأه وفهم معناه، فاسودت الدنيا في وجهه، فكان أبو زيد موجوداً، فأخذ الجواب وقرأه وقال: أنا والله علي في قتل البردويل وستشهد لي جميع العربان بذلك، فأشار دياب أن يأخذوا العبد لدار الضيافة لئلا يفهم ما يتكلمون، فمضوا به إلى دار الضيافة، حينئذٍ قال الأمير دياب: لا تحسب الأكلات كلها زلابية يا أبا زيد. وراح دياب يهدد ويتوعد، فقال أبو زيد: أصحيح ما تقول يا

دياب، فقال دياب: كلا يا أبا زيد وإنما أنا أمزح حتى أنظر ما يكون عندك من التدبير، فحينئذٍ قال أبو زيد للعبد سعيد: قل لسيدك ليس لك عندهم غير الحرب ورمي الرقاب.

فسار سعيد وأخبر مولاه البردويل بذلك، فغضب غضباً شديداً وفي الحال أمر وزيره المنصور أن يركب في مائة ألف فارس وينزل إلى الحرب وأن لا يترك من بني هلال صغيراً ولا كبيراً إلا قتله، فسار المنصور بمائة ألف فارس حتى وصل إلى الميدان فأسرع إليه الأمير دياب وجالا وصالا، وطعن منصور الأمير دياب بالرمح تخلى عنها وضربه دياب بالحربة، خرجت تلمع من ظهره، فحين ما نظرت عساكر البردويل ما حل بالوزير انطبقوا على الأمير دياب مثل سباع الغاب، فتلقتهم بنو زغبي مثل الأسود الكواسر بالسيوف والرماح، ولله در الأمير دياب فإنه برى الرؤوس وجز الرقاب فولت رجال البردويل وهي مكسورة مدحورة، وأخبرته بما جرى فلبس البردويل ثلاثة دروع ووضع في جيبه طاقية الأخفاء ونزل إلى الميدان بأربعمائة ألف فارس وهجم على بني هلال وقد أوقع في قلوبهم الرعب، ولكن لله در أبطالهم، فإنهم أظهروا الجلد وأخفوا الكمد ومع كل ما جاهدوا وعانوا، استظهرت عليهم العساكر وكسروهم في آخر النهار، فرجعوا على أعقابهم مشتتين ثم اجتمعوا وأخذوا يتشاورون في دفع الجزية للبردويل، فقال أبو زيد: والله يا حسن قد اعتراكم الوهن وأنا لا أطاوعكم أبداً ولا أدفع الجزية ما دمت قادراً على ركوب الجواد وأتقلد في آلة الحرب والجلاد، وراح يفتخر بقتل البردويل وهو يقول:

| | |
|---|---|
| قال أبو زيد الهلالي يا حسن | اسمع كلامي أنت مع من حضر |
| لا تخافوا من طعان البردويل | إنني أطفي لكم منه الخبر |
| وغداً باكر أنا أنزل إليه | فوق مهر مثل طير أو صقر |
| سوف أسقيه المنية عاجلاً | ثم أتركه حديثاً يتذكر |
| وكفى التسليم في كل الأمور | وهنيئاً للذي بلغ الوطر |

فلما فرغ أبو زيد من كلامه، توجهوا للصيوان وبقي عند السلطان حسن دياب، والقاضي بدير وطي بن مالك وأبو العوف وعامر وحماد وعرندس فتشاوروا مع بعضهم وقالوا: غداً يذهب أبو زيد إلى البردويل فيقتله ونبقى بعده في حزن طويل، ثم نهض الأمير حسن ودخل إلى خزانة السلاح فأخرج قيد المملكة وهو أربعة أرطال فضة ووضعه في منديل وأعطاه إلى دياب وقال: اذهب إلى أبي زيد أنت وخالك القاضي بدير والأمير طي بن مالك وأبو العوف وعامر وحماد وعمك عرندس، وقل له: إن كنت تطيع الله والأمير ضع رجليك في هذا القيد إلى الغد ونحن نجيء غداً ونفتحه

لك، فإن حسن خائف عليك أن تذهب إلى البردويل ويقتلك فأخذوا القيد وساروا إلى أبي زيد، رحب بهم وأجلسهم ثم قال لهم: ما سبب مجيئكم؟ فقام دياب ووضع المنديل قدام أبي زيد وقال له: قد أرسله لك ابن عمك حسن. ففتحه أبو زيد فوجد فيه القيد، فقال: ما هذا؟ قالوا: لأجل أن تضعه في رجليك إلى الغد وأخبروه بما قال حسن، قال: صبر جميل، ثم قال بنفسه: إن خالفت حسن فمن يطيعه ومن يقدر أن يسفه كلام الأجاويد، ثم إنه أخذ القيد ووضعه في رجليه وقال: سمعاً وطاعة لله والأمير ولكن لي عليكم واحدة أن تجيئوا وتحلوا لي القيد غداً من صلاة الصبح، فقالوا: سمعاً وطاعة، وذهبوا وأعلموا حسن، فخاف حسن أن يعوقوا على أبي زيد فبعث وراء أم مخيمر وقال لها: يا أم مخيمر خذي مفتاح هذا القيد حطيه معك ولما تشوفي الفجر لاح افتحي القيد من أقدام أبي زيد وإياك أن تخبريه عن المفتاح، فقالت: سمعاً وطاعة، ثم ذهبت إلى أبي زيد وقعدت قباله.

أما البردويل الهمام فإنه في الصباح دق طبول الحرب والكفاح وبرز إلى ساحة الميدان، فانحدر إليه الأمير حسن وانطبق عليه وتقاتلا من الصباح إلى وقت الظلام، فافترقا على سلام ورجع كل منهم إلى الخيام، ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، برز البردويل إلى ساحة الميدان، فبرز إليه قاضي العربان، فلما نظره البردويل، قال: أنت قاضي العربان تريد أن تحارب الفرسان، فقال له: اليوم أريك أفعالي وحربي ونزالي، وهجم عليه وتقاربا وتصادما ولم يمض عليهما ساعتان حتى برم البردويل الدبوس في يده وضرب القاضي بين كتفيه ظن أن روحه خرجت من بين جنبيه، فدار رأس جواده وولى هارباً وإلى النجاة طالباً، فانحدر إليه الأمير زيدان وانطبق عليه انطباق الغمام، فما طال عليه المطال حتى كلَّ في الحال فولى هارباً فبرز إليه مخيبر وبعده عكرمة ثم مفلح وأيضاً عقل حتى برز إليه خمسة وعشرون أميراً من الفرسان ولم يمكث الواحد منهم أكثر من ساعة إلا ويولي هارباً وإلى النجاة طالباً، وما زالوا هكذا حتى أمسى المساء ودقت طبول الانفصال، أخذ كل منهم يشكو ما أصابه.

وفي ثاني الأيام برز الأمير دياب وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه البردويل، فالتقى البطلان كأنهما جبلان، وكان عليهما الحين وغنى فوق رأسيهما غراب البين وأخذا في كر وفر واقتراب وابتعاد، فلما شاهد الأمير دياب أن خصمه شديد وقرم عنيد، أشار إلى بني زغبة فطبقوا على قوم البردويل فتلقوهم أولئك في ضرب مثل النار حتى ما عدت تنظر في ذلك النهار إلا رؤوساً طائرة ودماء فائرة وفرساناً غائرة والرؤوس تتساقط مثل ورق الشجر، فيا لها من وقعة مهولة تشيب رؤوس الأطفال

وتحير عقول الأبطال، وكان ذلك اليوم على بني هلال أشد الأيام، فقد كسرتهم عساكر البردويل وأرجعوهم إلى الخيام ينوحون على مصائب الأيام، ورجع البردويل إلى قصره فرحان، هذا كله والأمير أبو زيد مقيد، فلما عرف أبو زيد ما جرى على بني هلال، اغتاظ وتكدر وصارت عيناه تقدحان الشرر وصار يتقلب على الفراش مثل الثعبان، فقالت له أم مخير: لماذا أنت حامل كل هذا الهم وأنت عندك مال أكثر من غيرك وإن الأمراء لا يدفعون غفارة، فلأي شيء ترمي روحك في المهالك، فقال لها: ولكن من غيظي من حسن ودياب لازم أروح للبردويل أقتله وإني بعون الله أسرع بقتله بكل ما يمكن، فقالت: البردويل قد طلب مالاً وخيلاً وجمالاً وعبيداً وجواري وسلاحاً وبنات، وأول ما طلب بنتك جمال الظعن، فقال: كيف نعطيه إياها؟ قالت: لا قدر الله، ولكن كيف تقدر عليه وعلى طلاسمه وسحره؟ فقال لها: إن شاء الله تعالى أقتله وأنت تعرفين بعلك يا أم مخيمر والأمير حسن كل يوم عند الصباح يعطيك المفتاح ومرادي الآن في هذا الليل أن تسيري إليه وتسرقي المفتاح من جيبه وتجيئي تفتحي القيد وأتوجه إلى البردويل وأقتله وأفوز على بني هلال.

فقالت: ماذا تعطي الذي يعطيك المفتاح؟ فقال لها: أما تريدين أن أنام عندك أربعين ليلة؟ فإذا كنت تريدين أن تفرجي كربتي افتحي القيد وأطلقي الباز للصيد، فقالت: إن الأمير حسن أقسم علي أن لا أفتح لك في هذا الليل، فإني أخاف عليك من البردويل أن يقتلك، فقال لها: إن قتلني تزوجي غيري وإن قتلوك بعدي فما أنت أحسن مني، فقالت له: يا ذلنا من بعدك يا بو شيبان وأخرجت المفتاح وفتحت له القيد، فوثب في الحال وشد على ابن الحيصا ولبس الدرع المصفح واعتلى على ظهر الجواد كأنه كتلة من الكتل أو قطعة فصلت من جبل وحفظ نفسه وحصانه بهياكل الطلاسم والأقسام وتحوط بآيات الله العظام وجد السير إلى أن وصل قصر البردويل ودار حوله فوجده عالي البنيان رفيع الأركان، وكان وصوله عند طلوع الشمس، فكان البردويل نائماً على ركبة عليا.

فعند وصول أبي زيد إلى الباب، وجده مصفحاً في ألواح من البولاد، كأنه من بنيان ثمود وعاد فرفع يده وضرب الباب في دبوس الحديد، فما أحد رد عليه، فدق الباب ثانياً وثالثاً فأتاه سعيد عبد البردويل وطل من الشباك فرأى أبا زيد راكباً على ظهر الجواد، فقال: ما تريد أيها الفارس العنيد؟ فقال له: أبو زيد أريد مولاك البردويل أيها العبد الذليل فاذهب إليه وقل له على الباب فارس طالبك للحرب والكفاح، فاندهش العبد من هذه الجسارة ورجع وأخبر سيدته عليا بأن فارساً بالباب أسمر اللون قال لي: قل لمولاك البردويل أن يبرز إلى الحرب والكفاح، فقالت له:

ما قال اسمه؟ أجابها لا، ولكن هيئته تدل على أنه أعرابي، وبينما العبد يخبرها بذلك، سمعت صوتاً يقول: قم يا بردويل من نومك الآن وإني سأدعك تنام إلى الأبد، فلما سمعت عليا هذا الصوت رفعت رأس البردويل عن ركبتها ووضعته على مخدة وأشرفت من فوق الباب فرأت الأمير أبو زيد فإذا هو مثل الصقر وقلبه أشد من الصخر فلما رآها أبو زيد وهي كأنها البدر المنير حول نظره عنها لئلا يفتنه حسنها وجمالها، فقالت له: ما مرادك ومن أنت؟ فقال لها: أنا أبو زيد من بني هلال ومرادي أحارب البردويل فدعيه ينزل إلى حربي، فلما سمعت هذا الكلام أخذت تخبره عن حالها.

فلما رد عليها أبو زيد، استبشرت عليا بالخير والفرج ولكنها قالت له: أنا خائفة عليك من البردويل أن يذيقك الحرب الوبيل لأنه فارس ما له مثيل، قال أبو زيد: نبهيه أن يأتيني من دون إطالة كلام واليوم تنظرين فعالي والسلام، فعند ذلك توجهت عليا إلى البردويل، فرأته غارقاً في المنام فنبهته، فلما أفاق قصت عليه ما سمعت من الكلام وأخبرته عن قدوم البطل أبي زيد الصنديد وأنه عن قتله لا يحيد، فلما سمع كلامها من الأول إلى الآخر، فقام وقعد وأرغى وأزبد وقال لها بغضب: كيف أقلقتني وفي هذا الكلام أزعجتني؟!

وقال لها: لو كان غيرك ضربته بالحسام فكيف تخيفينني من فارس أو من مئة فارس أو من ألف فارس؟ فقالت له: ما كل الرجال رجال ولا الثعالب مثل أسد الدحال، فما زالت النساء تحبل وتلد فما على وجه الأرض شاطر، فلما سمع من عليا هذا الكلام، صار الضيا في عينيه ظلاماً، وصرخ صوتاً دوت له الجبال واهتزت من حوله التلال وقال لها: كفاك هذيان يا بنت اللئام وإلا قطعت رأسك بهذا الحسام فلما سمعه أبو زيد من خارج الدار صاح عليه بصوت مرعب قائلاً له: اسكت يا حمار وانزل إلى قتالي وإلا أهدم عليك القصر قبل أن يأتي وقت العصر، فلما سمع البردويل هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلاماً فقام لساعته ولبس آلة حربه وعدته وفرد على بدنه درعاً داوودياً مصفحاً وتقلد سيفاً كأنه البرق اللامع أو الموت الماحق، ووضع على جنبه طاقية الإخفاء ونادى على عبده مسعود وقال: شد لي جوادي، فشد عليه وأحضره إليه فوثب راكباً عليه وقال للعبد: افتح لي الباب ففتح العبد الباب وكان مصفحاً بالحديد وحصل أبو زيد على فرح ما عليه من مزيد وأخذ يقرأ آيات الله العظام ويقول: عونك يا رب الأنام، وحينئذ خرج البردويل مثل سبع كاسر أو أسد ظافر وأخذ يلاعب حصانه وكأنه فرخ جان أو من عفاريت سليمان، وناداه قائلاً: تعال يا أعرابي حتى أنظر ما مرادك ومن الذي إلينا قادك، فأخذت أبا

زيد الحمية الجاهلية والنخوة العربية وهجم عليه هجمة الأسود، فالتقى البطلان وكأنهما جبلان أو أسدان ضرغامان وعلت منهما الصيحات حتى ملأت الفلوات، فعندما رأى البردويل أنه تعبان من صدمات أبي زيد طلب سعفه من ملوك الجان وكان أبو زيد أثناء كلامه، رافعاً عينيه إلى السماء غير مكترث بل كان يقرأ الفاتحة ويذكر كلام الله، ثم التفت إلى البردويل فوجده لابساً الطاقية فقال له: أراك مضيعاً عقلك.

فاستشاط البردويل غضباً وغيظاً، فما عدت تسمع إلا صياحاً وهديراً ودمدمة في السن مختلفة، وكنت تسمع الصوت ولا ترى الزول، والبردويل لما وجد حاله مغلوباً ولم يقدر أن يختفي من قدام أبي زيد حيث أن الملائكة العلوية طردت ملوك الجان السفلية إلى سابع أرض وأبطلت عزيمتهم، ندم على ما فرط منه في حرب أبي زيد. وكانت عليا زوجة البردويل تتفرج من الشباك، فلما نظرت زوجها انقطع أمله وأبو زيد غلبه، فرحت وصارت تزغرد وتغني، فظن البردويل أن هذا الغناء لأجله ولم يعلم أنه لأجل عجزه وفشله، فأخذته الحماسة والنخوة وهجم على أبي زيد مثل النمر إذا خطر فتلقاه أبو زيد كما تتلقى الأرض العطشانة وابل المطر وعلا منهما الصياح حتى ملأ الروابي والبطاح، وصار الأمير أبو زيد يدور حول البردويل وهو مشرع سيفه الثقيل ورمحه الطويل، فحينئذ تيقن البردويل في ذهاب روحه وزوال سعادته، فرفع أبو زيد يده وقال: اللهم استر عبدك يا من رفعت السماء وبسطت الأرض، وضرب البردويل بالسيف على هامه، ألقى رأسه قدامه ووقع البردويل على الأرض يختلط طوله بالعرض، وحالاً نزل أبو زيد عن ظهر الجواد وسحب لسانه وأزال أسنانه وأخذ الطاقية والدرع والسيف والخوذة والرمح، والتفت إلى عليا وقال لها: الوداع، فقالت له: خذ هذه بدلة البردويل فأنت أحق بها من غيرك، لأنك قتلت هذا الشيطان، فأخذها أبو زيد وعلق الجميع في قربوس ابن الحيصا وأتى نحو باب القصر وختمه بختمه وركب على ظهر الجواد وقال: خاطرك يا ست عليا يا بنت الكرام، فأرجوك عندما تطلبين للشهادة تظهرين واقعة الحال وتتكلمي كما نظرت، فقالت: أرجوك أن تدخل القصر لترتاح ثم تتناول الطعام أيها البطل الدرغام فإنك تعبت من الحرب والكفاح، فقال الأمير أبو زيد: أنا لا أدخل الدار خوفاً عليك من العار؛ لأن كلام الناس أمر من ضرب السلاح، وأما أنت فأعطيني المفتاح لكي أقفل عليك القصر، حينئذ حققت عليا شهامته وعرفت نخوته فأعطته المفتاح، فأخذه وقفل باب القصر وعاد إلى بني هلال فوصل في نصف الليل ثم دخل إلى صيوان أم مخيمر فرآها تبكي، فقال لها: لماذا تبكين؟ الحمد لله على اجتماع شملنا، وقام ووضع ما أتى به من أمتعة البردويل في الصندوق وقيد نفسه بالقيد الذهبي وتظاهر بأن لا له ولا عليه،

هذا ما كان منه، وأما ما كان من الأمير حسن وهو في الديوان وحوله الأمراء والأعيان فقال: البارحة قد التهينا بالضيوف وتركنا أبا زيد وما عرفنا كيف حاله والبردويل ما عاد طلبنا للحرب فقوموا واذهبوا ودعوه يأتي حتى ننظر ما هو رأيه، فراح الأمير فايد وأخذ معه مفتاحاً ودخل على أبي زيد وقال له: قد أمر السلطان برفع القيد من رجليك وأن تذهب إليه، فقال أبو زيد: صار لي ثلاثة أيام ما رأيت أحداً منكم، نسيتم أبا زيد فقال الأمير فايد: والله يا أبو زيد ما نسيناك ولكن كان المانع من زيارتك وجود ضيوف عند الأمير حسن، ثم فك القيد من رجليه فقام أبو زيد وركب من دون سلاح وما حمل معه سوى عصاه وتوجه نحو الأمير حسن، فحين وصل إلى الخيام قاموا له وحيوه بأحسن تحية، ثم قال له الأمير: لا تؤاخذني يا ابن عمي فقد غفلنا عنك بمقابلة الضيوف، فقال أبو زيد: لا بأس ولكن ماذا عملتم من المصالح في حرب البردويل؟ فقال: نحن أرسلنا وراءك لنأخذ رأيك، فقال أبو زيد: والله إن البردويل فارس من الفرسان ولا أحد يقدر يحاربه فما أرى إلا أن ترسل له عشر المال والنوق والجمال والنساء والعيال ونذهب إليه والمحارم في رقابنا. فقال حسن: في هذا الوقت قد قلت الصواب وبارك الله فيك.

(قال الراوي) في صباح اليوم الثاني بعد قتل البردويل، أخذت الرعيان في تسريح المواشي حسب العادة، فسار منهم ثلاثة رعيان وسرحوا بقرب قصر البردويل، وكان لهم عادة ينامون في ظل القصر، فقبل أن يبلغوا المكان المقصود رأوا شخص البردويل على الثرى ممدوداً، وكان منهم عبد اسمه مسعود، قال لهم: مرادي أذهب إليه وأقول له: أنا أتيت بهذا الطرش من عند العرب، وأريد أن أعيش في ظلك، فقالوا: رأيك مناسب، فتوجه مسعود إلى أن وصل إلى قرب القصر، فرأى البردويل مقتولاً وعلى الثرى مغلولاً، فأخذه الرعب وصار يلتفت يميناً وشمالاً، فلم يجد أحداً، فقوى قلبه. وكانت عليا تنظر من الشباك، فصاح مسعود يا أصحاب القصر علام سيدكم قتيل وأنتم نيام؟ فطلت عليا من الشباك فسألها عن زوجها البردويل فأشارت تقول:

| | |
|---|---|
| تقول فتاة الحي عليا بما جرى | والنار جوا الحشا زادت إضرام |
| اسمع كلامي أيا مسعود وافتهم | ما أتى راع ولا قد جاء غلام |
| هذا بعلي البردويل بلا خفا | من أين أتاه السهم هل من الغمام |
| بان لي بأنك أنت غريمه | باين عليك أنت من فوارس عظام |
| افتخر بقتله بين الملوك | يبقى لك هيبة كما سبع أجام |

فلما فرغت الست عليا من نظامها ومسعود العبد يسمع نظامها، ظن أنه يخدعها

وقال: أنا الذي قتلته ومرادي آخذ رأسه إلى أميرنا حسن الهلالي وأفتخر في قتله على جميع العربان. فقالت: افعل ما تريد. فأخذ مسعود الرأس فربطه في مرسة وعلقه في كتفه وهو مسرور، وراح يترنم بقوله: ما كل العبيد عبيد ولا كل الموالي موالي، فلما رآه العبيد قالوا: ماذا عملت يا ابن الخالة؟ فأجاب: لقد قتلت البردويل وسأصير سيدكم ومولاكم، وها أنا آخذ رأسه إلى الأمير حسن وأنتم اشهدوا لي بذلك. فمشوا معه إلى النجع وشاعت الأخبار بأن مسعود العبد قتل البردويل، فعندها اجتمعت الناس ولاقوه بالأغاني والأفراح وأخذوا يثنون عليه، والعبيد حوله يغنون له الأغاني وينشدون النشائد، وهو حامل رأس البردويل على كتفه، حتى وصل إلى صيوان الأمير حسن ورمى الرأس قدام الصيوان، فخرج الأمير حسن والأمارة يتفرجون، وقد تعجب الجميع من مسعود البطل المعدود، فقال حسن: والله إن الذي أتى برأس البردويل هو بطل ما له مثيل وله مني الإنعام الجزيل، فوثب مسعود وقال: لعينيك يا سيدي عبدك مسعود أتى بالرأس وأخمد من ذلك الشقي الأنفاس، فقال الأمير حسن: من كان يقول إن منية البردويل على يد عبدنا مسعود، وقد كان هذا يخطف الأرواح ويتركها كالأشباح، وذقنا من حربه البلا والكرب وأنواع الذل والتعب، ثم سأله قائلاً: وكيف عملت في قتل البردويل؟ فقال: كنا في البر والجمال سارحة، فأخذتنا هجعة من النوم فنمنا ثم استيقظنا فلم نجد الحلال حولنا، ففتشنا عليه فوجدناه قد بلغ قصر البردويل، فتوجهت بنفسي لأرده فرآني البردويل ونهرني، فلم أرد عليه وتقدمت إلى الجمال لأردها، فأتاني وهو كالسبع الكاسر ورفع يده بالدبوس ورماني به، فراحت الضربة خائبة غير صائبة، فوضعت حجراً في مقلاعي وفعلت فعل داود في جالوت وأذقت البردويل الحسرات لأنه بالقضاء والقدر أتت الضربة بين عينيه، فخرج الدم يتدفق منه، وحالاً تقدمت إليه وطرحته على الأرض وسحبت السكين وقطعت رأسه وأخمدت أنفاسه، وجميع العبيد يشهدون لي بذلك، فقالت العبيد: نعم إنه قطع رأس ابن راشد أمامنا. فقال مسعود: أريد منك يا سيدي أن تجعلني سيداً على كافة العبيد وأن تزوجني ابنة بيضاء وأربع جواري سود وأن تعطيني جواداً من خواص الخيل وعدة حرب كاملة وألف دينار ومواشي وعبيد، وغلمان، فقال القاضي: تستاهل يا مسعود أزود من ذلك، فقال أبو زيد: كفاك يا عبد السوء هذيان أما تستحي إنك تقول قتلت البردويل أيها الهبيل؟ قال العبد: نعم وحياة رأسك ورأس الأمير حسن، فقال له: يا عبد السوء هل أنت أفرس مني ومن دياب؟ فقال مسعود: إن لكل إنسان منية، ومنية البردويل على يدي، فقال أبو زيد: في أي شيء قتله؟ فقال حسن: كيف ما كان قتله أما أراحنا منه؟ ربما كان يلعب في الميدان

وقنطر فيه الحصان ومسعود جز رأسه، فقام أبو زيد وفتح فم البردويل وقال: أظنه كان أخرس لأن ليس له لسان، فقام الجميع ونظروا ذلك وتعجبوا، فقال حسن: يا مسعود لما طلع البردويل ما كلمك، فقال: نعم كلمني وكان صوته مثل الرعد القاصف، فقال أبو زيد: أين طاقيته وسيفه ورمحه وبدلته وحصانه؟ وقد أخذت من أبي زيد الحدة وأنشد شعراً:

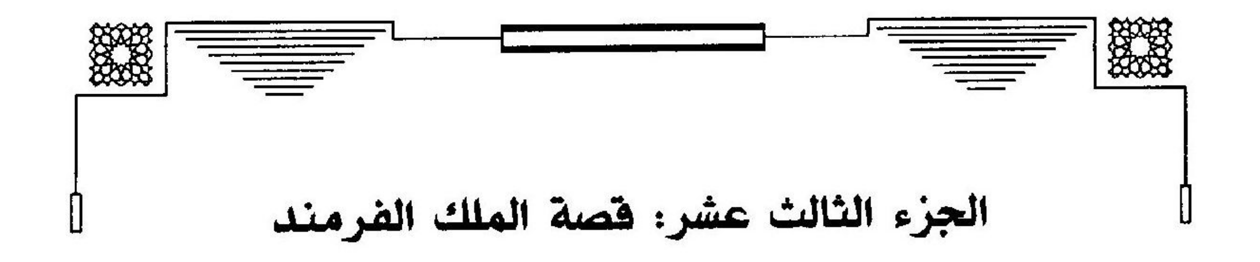
يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... وعزمي أمضى من سيوف ورماح
يا أمارا اسمعوا شرح قصتي ... واصغوا لقولي واتركوا الهزل ومزاح
وهذا العبد مسعود يضحك عليكم ... فأين عقولكم والفكر قد راح
أين لسان البردويل يا جماعة ... طوله شبرين يشبه الألواح
أين درع البردويل أين عدته ... أين رمحه ثم سيفه والسلاح
أين طاقية الأخفا وأين الحصان ... يطوي بسرعته برها وبطاح
ابن راشد كان خيالاً عظيم ... ما أحد يلقاه في وقت الكفاح
تحته أدهم مضمر يا حسن ... عندما يركض يسبق الرياح
كيف عبدك جاب رأس البردويل ... وما معه يا أمير سيف ولا رماح
إنما سيفي الذي قد قده ... ورمحي بين بزيه خش وراح
آلة الحرب شهود والجواد ... وكذا الطاقية والدرع الصفاح
اسألوا عليا زوجة البردويل ... فهي تنبيكم بأخبار الكفاح

ثم ركب جواده وسار إلى عند أم مخيبر وأتى بعدة البردويل والحصان والطاقية والسيف والرمح وكل ما كان عنده من أمتعة البردويل إلى صيوان حسن، ووضع الجميع أمام الأمراء، ثم رمى بلسان البردويل أمام دياب وقال له: تفرج على هذا اللسان، فبهتوا وتعجبوا من هذا الأمر، وأما مسعود العبد فحين نظر ما جرى صار ينسحب بحاله إلى أن هرب من الصيوان لعند الرعيان، وأما الأمراء فركبوا خيولهم وكانوا ألفي أمير من الفرسان المعدودة والرجال المشهورة وقالوا إلى أبي زيد: اركب معنا، فقال: أنا لا أريد حتى ينكشف لكم الخبر، فبادروا وفي أوائلهم الأمير حسن إلى قصر البردويل فوجدوه قصراً عالي البنيان مشيد الأركان، فتقدم حسن نحو باب القصر فوجدوه مختوماً بختم أبي زيد، فقال حسن: يا ترى هل يوجد أحد في هذا القصر؟ فما أتم كلامه إلا وعليا أشرفت من الشباك فشاهدت حسن وأمراء بني هلال، وكان للقصر باب صغير غير الذي قفله أبو زيد، فأتت عليا منه وأقبلت أمام الأمير حسن وقبلت يديه، فسألها عن قتل ابن راشد فحكت له ما جرى لأبي زيد معه وما فعل العبد مسعود بعد ذلك، فقال الأمير حسن: والله ما فعل هذه الفعال إلا أبا

زيد، ثم قال: وأين المفتاح؟ فقالت له: مع أبي زيد، وبينما هم في الحديث إذ أقبل أبو زيد راكباً على ابن الحيصا فعندما أقبل استقبلوه وحيوه وقالوا له: لله درك من بطل لا تخشى نوائب الأيام، وحينئذ تقدم أبو زيد وأخرج مفتاح الباب المصفح بالحديد وفتح لهم وأدخلهم إلى القصر. فتفرجوا على ما فيه من التحف والجواهر والأشياء الثمينة التي لا تقدر بقيمة، فحملوها لبيت مال المسلمين ورجعوا للديوان، أما قوم البردويل عندما علموا بموت مليكهم، ساروا إلى ابن أخته سعيد وكان نازلاً في أطراف العريش، فأخبروه بقتل خاله البردويل، فقال لهم سعيد: ما الرأي عندكم في بني هلال؟ فقالوا: إن بني هلال نجم سعدهم في صعود وأميرهم حسن الهلالي قد ارتقى إلى ما لا يرتقي غيره من درج المعالي، وإننا نشير عليك أن نركب جميعاً ونسير إليه ونقع بين يديه ونطلب منه أن يجلسك مكان خالك، فاستصوب سعيد كلامهم وسار معهم لعند الأمير حسن، فلما وصلوا طلبوا الإذن بالدخول على حسن، فدخلوا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وأخبروه عن حالهم فترحب بهم حسن غاية الترحيب، وأهدى الأمير سعيد خلعة سنية وحلة ملوكية ولبسه إياها وأجلسه مكان خاله، وعين عليه الجزية وكتبوا كتاب سعيد على السيدة عليا امرأة خاله البردويل، وتمتع بالحسن والجمال وبعد ذلك أمر بدق الطبول وأن يرحلوا من تلك التلال، فنشرت الرايات وركبت العماريات على الهوادج واعتلى الفرسان ظهور الخيول، وأخذوا يجدون السير حتى وصلوا إلى مصر القاهرة.







# الجزء الثالث عشر: قصة الملك الفرمند

(قال الراوي) كان في بلاد مصر ملك يقال له: الملك الفرمند بن متوج، وكان ملكاً عظيم الشأن يحكم على أبطال وفرسان يكل عن وصفها اللسان، ولما قتل بنو هلال البردويل وولوا مكانه ابن أخته سعيد، قاموا وتهيؤوا على الرحيل، ثم ساروا يقطعون كل سهل وبر، حتى وصلوا إلى مصر فنزلوا في تلك النواحي والأطراف ورعوا الزرع حتى حصدوه حصداً، وأما ما كان من فرمند ملك مصر فإنه رأى مناماً هائلاً، فقام مرعوباً فأحضر الرمال وأشار يخبره عن ذلك.

ففسر له الرمال منامه، ولما فرغ من كلامه اضطرب الفرمند اضطراباً عظيماً وهو في هذه الحال إذ دخل عليه المهلهل حاكم الصالحية وسلم عليه وبكى بين يديه وأشار يعلمه بواقعة الحال ويذكر قدوم بني هلال إلى تلك الأطلال.

عندئذ فهم الفرمند فحوى كلامه، اشتدت عليه المصائب، وخاف من العواقب فأحضر الوزراء والأعيان وعقد مجلساً بهذا الشأن. وبعد جلسة طويلة، استقر الرأي على أن يطلب منهم عشر المال والنوق والجمال، فإن أجابوه حصل المراد وإلا فإنه يبادرهم بالحرب والقتال.

ثم طوى الفرمند الكتاب وأعطاه إلى النجاب ليأخذه إلى السلطان ويأتيه بالجواب. فأخذه وسار وجد في قطع القفار حتى وصل إلى القوم في ذلك اليوم، فدخل على السلطان حسن وهو في الصيوان وكان عنده جملة من الأمراء والأعيان، فتقدم وسلم وناوله الكتاب ووقف بانتظار الجواب، فلما فتحه وقرأه وعرف معناه اغتاظ الغيض الشديد وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كل ما وصلنا إلى إقليم يبادرنا أميره بالتهديد ويطلب منا عشر المال أو الحرب والقتال، ثم أمر الخدام أن تأخذ الرسول إلى دار الضيافة وبعد ذلك قرأ الكتاب على أرباب الديوان واستشارهم، ، فقال أبو زيد: أرى من الصواب أيها الملك المهاب أن ترسل له الجواب وتوعده بإجراء الطلب وتطلب منه مهلة عشرة أيام لبينما نكون قد أخذنا الاستعداد التام للحرب والصدام، فاستحسن هذا الخطاب وكتب له الجواب.

وطوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى الرسول، فسار به إلى أن وصل الفرمند، فسلمه إياه ففتحه وقرأه وعرف رموزه ومعناه ففرح واستبشر وزال عنه الهم والكدر

وأيقن ببلوغ الأمل وظن أنه سينال ما يطلبه: المواشي والفضة والذهب، ولم يعلم أن دون هذا الطلب الهلاك والعطب، ولما مضى الوقت المعين ولم يقف على إفادة من السلطان، نما غيظه وزاد عليه الحال، وكتب للسلطان حسن يطلب منه عشر المال بخطاب وأعطاه إلى نجاب وأمره أن يسير به إلى السلطان ويأتيه بالجواب، فأخذه وسار وجد في قطع القفار حتى وصل لبني هلال، فدخل على السلطان حسن وسلم وبأفصح لسان تكلم وأعطاه الكتاب وطلب منه الجواب، فلما قرأه وعرف فحواه التفت إلى من حوله من الأمراء والأعيان وأعلمهم بما كتب الفرمند وقال: ما رأيكم في هذا الشأن؟ فقال أبو زيد للنجاب: سر بأمان وقل لمولاك بأنه في هذا النهار ينال المطلوب. ففرح النجاب بهذا الخبر ورجع وأخبر مولاه بما سمع، ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر. وبعد ذهاب النجاب قال السلطان حسن إلى أبي زيد: على ماذا عولت أن تفعل يا أبا الحيل؟ قال: مرادي أن أحتال على الفرمند بحيلة يكون ما سبقني إليها أحد، وهي أن أختار أربعين بنتاً من بنات العرب ومن جملتهن الجازية أم محمد وأحضر أربعين صندوقاً يكون كل صندوق من طبقتين، فأجعل الطبقة الأولى للقماش والحرير والطبقة الثانية للفرسان المغاوير، ونحملهم على ظهور الجمال وأركب أنا مع البنات والأحمال ونسير إلى الفرمند على سبيل تقديم المال وندخل السرايا وهو لا يعلم بهذا الحال، حتى إذا وصلنا إلى هناك، احتلنا عليه وبنجناه وبلغنا منه ما نتمناه، ونهبنا ما في قصره من الأموال، ثم ارتحلنا بالحريم والعيال من هذه الأطلال، وليس لنا غير هذا التدبير. فلما انتهى أبو زيد من هذا الخطاب، التفت إليه دياب وقال له: ليس هذا الرأي بصواب، لأننا نخاف أن ينكشف الحال، والرأي عندي أن نبادرهم بالقتال ونشغل فيهم ضرب السيوف والنصال، فتعهد أبو زيد أمام السادات في النساء والبنات وأنه يرجعهن سالمات، فقال له السلطان حسن: افعل ما تريد أيها الفارس الصنديد.

فعند ذلك تجهزت البنات في الحال وفعل أبو زيد كما قال. وكان بين هذه البنات وطفا بنت أبي زيد وبنت القاضي بدير والست ريما وبدر النعام وجوهرة العقول وسعد الرجا، ولبس أبو زيد فرواً من جلد الثعالب والذئاب وتقلد بالسيف من تحت الثياب وأرخى له سوالف طوالاً ومسك بزمام ناقة الجازية أم محمد، فتعجبوا من أفعاله وقال له السلطان حسن: لله درك على هذه الحيلة التي لم يسبقك إليها أحد، ثم جعل يوصيه بالبنات، فودعهم وسار بمن معه من البنات والصناديق ومن داخلهن الأقمشة الحسان والأبطال والفرسان، حتى دخل المدينة وطلع قصر الفرمند، فوجده مزيناً بأحسن الزينة، وكان الفرمند قد بلغه قدومهم فالتقاهم بالترحاب والإكرام، فسلمت البنات عليه وجلسن حواليه، فقال: أهلاً بالكواكب والأحباب،

وكان أبو زيد أمام الجميع وهو يرقص ويلعب ويضحك ويطرب، وهو بالصفة التي وصفناها، فسأل الفرمند البنات من يكون هذا الإنسان؟ فقلن: هذا مهرج يزيل الغموم، فانْسرَّ غاية السرور وسأله عن اسمه قال: اسمي قشمر بن منصور، قال: مثلك من يصلح لمسامرة الملوك لما فيك من الحركات وحسن السلوك، فاملأ لي هذا الكأس حتى يزول عني البأس، فملأه وناوله إياه فأخذه منه وظن أنه بلغ المراد، ولم يعلم أن دون ذلك خرط العتاد، فعند ذلك غنت البنات ودقت على الآلات حتى كاد يرقص القصر ويطير من شدة الطرب والفرح، وكان الملك وقعت عيناه على الجازية، فهام بها وتعلقت نفسه فيها لأنها جميلة المنظر ولطيفة المحضر، فأجلسها بجانبه، وسأل أبو زيد من تكون هذه الحسناء؟ فقال: هذه الجازية أخت الأمير حسن، فالتفت إليها وقال لها: غني لي على هذه الكاس يا صبية فإن قلبي إليك مال، فأجابته إلى مقاله وأخذت تغني له بهذه الأبيات:

تقول الجازية من قلب جريح — فنحن اليوم قد جئنا هدية
هدية من أبي مرعي الهلالي — أمير في البوادي والرعية
أيا حيف الفلا يأتي بلادي — ونجد يا ملك أرض عدية
نشف ماؤها وقل الخير منها — وصارت مقفرة أرضا رزية
رحلنا نبتغي أرض المغارب — أنا في هودجي وسط الخبية
جئنا لمصر صرنا لك حلائل — ولا عاد في رواح ولا مجية

فلما فرغت الجازية من كلامها طرب الفرمند من نظامها وأشار يقول:

ألا يا جازية حني عليا — فعقلي راح كله بالسوية
ألا يا مرحباً فيكم جميعاً — وزال الشر عنكم والرزية
ألا يا جازية حسنك سباني — ومثلك ما رأينا في البرية
فعيناك كما عين الغزالة — حواجبك مثل قوس منحنية
مقالات الفتى فرمند صادق — ونيراناً بقلبي مصطلية

فلما فرغ الفرمند من كلامه، شرب الكأس على اسمها وهو يتأمل في محاسنها وبياض جسمها، ثم أمر قشمر أن يملأ له كأساً آخر، فملأه وناوله إياه فأخذه وتقدم إلى وطفا بنت الأمير دياب وقال لها: غني لي على هذا الكأس يا بنت الأمجاد، فغنت.

فلما فرغت من الغناء انشرح الفرمند وشرب الكأس على اسمها وأعطاه لقشمر فملأه وقد زاد عشقه وهواه ثم سأل جمال الظعن من تكونين يا ربة الحسن؟ قالت: أنا بنت أبو زيد قال: أنت بغية المراد وأنا أسأل رب العباد أن يرزقني منك بولد يكون مثل جده الأسد ثم قال لها: بحياة رأسي أن تغني لي على كأسي فأخذت

تسقيه الخمر بيدها، وغنت له فطرب طرباً عظيماً، ومن كثر ما سقته بيدها من المدام ما عاد يميز بين النور والظلام، ثم إنه صرف الأغوات والخدام حتى لا يكون أحد في هذا المقام، وبعد ذلك سقته كأساً آخر على اسمها وشكرها على نظامها، ثم أعطتها لقشمر ليملأه فملأه وأعطاه إياه، فجلس أمام نجلا ثم جلس أمام جميع البنات الأبكار وهن ينشدنه الأشعار وهو يشرب العقار، حتى غاب عن الوجود وصار بصفة مفقود، فعند ذلك بنجه أبو زيد ونزع ما كان عليه من الثياب ولفه بحرام، ثم فتح الصناديق فخرجت الأبطال مثل الأسود، فنهبوا ما في القصر من الأموال والتحف الغوال ولم يتركوا شيئاً في القصر إلا أخذوه، وكانت وطفا قد أخذت خاتم الفرمند، ولو أرادوا قتله لقتلوه وأسقوه كأس الحمام، وساروا حتى وصلوا إلى باب البلد فاعترضهم الحارس، فأرته وطفا خاتم الفرمند وقالوا: نحن من جملة الخدام قاصدين الآن أهلنا لأجل المنام، فعند ذلك فتح لهم الباب، ولم يعرف حقيقة الأسباب، فساروا وقد استبشروا بالفوز والنجاح إلى أن وصلوا إلى بني هلال، ففرحوا بقدومهم، ودخل أبو زيد على الأمير حسن فالتقاه بالترحاب والإكرام وسأله عما فعل فأجابه يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى أبو زيد الهلالي | يابو علي جبت البنات وجيت |
| وجبت لك مال كثير وعدة | تحف وجواهر يا ملك عبيت |
| وجبت معادن مع سيوف مسقطة | وديباج مع كتان لك شديت |
| دخلت إلى قصر الملك يابو علي | وأركانه يا أمير لك هديت |
| رقصت للملك وطيبت خاطره | ومن بعد ذلك كاسه سقيت |
| انقلب فرمند على الأرض واقع | فقمت أنا من ساعتي فزيت |
| جئنا بعون الله يا أمير كلنا | فلا تحسبوني نمت وانسريت |
| وجبت البنات والأموال جميعها | وهذه فعالي والذي سويت |
| قول أبو زيد الهلالي سلامة | وقط يوم الروع ما ذليت |

فلما انتهى أبو زيد من كلامه، قالوا: الأرفق لنا أن نرحل قبل أن تدهمنا الأبطال والفرسان، فأمر حسن بدق الطبول للارتحال، فدقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتحلوا من تلك الأطلال بالحريم والعيال حتى ابتعدوا مسافة يومين عن البلد خوفاً من أمر يتجدد، وكان الأمير دياب وزيدان في أول الظعن. أما وزراء الفرمند وأكابر الأعيان فإنهم استبطؤوا حضور ملكهم إلى الديوان، فلما فات الوقت ولم يحضر، أخذهم القلق والضجر وقالوا: لا بد لهذه العاقة من سبب، وكان له ابن أخت اسمه محمود الغضنفر وكان وزيره الأكبر وقائد العسكر، فصعد إلى القصر في جماعة من الحجاب ودخل إلى القاعة فوجدها خالية ووجد خاله ملفوفاً بالحرام

ومطروحاً على الأرض، فغاب عن الصواب واستعظم هذا المصاب فأرسل وأحضر أرباب الديوان، فلما نظروا ملكهم على هذا الحال، اعتراهم الانذهال، ثم أعطاه ضد البنج فعطس ورأى نفسه ملفوفاً في ذلك الحرام وهو في حالة الذل والهوان، ولم يجد البنات والنسوان، فزاد مصابه وعظم اكتئابه وأتوه بحلة من أفخر الحلل فلبسها وقد اعتراه الخجل لما رأى نفسه على تلك الحال وهو بين الوزراء والسادات، ثم أخبرهم بواقعة الحال وطلب منهم أن يكونوا مستعدين للحرب والقتال.

وهكذا استعظموا الأمور ودقت طبول الحرب واجتمعت الفرسان والأبطال، وكانت مائتي ألف مقاتل فركبوا واستعدوا للقتال وركب محمود في مقدمة الجنود، فقال له الفرمند: اتبع بني هلال الأنذال وامنعهم عن الارتحال بضرب السيف والنصال وأنا أتبعك بباقي الرجال، فسار الوزير بالفرسان والأبطال وراء بني هلال حتى أدركوهم. فلما رأت بنو هلال العساكر المصرية قد أقبلت، استعدوا للحرب والقتال وركبت الفرسان والأبطال وخرج الوزير محمود من بين الأبطال، فصال وجال في ساحة المجال وطلب مبارزة الفرسان والأبطال، وقال لهم: هل من مبارز هل من مناجز فلا يبرز لي كسلان ولا عاجز اليوم يوم الهزاهز، فنزل إليه أبو زيد فالتقاه الوزير بالعجل وهجم عليه وحمل، وأخذا في الطعن والصدام والمهاجمة والإقدام والمفارقة والالتزام، واستمرا على تلك الحال إلى وقت الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال، فافترقا على سلامة، وعند رجوع أبي زيد إلى الخيام، سأله الأمير حسن على خصمه فقال: هو بطل همام وليث درغام، فقال الأمير حسن: لا بد من ثاني الأيام أن نهجم عليه بالمواكب؛ لأن الحريم والعيال سبقونا مع الأمير دياب، وفي ثاني الأيام استعدت العساكر للحرب والصدام، وتطاعنوا بالرماح والقواضب وما زال السيف يعمل والدم يبذل والرجال تقتل إلى الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال، فارتدت عن بعضها الأبطال واستمر الحال كذلك مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع انكسرت عساكر الوزير ولم يعد لها أدنى ثبات، فولت جوانب البراري والفلوات، واتفق لها في ذلك اليوم قدوم الفرمند بباقي الجند، فلما أشرف إلى ذلك المكان ورأى ما جرى، فاغتاظ وحمل على بني هلال بمن معه من العساكر.

وكانت العساكر المنكسرة، لما رأت جماعتها ظافرة، ارتدت إلى معركة الصدام وقاتلت بعد ذلك الانهزام، وكان الملك الفرمند قد التقى بالأمير حسن في ساحة الميدان وهو ينخي الفرسان، فتقدم إليه وهجم عليه، فالتقاه حسن بالعجل وتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف حتى اختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الفرمند، فراحت خائبة بعد ما كانت صائبة، وأما ضربة حسن فالتقاها الفرمند في

درقة البولاد، فسقطت على رقبة الجواد فبرتها، فوقع الفرمند على الأرض، فعند ذلك هجمت فرسانه مثل سيل المطر وخلصوه من الخطر، وفي الحال التقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وتقاتلوا إلى الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فافترقت العساكر عن بعضها ونزلت كل طائفة في أرضها، ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، جمع الأمير حسن أكابر الديوان وقال لهم: مرادي الآن أستدعي الأمير دياب ليساعدنا على الحرب والطعان، وإلا طال الحال وقتلت الفرسان، فاستصوبوا رأيه وقالوا: اكتب إليه، فعند ذلك كتب إليه يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي | ونيران قلبي زايدات لهاب |
| على ما جرى فينا وما أصابنا | وصرنا بحيرة والأمور صعاب |
| أيا غادياً مني على متن ضامر | فقل إلى الزغبي الأمير دياب |
| أتونا جموع كالجراد كثيرة | قروم شداد مثل سيل سحاب |
| نزل إلى الميدان فرمند وانتخى | وقال أين الفرسان أين الأنجاب |
| فأين المسمى الأمير سلامة | وأين حسن ثم الأمير دياب |
| فقلت له لبيك يا فارس الوغى | ونزلت أنا لحربه ما حسبت حساب |
| ضربته بالقرضاب يا أمير ضربة | قتلت جواده وكاد هو ينصاب |
| والتقى الجيشان في ساحة الوغى | ويا ما قتلنا من شيوخ وشباب |

فلما انتهى الأمير حسن من هذا الخطاب، ختمه وسلمه إلى النجاب وأمره أن يسير به إلى دياب ويعود بالجواب، فامتثل وسار حتى وصل إلى دياب، فسلمه الجواب وطلب منه رده، فلما فتحه وقرأه وعرف ما حواه، أمر بدق الطبول فدقت في الحال وأقبلت إليه الفرسان والأبطال، فأعلمهم بجلية الأحوال وقال لهم: استعدوا لمساعدة بني هلال قبل أن يحل بكم الوبال وتسبى الحريم والعيال، فلما سمعوا منه هذا الخطاب تحمست جميع الكهال والشباب، وركبوا في ساعة الحال وفي مقدمتهم البطل دياب ليث الغاب والبطل زيدان شيخ الشباب، حتى أشرفوا على بني هلال فالتقوهم بالإكرام والترحاب وشكروهم على ذلك الاهتمام، وفي ثاني الأيام ركبت الأبطال والفرسان وطلبت معركة الطعان، وكان أول من برز إلى ساحة الميدان الوزير محمود ابن أخت الفرمند، ولما صار في ساحة المجال قال: هيا يا بني هلال أين فوارسكم المشهورة أين أبطالكم المذكورة أين الأمير دياب الذي تلقبوه بليث الغاب؟ فما أتم كلامه حتى صار دياب أمامه، فعند ذلك أشار يهدده فرد عليه دياب وانطبق على خصمه مثل صاعقة الغمام والتقاه الوزير كسبع الآجام وأخذا في العراك والصدام، وما زالا في قتال شديد وضرب يشيب الطفل الوليد نحو ساعة من النهار،

وقد اختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الأمير دياب ليث الغاب، فجاءت الضربة على رأس الوزير فوقع على الأرض ومات، فلما رأت العساكر ما حل بوزيرها، انقضوا على بني هلال مثل الصقور وأحاطوا بهم من اليمين واليسار، فالتقتهم بنو هلال وتقاتلوا أشد قتال حتى جرى الدم وسال وعظمت الأهوال، وما زالوا على تلك الحال إلى وقت الزوال، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت العساكر عن ساحة المجال.

أما الفرمند فإنه بات مشغول البال على ما فقد منه من الرجال ولاسيما قتل محمود ابن أخته، فما طلع الصباح، حتى برز إلى ساحة الكفاح كأنه ليث البطاح، ثم صال وجال في ساحة المجال وقال: لا يبرز لي من الأبطال غير أبي زيد، فما أتم كلامه حتى صار أبو زيد قدامه، وانطبق عليه بقلب أشد من الحديد وأخذ معه في الحرب فالتقاه الفرمند بقلب كالجبال، فثبت أبو زيد لقتاله، وما زالا في الحرب والصدام مدة عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر ظفر به أبو زيد، فهجم عليه هجمة جبار وضربه على عنقه بالسيف البتار وإذا برأسه قد طار. فلما رأى قومه تلك الأحوال خابت منهم الآمال وأيقنوا بالهلاك والوبال واجتهدوا أن يخلصوا جثة ملكهم فما قدروا. وانحلت عزائمهم وتأخروا ورجعوا إلى مصر وهم على أسوأ حال لا يعرفون اليمين من الشمال، فتبعهم بنو هلال وفي مقدمتهم أبو زيد ودياب وزيدان أبو الشباب وحكموا فيهم ضرب السيف القرضاب على الأجسام والرقاب حتى دخلوا البلد وهي في حالة الذل والنكد، فلما رأت أكابر المدينة والأعيان ما جرى وكيف أن الفرمند شرب كأس الهوان، خرجوا إلى عند السلطان حسن بن سرحان وطلبوا منه العفو والأمان فأجابهم إلى ذلك الشأن وأوصى الأبطال والفرسان أن لا ينهبوا شيئاً من أمتعة المدينة لا رخيصة ولا ثمينة، وأن يكونوا في هدوء واحتشام إكراماً لمزارات الأولياء والعلماء، وكان للفرمند ولد مقتدر اسمه الأمير منذر، فولاه مقام أبيه بحضور أكابر البلد والذوات بعد أن أوصاه أن يتصرف بحسن السلوك ويتخلق بأخلاق الملوك، ثم قامت الأفراح وزالت الهموم والأتراح ورقص الشباب رقصات عربية وهم يحملون السيوف الهندية، وكان السلطان حسن قد استحسن مصر كل الاستحسان نظراً لكبرها وما فيها من الأبنية الحسان، فصمم أن يبني له فيها جامعاً ليكون ذكراً له على طول الزمان، فأمر البنائين والمهندسين ببناء الجامع المذكور في ظرف ستة شهور، فأجابوه إلى ذلك المرام وبعد أن تم، أمر أن يفرشوه بنفيس الفرش وينقشوا حيطانه بأحسن النقوش، فامتثلوا أمره وفعلوا كما قال، فكان جامعاً عظيم المثال وكان مكتوباً على بابه بماء الذهب هذا جامع الأمير حسن الهلالي سيد العرب.

## الجزء الرابع عشر:

# غريق بني هلال في أرض المخاضة

وبعد ذلك أمر الأمير حسن بهد المضارب والخيام وركبت الأبطال ظهور الخيل والجمال وساروا بالنساء والعيال أمام الفرسان والأبطال قاصدين بلاد العرب والماضي بن مقرب، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى مكان يقال له: المخاضة. وكان الماء مغدراً في السهول والبساتين والحقول، وكان الأمير زيدان والنساء والعيال سائرين أمام الفرسان والأبطال وكان أبو زيد خلف الجميع، فعند وصولهم إلى هذا المكان تضعضعت الرجال والنساء، فوقعت الأحمال عن ظهور الجمال وصاحت النساء وصرخت الأطفال خوفاً من الغرق، فلما شاهد الأمير حسن تلك الحال، خاف على الحريم والعيال وأيقن بالهلاك والوبال، فسأل عن أبي زيد قالوا: هو مع عمه حسن الجعبري في آخر الظعن مع حريمه وعياله، فأرسل واستدعاه إليه، فقال له: قد اشتدت علينا المحن وأنا خايف على الحريم والعيال من الغريق وقال شعراً أجابه أبو زيد بمثله.

فلما انتهى أبو زيد من مقاله، قالوا له: نجي يا أبا زيد العربان من الغرق والطوفان فلكز الحصان وبين لهم طريق الأمان لأنه كان يعرف المكان، وكان أول من عبر الجازية وعليا زوجة الأمير أبي زيد، فاتفق أن الهجن قد تزاحمت حتى كادت النساء تقع على الأرض، فتشاتمت الجازية وعليا بالكلام وتخاصمتا أشد خصام وكانت الجازية ازدرت فيها وتكلمت معها كلاماً لا يرضيها، فاغتاظت عليا من الكلام ورجعت إلى الوراء وأعلمت أباها غانم بما جرى.

فلما فرغت عليا من قولها وفهم أبوها فحوى كلامها، اغتاظ الغيظ الشديد الذي ما عليه من مزيد، وعلم أن هذا كان من الجازية عدواً وافتراءً وأمر عربه في الحال أن ترد الظعن وترجع إلى الوراء، فامتثلوا أمره في الحال ورجفت العربان بالنوق والجمال، فلما رأى أبو زيد الظعون راجعة، اندهش وتعجب وسأل عن السبب، فقالوا: هذا ظعن عمك حسن مراده يرجع بالحريم والعيال، فلما سمع أبو زيد هذا الكلام، صار الضياء في عينيه كالظلام، ثم قصد عمه وقال له: لماذا أنت راجع إلى الوراء؟ فبكى عمه وأنشد يقول:

قال الأمير الجعبري بما جرى ... العرض مني هتك بين الملا

اسمع كلامي يا أمير سلامة — النار في قلبي تهب وتشعلا
عند المخاضة اجتمعت نساؤكم — وبناتكم فوق الهوادج تنجلا
فتزاحمت عليا وجازية المها — عند الخروج من المخاضة للفلا
شتمت لعليا الجازية بكلامها — وزادت عليها بالمصائب والبلا
قالت لها عليا ما هذا الأمل — منك أيا بنت سرحان العلا
أنا زوجة أبو زيد الفتى — هو ابن عمك في الرجال مكملا
قالت فروحي يا عشيقة عبدنا — سأقطع الرأس ما أخاف من الملا
زادت على عليا كلام يغيظها — كسرت لحرمتها انتني ترفلا
فبكت وشكت ثم قالت ارتجع — فرديت ظعني يا سلامة عاجلا

فلما فرغ حسن الجعبري من كلامه وفهم أبو زيد فحوى شعره ونظامه، كان ذلك عليه أقوى من ضرب السيف، ولكنه أخفى الكمد وأظهر الصبر والجلد وقال له: اعلم أيها العم المحترم أنه ليس على كل النساء ارتباط، والتفت إلى زوجته وقال: أعلميني بما جرى بينك وبين الجازية من النفور والخصام، فأعلمته بواقعة الحال وكيف شتمتها بدون سبب وجعلتها معيرة بين نساء العرب، فقال: اخزي الشيطان وقومي بنا حتى نرجع الآن، قالت: إذا رجع أبي رجعت أنا، فجعل يتلطف بخاطر عمه ويطلب منه الرجوع، فقال: كلامك على العين والراس إلا في هذا، فإنه غير مقبول إلا بشرط أن تقطع رأس الجازية وتعدمها الحياة، فعند ذلك أرجع وأكون قد بلغت ما أتمناه، فقال: أبشر بما طلبت يا عماه، فعند ذلك رجع أبو زيد والسيف بيده ودخل على الأمير حسن وهو في الصيوان وحوله الأمراء والأعيان، فسلم عليه وهو عابس، فقال له السلطان حسن: علامك يا زين الفوارس فإني أراك غضبان، فأعلمه بما جرى ثم قال له: مرادي أقتل الجازية بحد الحسام على ما بدا منها من كلام الذم والافتراء وحدثه بما فعلت من الأول إلى الآخر، فقال السلطان: دع عنك كلام النسوان وقم بنا الآن حتى نستعطف بخاطر عمك ونعود، فأجابه إلى ذلك المرام وركب هو وإياه وعند وصولهما المضارب والخيام، استقبلهما حسن الجعبري بالترحاب والإكرام، فأخذ حسن يستعطف خاطره ويقول له: ارجع يا ابن الكرام ودع عنك كلام النسوان ولا تشمت بنا الأعداء في هذا المكان لأننا غرباء الأوطان ولا يجوز أن نختلف في هذا المكان. فقال: وحق الواحد الأحد لا أرجع إلا برأس الجازية، فقال: أبشر مما طلبت فإني أبلغك القصد والأمل، فعند ذلك رجع معهما ولما بلغ الجازية هذا الخبر، أخذها القلق والضجر وخافت من الخطر، فسارت إلى عند القاضي بدير وترامت على قدميه وقالت: أنا في جيرتك لأنك كهف الأنام ومن

يلتجئ إليك فلا يضام، فقال لها: أبشري بالسلامة والخير فقد صرت في جوار القاضي بدير، ثم أخذها إلى عند الحريم، وزادها في التكريم والتعظيم لأنها من أشرف نساء العربان وهي أخت الأمير حسن عظيم الشأن، وبينما هو كذلك أقبل الأمير حسن وأبو زيد فالتقاهما بالبشاشة والترحاب وأخذ معهما في الحديث والخطاب، وقال لهما: مالكما متكدران، فأعلماه بذلك الشأن وأن مرادهما قتل الجازية، فقال: نفسي فداها فكيف يمكنني أن أسلمكم إياها وقد دخلت داري وصارت في زمامي، فهذا لا يصير ولو شربت كأس حمامي، فقال أبو زيد: لا بد من قتلها على وقاحتها وفعلها، فقال: من الصواب أيها الأحباب أن تحضر علينا والجازية للمحاكمة والاستنطاق فالتي تكون مذنبة منهما تستوجب العقاب ولا يعود يلومنا أحد من الناس، وهكذا استقر الحال، ورجع مع ابنته عليا إلى الديوان، وكذلك حضرت الجازية فجلست خلف الستار خوفاً من أن يقتلها أبو زيد، فعند ذلك سألها القاضي عن سبب إهانتها لعليا وما هو الداعي الموجب لذلك المقال الذي يورث القيل والقال، فأنكرت الجازية أمام الحاضرين بأنها ما قالت لها كلاماً يغيظ ولا يهين، بل كان كلامها على سبيل العتاب كما جرت عادة الأحباب، فالتفت إلى عليا وقال: يظهر من هذا المقال بأن الجازية لم تتكلم في حقك بشيء يورث القيل والقال، فإن كان معك شهود فأحضريهم ليشهدوا عليها، فذهبت عليا إلى البنات اللواتي كن في ذلك الوقت حواليها وطلبت منهن أن يحضرن معها للديوان فقلن: نحن لا نذهب معك ولا نترك الجازية ونتبعك، فعادت عليا وأعلمت القاضي بذلك الخبر فقال: إن الجازية بريئة ليس عليها أدنى حق ثم دخلت الجازية لعند الحريم ورجعت عليا لعند أبيها وهي في غم عظيم فلما رآها أبو زيد راجعه فراح يترنم ببعض الشعر.

ثم ركب ظهر الجواد وقال: لقد مللت من الحرب وليس لي حاجة إلى بلاد الغرب، فرأته الأمراء والفرسان قد رجع إلى الوراء، فازدادوا غماً وكدراً واستعظموا الحال، وعلموا أنهم بدونه لا ينفعون في القتال، فعند ذلك تقدم الأمير زيدان وقال للسادات: نحن والله بدون أبي زيد لا نقدر على عمل حيلة ولولاه ما كنا قطعنا كل هذه المسافة الطويلة.

فلما فرغ زيدان من كلامه وسمعه الأمير حسن وباقي الأمراء، قالوا: لقد تكلمت بالصواب لأن أبا زيد سيفنا الصقيل ورمحنا الطويل، ثم ركب الأمير حسن مع جماعة من الأبطال وسار إلى عند حسن الجعبري فالتقاه بالتعظيم والاحترام وأكرمه كل الإكرام، فقال له الأمير حسن: إن كان مرادك أن ترجع إلى بلادك، فدع

أبا زيد يوصلنا إلى بلاد الغرب ولا تشتت شملنا ثم أشار يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي | ولي قلب بين الجوانح طار |
| يا أمير قد جيناك نرجو لهمتك | أيا ليت عمرك أطول الأعمار |
| فأولادنا بالقيروان وقابس | رهاين وهم في قلعة وحصار |
| نريدك ترد أبو زيد يا ملك | يدلنا للقيروان جهار |
| فادخل عليه لا بد يقبل عزيمتك | يا برمكي يا مكرم الخطار |
| حتى نروح إلى البلاد نجيبهم | ونجعل بلاد القيروان دمار |
| فقلبي على مرعي قد ذاب وانكوى | وشبت بقلبي والضمائر نار |
| علشان مرعي هنت حالي وجيتكم | وأتوك هلال كبارهم وصغار |

فلما فرغ الأمير حسن من شعره ونظامه وفهم حسن الجعبري فحوى كلامه، قال: أنا لا بد لي من الرجوع إلى دياري، ثم إنه التفت إلى أبي زيد وقال: بحياتي أن ترجع إلى قومك بني هلال وتذهب معهم إلى بلاد الغرب، فقال: سمعاً وطاعة، ثم ودع زوجته وعمه ورجع، وكان قد تأثر على فراق عليا لأنها كانت عزيزة عليه، فعز عليه الفراق واشتد عليه الحزن، فاجتمعت الأمراء والأعيان ودخلوا على الأمير حسن في الصيوان وقالوا له: إن أبا زيد كثير القلق والغم فمن الصواب أن يتزوج فتزول عنه الشدة ويحصل على الفرح، فصار كل واحد منهم يقول: أنا أزوجه ابنتي ثم جمعوا بنات أمراء القبيلة وزينوهن بأحسن زينة وكان من جملتهن بنت الأمير دياب وبنت الأمير حسن وبنت الرياشي وبنت عرندس وبنت الليث الكندي وبنت القاضي بدير والجازية أم محمد التي بسببها حصل النزاع والنكد، وأحضروهن أمام أبي زيد وأوقفوهن بين يديه وقالوا له: اختر لك واحدة منهن زوجة لك عوضاً عن عليا، فإن كل واحدة منهم أجمل منها وأحلى، فلم يرض ولم يقبل أي واحدة منهن، ثم تقدمت الجازية بين يديه وعرضت نفسها عليه، وكان كما تقدم عنها الخبر جميلة المنظر ومحبوبة من جميع البشر، فقال لها: ارجعي وإلا جعلتك بسيفي قطعتين، فاغتاظت من هذا الكلام وكانت تظن أن تتزوج به وتبلغ المرام، ثم خرجت هي والبنات إلى المضارب والأبيات.

□□□□□



# ديوان الماضي بن مقرب

في اليوم الثاني عبرت بنو هلال نهر النيل، وما زالوا يقطعون البراري حتى وصلوا إلى بلاد الصعيد، وكان الحاكم عليها في تلك الأيام رجل صاحب قدر ومقام وفضل واحترام، اسمه الماضي بن مقرب، وكان صاحب حسب ونسب وأصله من بلاد العرب، وكانت إقامته في بلاد نجد العدية إلى أن تملكها بنو هلال بالقوة الجبرية، وقتلوا ملكها الهيدبي بن عطية واستوطنوا فيها، فاصطحب الماضي مع الأمير حسن وسادات بني هلال، غير أنه لكثرة الرجال وازدحام المراعي والجمال ارتحل الماضي من تلك الأرض وسار بأهله وعياله إلى بلاد الصعيد وسكن فيها، وكان يملكها رجل جبار يقال له: نصار، فائتلف مع الماضي أشد ائتلاف وجعله نائبه في تلك البلاد وشاركه في ماله ونعمته، وبعد موت الملك نصار تسلطن الماضي على الديار وكان محبوباً من الكبار والصغار، فلما وصلت بنو هلال إلى تلك الديار التقاهم بالترحاب والاحترام وأجلسهم في أعز مقام وذبح لهم الطيور والأغنام، فشكرته الأمراء على حسن اهتمامه ثم أخذهم إلى أبياته فأقام الأمير حسن في ضيافته مع أهله وسادات عشيرته مدة عشرة أيام في الإعزاز والإكرام وشرب مدام وأكل طعام، ثم تفرقوا في بلاد الصعيد وانتشروا في البيد وهم في سرور وأفراح وبسط وانشراح، فاتفق في بعض الأيام بينما كان الماضي جالساً على الطعام، قال له أحد الأعوان: اعلم يا ملك الزمان قد بلغني من بعض النسوان أنه يوجد في بني هلال امرأة بديعة الجمال عديمة المثال في الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال لا يوجد مثلها في الخلق، لا في الشرق ولا في الغرب، واسمها الجازية، كأنها الشمس الضاحية، إن خطبتها منهم حصلت على السرور والأفراح لأن طلعتها تنعش الصدور والأرواح، فقال الماضي: إن طلبناها منهم يقولوا الماضي يريد حق ضيافته منا بنتاً من بناتنا، فقال الوزير: يا ملك الزمان بين الناس ما هو عيب والذي يتقرب من الناس خير من الذي يبتعد عنهم، فقال بعض الوزراء: لقد سمعت أنا أيضاً بخبر هذه الصبية وما فيها من المحاسن البهية، ولكن اعلم أنهم لا يزوجونها بأحد ولو كان من الملوك، فإذا كان لا بد لك أيها الملك من ذلك فاطلب أولاً الخضرا فرس دياب التي لا يوجد مثلها في جميع المماليك وأنا أعلم أنه لا يعطيها

لأن نفسه معلقة فيها، وبهذه الحيلة تطلب الجازية وتنال المراد، فلما سمع الماضي هذا الكلام تعلق قلبه بالجازية فكتب بذلك إلى الأمير حسن.

فلما قرأ الأمير حسن الكتاب احتار من هذا الطلب، ثم أعطى أبا زيد الكتاب وقال له: كيف الرأي عندك، أنا أعلم أن دياب ما يطلع عن الخضرا ولو ذهبت كل بني هلال.

فقال الأمير أبو زيد: الرأي عندي أن أذهب أنا وأنت مع القاضي بدير إلى الأمير دياب وندفع عوضها من الأموال والخيول الجياد ما يريد، فقال الأمير حسن: هيا بنا، فركبوا وساروا حتى أشرفوا على تلك الأطلال، فالتقاهم الأمير دياب وقال: أهلاً وسهلاً يا سادات الأكارم، وبعد أن جلسوا قليلاً قال الأمير حسن لدياب: لنا عندك حاجة نريد أن تقضيها لنا، وعرض عليه ما اتفقا عليه. فقال له دياب: يا أمير حسن كل شيء عندي في قبضة يدك إلا الخضرا لأن روحي وروحها سواء.

قال له خاله القاضي بدير: هتكت الأمراء وكيف يجيئون إليك وما تقضي لهم غرضهم، قال له: يا خالي إن الخضرا أعز علي من البنين، فخذ عوضها مهما تريد من الخيول السوابق لأني لا أعطيها لأحد ولو اجتمعت كل الخلائق، فاغتاظ حسن من هذا المقال وعول على الرجوع إلى بني هلال، فمنعه الأمير غانم وأضافه عنده بمن معه، وذبح لهم الأغنام وأكرمهم غاية الإكرام، ثم دخل على ابنه دياب وعاتبه أشد عتاب وأمره أن يعطيه الخضرا، فأجابه لذلك المرام ولم يقدر أن يخالفه، ثم إنه أسرج الخضرا وقادها الأمير حسن، فشكره الأمير حسن. وقال أبو زيد: اكتب كتاب إلى الماضي وأرسل له الخضرا في الحال، فكتب إليه يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي | فحاشا لمثلي أن يكون بخيل |
| أيا ماضي أنا الفتى حسن الهلالي | أرسلت أنا خضرة دياب عجيل |
| أرسلت لك خضرة دياب بسرجها | والدرع والدبوس بالتكميل |
| أيا ليتها يا ابن عمي مباركة | فوكل عليها يا أمير وكيل |
| مقال الفتى حسن الهلالي أبو علي | تمنيت عمرك أن يكون طويل |

فلما انتهى حسن من هذا الخطاب، سلمه إلى النجاب وأمره أن يسير بالخضرا لعند الماضي ويعطيه الكتاب، فبكى دياب على فراقها وتقدم إليها وعانقها، فأخذها النجاب إلى الماضي فقدمها له وأعطاه الكتاب، فلما قرأه ورأى الخضرا، تعجب من كرم الأمير دياب ثم سلمها إلى السياس، والتمت حوله أكابر القوم وهنؤوه بها؛ لأنهم ما رأوا لها نظيراً بين سائر الخيول، وقالوا له: بارك الله لك فيها، فقال: بارك الله فيكم وأريد أن تركبوا خيلكم وأنا أركب الخضرا ونطلع إلى الصيد

ونجربها، فركبوا وساروا إلى أن وصلوا إلى مكان الصيد، فأطلقها الماضي وأرخى لها العنان، فعرفت الخضرا أن راكبها ليس خيالها، فكانت ترفعه عن ظهرها مقدار خمسة أذرع إلى أن اختل توازنه فوقع عن ظهرها إلى الأرض، فارتض جسمه وتألم، ولما أتمت الخضرا مشوارها عادت إلى الماضي ووقفت عنده، فقام وقادها من رسنها وما تجرأ أن يركبها إلى أن وصل إلى قومه، فسألوه عن أفعال الخضرا فأجاب يقول:

قال الفتى الماضي بن مقرب ... الرجل لا يأمن هموم الدهر
جتني ترى الخضرا فرحت بشوفها ... وانشرح مني الحشا والصدر
ركبتها حتى أشوف أحوالها ... طارت شبيه الطير يم الوكر
وراحت كما الغزلان غابت بالفلا ... رمتني فوق الثرى عند الصخر
غبت عن نفسي وحيلي انقطع ... وتكسرت عظامي من الظهر
أنا أرسلها غداً لأهلها ... لعند أبو مرعي من الفجر

فبينما هم بالكلام وإذا بنجاب مقبل قاصداً الماضي، فحول على باب الصيوان وسلمه كتاباً، ففتحه الماضي وقرأه بين السادات وإذا به من عند شكر الشريف بن هاشم زوج الجازية أم محمد، يتضمن على سلام وافر وأشواق، ومن عجب ما تضمنه وحواه، تنازله عن الجازية وتقديمها له لتكون من جملة نسائه، وكان السبب لهذا الأمر المستغرب الذي لم يسمع مثله في العرب هو أن بني هلال عند وصولهم إلى مدينة الشام وحروبهم مع شبيب التبعي كانت الجازية أرسلت إلى بعلها المشار إليه كتاباً تسلم عليه وتعلمه عن مسيرهم إلى بلاد الغرب وأنهم سيمرون في طريقهم على الماضي بن المقرب وأنه بالكاد أن ترجع إليه وتراه، فلما اطلع زوجها على هذا التحرير أوجبه الحال أن يكتب للماضي ذلك المقال لأنه كان يحبه، فتنازل له عن زوجته وأرسل له أيضاً صورة الكتاب على سبيل العهد والميثاق.

فلما فرغ الماضي من قراءة الكتاب وفهمه الحاضرون، اعتراهم العجب وأخذهم الطرب وقالوا: وحق علام الغيوب لقد جاء هذا الكتاب طبق المرغوب لأنه لم يخطر في البال بأن شكر الشريف يتنازل عن الجازية أم محمد، فاتفق رأيهم على أن الماضي يرسل الخضرا إلى بني هلال ويعلمهم بواقعة الحال ويطلب منهم الجازية، فاستصوب الماضي هذا القرار وأيقن ببلوغ الأوطار وأرسل الخضرا إلى السلطان حسن وطلب منه الجازية أم محمد.

(قال الراوي) ثم إن الماضي كتب الكتاب وبعد قراءته على وزرائه وكبار دولته، وجدوه مناسباً، فسلمه إلى النجاب وسلمه الخضرا فرس دياب وأمره أن يسير

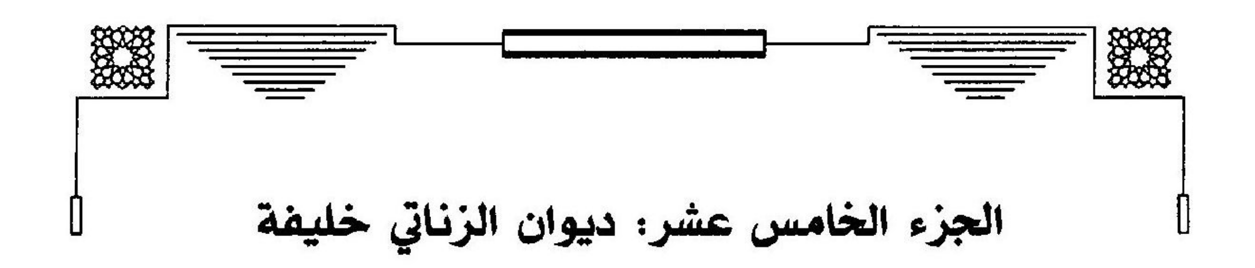
إلى عند الأمير حسن ويأتيه بالجواب، فامتثل وسار حتى وصل إلى بني هلال، فدخل على الأمير حسن وسلمه الكتاب، فقرأه وفهم معناه ثم التفت إلى الأمير دياب وقال له: إن فرسك قد رجعت إليك، فقم وخذها، فقال دياب: إنني ما وهبت قط شيئاً في حياتي وعدت أسترجعه، فخذها أنت واجعلها من جملة خيولك. فقال: هذا لا يكون فأنت صاحب المعروف وأحق بها من غيرك، فعند ذلك أخذها دياب وسار وهو في غاية الفرح والاستبشار، وبعد ذهاب الأمير دياب استدعى السلطان حسن أخته الجازية، فأتت ودخلت عليه وقالت له: ماذا تريد أيها الملك السعيد؟ فأخبرها كيف أرسل الماضي يطلبها ومراده يتزوج بها، ولما سمعت هذا الخطاب، تكدرت وقالت: كيف يتم هذا الأمر وبعلي شكر الشريف أبو أولادي محمد وعمر؟ وأنشدت تقول:

تقول فتاة الحي الجازية أم محمد ... بدمع جرى فوق الخدود بداد
ألا يا أخي اسمع شرح قصتي ... وافهم ما أقول من الإنشاد
ترى الحرمة ما تأخذ اثنين يا فتى ... بأي مذهب حل وبأي إسناد
أنا بعلي شكر الشريف بن هاشم ... سلطان مكة من أب وأجداد
وفارقت أولادي بغير إرادتي ... وطاوعتك ما كان ذا بمرادي
وما فرقة الأولاد إلا مصيبة ... فما يدخل عيني قط سهاد
وما طلقني حتى أريد بداله ... وصار بقلبي لهيب ووقاد
مقال فتاة الحي الجازية أم محمد ... وهكذا حكم ربي عالعباد

فلما فرغت الجازية من كلامها والأمير حسن يسمع نظامها، كتب مكتوباً إلى الماضي يعتذر فيه عن إرسال الجازية، ثم سلمه إلى نجاب ليأخذه إليه ويأتيه بالرد، فامتثل وجد في قطع القفار حتى وصل إلى الماضي، فأعطاه الكتاب، فلما قرأه كتب إلى حسن أن شكر الشريف قد تنازل عن الجازية أم محمد، ثم أرسل كتاب الشريف مع الرسول الذي حضر معه، فلما وصل إليه سلم عليه بحضور جماعة من الأمراء والأعيان، وكانت الجازية من جملة الحاضرين، ففتح حسن الكتاب وقرأه فتعجب من ذلك الخبر الذي لم يخطر على قلب بشر، ثم التفت إلى النجاب وقال له: كيف أحوال شكر الشريف؟ فقال: الحمد لله بخير وعافية وهو يهديكم جزيل السلام والأشواق، فعند ذلك أخبر الحاضرين بما كتبه شكر الشريف فلما اطلعت الجازية على تلك الحال اعتراها الاندهاش وقالت: هذا لا يكون أبداً ولو شربت كأس الردى، فقال أبو زيد: من الصواب يا بنت الكرام أن نرسلك إلى الماضي لأن له علينا جميل وإحسان ولاسيما أن زوجك قد رخص له بك، فمتى صرت عنده حاوليه

بأمر الزواج وأنا أخلصك من هذه القضية وتذهبين معنا إلى الغرب، فتضمخت الجازية بالأطياب ولبست أحسن الثياب وكانت بديعة المنظر تزهو كالقمر، فازداد حسنها عن الأول لما تزينت بأفخر الحلل ولبست الجواهر، فأذهلت البصائر، ثم ركبت في هودجها بجماعة من النسوان، وركب معها الأمير حسن وعدة من الفرسان، وجدوا في السير طالبين الماضي، وأرسلوا يعلموه بقدوم الجازية والأمير حسن، فأخذ الكتاب، فلما قرأه زادت أفراحه وكثر انشراحه وأيقن بلقاء الحبيب بوقت قريب وأمر أحد وزرائه أن يستقبل الأمير حسن والجازية بالعساكر، فركب في الحال بثلاثة آلاف من الفرسان، وسار يقطع الطريق بالأغاني والأشعار وسار مع جماعة من النسوان اللواتي لهن قدر وشأن، فكانت النساء تدق بالدفوف والمزاهر، والفرسان تلعب بالرماح والسيوف إلى أن التقوا بالأمير حسن والجازية، فزادت بينهم الأفراح وكان يوم يستحق الاعتبار لم يسمع مثله في سالف الأعصار، وكان الماضي قد زين القصر بأنواع الحرير والقماش الفاخر، وعند وصولهم استقبلهم أحسن استقبال وأجلس حسن في صدر المقام وجلست حوله الأمراء الفخام ونزلت العروس عند الحريم ودارت الحلويات وكاسات الشراب على مائدة الأمراء والسادات، ثم حضرت سفرة الطعام وفيها من جميع اللحومات كالضأن والدجاج وبعد أن أكلوا وشربوا ولذوا وطربوا، رقصت النساء والبنات وغنت المغنيات بأنواع الأصوات، فكانت حفلة لم يسمع بمثلها ولم يفعل أحد كشكلها، وداموا في فرح وسرور وغبطة وحبور ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، استأذن الأمير حسن من الماضي بالمسير لبلاد الغرب، فقال الماضي: أيها الملك ألا تقيم عندي في هذه الأطلال، فبلادي واسعة وهي كثيرة المراعي، فشكره حسن على اهتمامه وقال: لا بد من المسير، ولما صمموا على الرحيل جعلت الجازية تبكي بدمع غزير لأنه لم يكن لها صبر ولا سلوان على فراقهم ساعة من الزمان، فلما زاد عليها الحال أكثرت من النحيب فانزعج الماضي وسمح لها بالذهاب معهم، ففرح بذلك الأمير حسن وأمر الفرسان بالركوب، فركبوا ظهور الخيول وركب الماضي بالفرسان وساروا بصحبتهم، فحلف عليه حسن بالرجوع، فترجلت حينئذ الفرسان وودعوا بعضهم فدعى لهم الماضي بالتوفيق والانتصار وسارت بنو هلال لبلاد تونس لخلاص مرعي ويحيى ويونس.

□□□□□



# الجزء الخامس عشر: ديوان الزناتي خليفة

وما زالت تقطع السهول والبراري حتى وصلوا لبلاد الغرب ودخلوها، ونزلوا في واد، اسمه وادي الرشاش، وكان ذلك الوادي بين جبلين، فلما نزلوا فيه جفلت منهم الوحوش، وكان للزناتي ابن أخت يقال له: العلام بن غضبة فالتفت الزناتي للعلام وقال له: اخرج للصيد وائتنا بما تصيده، فأجابه بالسمع والطاعة، فقام وركب وأخذ الكلاب والصقارة وطلع إلى الصيد، فما مشوا إلا قليلاً وإذا بالوحوش من كل جنس بين أرجلهم، فاصطادوا حتى حملوا خيلهم ورجع هو ومن معه وألقوا الصيد أمام الزناتي، قال له: يا علام ما هذا أنا أرى أن ما جاب هذا الصيد إلا العجايب، فقال العلام وأنا أقول: إن ذاك العبد الذي حبست رفاقه راح وأتى لنا بقومه، فصار الزناتي في حساب وأمور صعاب، ثم ذهب إلى قصره ونام فرأى في منامه ولذيذ أحلامه، أن أتته عربان مثل الجان ولهم سلطان كبير الشأن ومعهم العبد الذي أتى إلى عنده وراح وخلى رفاقه ورأى فارساً أشقر اسمه على اسم الديب وقاضي العرب وقد ملكوا بلاده فقام من منامه طايش العقل، فاستدعى ابن أخته العلام وقال له: رأيت مناماً وأريد أن تفسره لي فقال العلام: يكون خيراً فاستحضر الرمل وحرر الأشكال على شرح البال وولد البنات من بطون الأمهات فبان عنده أهوال وضرب رماح ونصال من عرب كالرمال، ثم أنشد يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى علام ولد غضبة | لقد بان عندي يا أمير حروف |
| كلامك صحيحاً ما به قط ريبة | وعلم ما يحصل بدون مكلوف |
| فهذي عربان الهلالي أبو علي | عليهم الذهب وهم عاقدين دفوف |
| وهذا ملكهم ابن سرحان يا ملك | أمير بن أمير سيد معروف |

فلما فرغ من كلامه، عاد الزناتي في هم ونكد، وإذا بالهصيص أقبل وإخوته بصحبته، فقام الزناتي لملاقاته واستقباله وأنزله في أعز المقام، ثم جلسوا على الطعام وأخذوا يتفاوضون بالكلام، فقال الهصيص: يا إخوان مالي أراكم مغيرين الأحوال، فأخبره بما حلمه من الأهوال فقال: وأنا حلمت كذلك.

فلما فرغ الهصيص من كلامه، كان حاضراً رجل اسمه سليمان خبير في طرق وأراضي البلدان، فقال له الزناتي: اذهب واكشف لنا هؤلاء العرب وأتنا بالخبر عن

حقيقة أمرهم، فأجاب سمعاً وطاعة وركب جواده وسار حتى وصل وادي الرشاش، فوجدهم قد ملؤوا الأرض وراياتهم تخفق بين ألوف بيوتهم كالبحر الزاخر ولا ينظر لها أول من آخر، فسأل عن بيت أمير العربان، فأرشدوه فدخل على الصيوان فرآه مثل زهرة البستان، وصاحبه الأمير حسن يترحب بكل من جاء ويودع من ذهب وأدهشه كرم ابن سرحان، فعاد إلى أن وصل إلى الزناتي فسلم عليه وأنشد شعراً بين يديه.

فلما فرغ سليمان من كلامه، صار الزناتي في حساب وأمور صعاب من هؤلاء العربان، فقال له الهصيص: علامك يا أخي تغير لونك وأنت سلطان هذه البلاد وتحت يدك أربعة وعشرون أميراً وكل أمير يحكم على مائة ألف عنان! فقال الزناتي: اكتب يا أخي إلى ملوك بلادنا.

فبعث الزناتي إلى جميع الأمراء وأعلمهم في هؤلاء العرب الذين هم مثل الجراد، ويرجع الكلام إلى الهصيص، فركب هو والعلام وجردوا ثلثمائة ألف، وقال لأخيه: ابق مكانك وأنا أريح أفكارك، وكل ما جاءك فزعه أرسلها حتى ما تخلي العرب تخترق جدارنا، وسار الهصيص في القوم إلى أن وصلوا إلى وادي الرشاش، فقال الهصيص لابن عمه العلام: سر قدامنا يا فارس واكشف لنا العرب أين نازلون، فأخذ العلام ألف فارس وسار قليلاً وإذا مقبل عليهم فرسان مثل الجراد وكان عقيد القوم الأمير أبو زيد ومعه الخفاجي عامر وزيدان بن غانم، فلما نظر أبو زيد إلى العلام قال لرفاقه: احترسوا من هؤلاء القوم، فهم قوم العلام ابن عم الزناتي، ووقعت العين على العين ونزل العلام الميدان وسقط إليه أبو زيد مثل السبع، فقال له العلام: من أنت؟ ألست عبد المحابيس؟ قال: نعم يا جبان، فقال له: أين الرجال؟ قال: أنا معي ألف والباقون خلف، وأنا أبو زيد الهمام، فلما سمع العلام هذا الكلام صار الضيا في وجهه ظلاماً، والتقى البطلان كأنهما جبلان، وحان عليهما الحين وزعق فوق رأسيهما غراب البين فاختلف بينهما ضربتان قاتلتان، وكان السابق في الضربة الأمير أبو زيد، فأخذها العلام في ترس البولاد، فسقطت على رقبة الجواد، فبرتها كما يبري الكاتب القلم، فأدركه قومه وأخذوه من قدام أبي زيد، فمال أبو زيد من اليمين والشمال، وأهلك الأبطال فولوا هاربين وللنجاة طالبين ولحقهم بنو هلال حتى أدخلوهم في الجبال، وبقيت حالتهم في أسوأ حال، فرجع عنهم بنو هلال كاسبين الخيل والأموال.

ولما أقبل العلام وقومه على الهصيص وهم على تلك الحال، فصاح فيهم وقال: أعلموني بما جرى من هؤلاء العربان؟ فأخبروه فطلع الهصيص ومن معه على

الجبل ونزلوا مثل السيل إذا سال حتى أقبلوا على بني هلال، فنظر أبو زيد وإذا بغبار قد حجب الأبصار، فقال لقومه: كثرت عليكم القوم يا شجعان، فقالوا: نحن فداك ونلقى عداك، ثم جالوا في الطول والعرض وشنوا الغارة على الأعداء وعاثوا في القوم والأمارة وأرموهم في الذل والخسارة، والغبار ملأ الأقطار، والعماريات تنخي الفرسان على قتل الدشمان، فلما نظر ذلك الهصيص وقومه، أعطوا كسرة وأرادوا الهرب، فلما تكاملت العربان ألا وأبو زيد كسرهم في آخر النهار ورد الخيل الشاردة والعدد المبددة وعاد الهصيص إلى موضعه وكمن إلى الليل وركب هو وقومه وكبسوا بني هلال وأقاموا فيهم الرعبة، فقامت في العرب الصيحات وعلت الضجات من كل الجهات وأدخلوا بني هلال البيوت وأخذ قوم الهصيص خيلهم والبنات والنوق، فجمع أبو زيد أربع كرات وركبت معه العماريات وسبق القوم ومسك لهم الطريق، فأقبلت عليهم الأعداء فتلاقوا على الجارية والبنات فرد عليهم الأمير دياب فالتقاه الهصيص وضربه بالدبوس على الطاسة فحرك خضرته وولى من الهصيص هارب وإلى النجاة طالب، ولحقه قومه بنو زغبة، فمر على البنات فنظرته فنادته بنته وطفا: علامك يا أبي هارب فما رد وخلاها وإذا بالقاضي بدير مهزوم هو وقومه، فنادته الجازية لا تروح وتخلينا، فقال: ورائي أخوك وإذا حسن وقومه هاربين، فنادته الجازية لا تذهب وتتركنا، فقال لها: أبو زيد يخلصكم من الأسر، فإذا أبو زيد أتى، فلما نظرته البنات صحن فيه، فلما رأى أبو زيد ذلك، عادت نيرانه مشتعلات ورجع هو وقومه وأطلق العنان على لقاء الأعداء، فالتقاه الهصيص في الميدان فوقع بينهما ضرب شديد، فقام أبو زيد في عزم الركاب وضرب الهصيص في الرمح، فشك ذراعه ورماه على الأرض، فهجمت عليه قومه وخلصوه، وصار طعن يفك زرد الحديد والبنات تنادي وتنخي قوم أبي زيد وتزغرد لهم وأبو زيد في أولهم، فولى قوم الهصيص شرايد وأخذ منهم بنو هلال خيلهم وأموالهم وخلصوا البنات وعادوا إلى أهلهم فلاقتهم الأولاد والبنات بالدفوف والضجات وراح قوم الهصيص شتات وأما بنو هلال فاجتمعوا في صيوان الأمير حسن وصارت الجازية تشتم وتوبخ من هرب وتمدح من ثبت، فقال لهم أبو زيد: يا أجاويد هلال لا تحسبوا أن الهصيص قد انكسر وراح، فلموا بعضكم وأعطوا بالكم إلى حالكم واجعلوا حرساً يحرس في الليل، وأما أبو زيد فكان تعباً وبرد في الليل، فاعتراه وجع في جوفه وما عاد يقدر يجلس على ظهر الجواد، فوقف الخفاجي عامر موضع أبي زيد، أما الهصيص أخو الزناتي فجمع قومه وقال لهم، سأعمل حيلة تسوي قبيلة وأرمي الأسمر بينهم حتى ننال مرادنا منهم، ولو يدري أبو زيد نايم لغار عليهم بالنهار جهراً، ثم قال لقومه:

اركبوا والحقوني وأتى لبني هلال من ناحية الشرق وأرسل إلى الأمير حسن يخبره أن الزناتي عدونا ونحن جئنا نجدة معكم وسمى روحه الأمير مقلد وأشار يقول:

يقول الفتى المسمى الأمير مقلد ... من أرض كورج والكبار جميع
أتينا نغزي يا حسن مع قومكم ... أمارة هلال كل قرم شجيع
أريد أسلفكم جميلاً طيباً ... ومن سلف الأجواد ليس يضيع
لما سمعنا بسيطكم جينا لكم ... نكسب غنايمهم وكل تخت رفيع
فلا تحملوا هم الزناتي خليفة ... أنا لكم عوناً سريع مطيع
ولا بد نملك أرض تونس بلادهم ... وندعي خليفة في المجال يضيع

فلما فرغ مقلد من كلامه، طوى الكتاب وختمه في ختمه وأرسله إلى الأمير حسن فقرأه وعرف معناه، وكان أبو زيد له ثلاثة أيام مريضاً وكان دياب حاضراً وبني هلال جميعهم، فقرأ عليهم حسن الكتاب وأعلم بني هلال ما فيه، فقال دياب: أتونا في وقتهم وأشار حسن يكتب إلى مقلد بالأمر.

(قال الرواي): وركب الأمير حسن ودياب والقاضي بدير وأكابر بني هلال نحو ألف فارس يلاقوهم، فلما قاربوا الهصيص دق طبله ونشر الأعلام وهجم على بني هلال مثل السبع الغضبان وتفرقت قومه في كل مكان وغاروا على البيوت ونهبوا الأموال وأخذوا الخيل والجمال ومائة بنت فايقات الجمال وأخذوا البيوت من أهلها، قال الهصيص: أنا ما نظرت الأسمر ولا سمعت صوته لعله يكون قد قتل اليوم، وأما أبو زيد فكان نايماً من الضعف فسمع الضجة فقام من نومه وقال: ما الخبر وما هذه الصرخات؟ فأخبروه في حيلة الهصيص وما فعل في بني هلال وكيف نهب البوش والمال وسبى النساء والعيال، فصاح من قلب جريح ودق طبله فاجتمع عنده من بني هلال اثنا عشر ألف فارس والباقون كانوا هاربين على رؤوس الجبال وأخذ الحاضرين وساروا إلى القوم وربطوا لهم في الطريق وصاح فيهم، فرفرفت النساء على أبي زيد مثل رف الحمام، وقلن: إلينا إلينا، فصاح في القوم وقال: خلوا عن الحريم والمال، وهجم عليهم بالحال، وكانت ساعة تحير الإنس والجان وغار على الفرسان كفرخ الحمام وهو يميل على الميامن وعلى المياسر، فأتى الهصيص إلى ناحية أبي زيد كالسبع الكاسر، وتقاتل مع أبي زيد واصطفت الجيوش ووقعت العين على العين وقال الهصيص: أنت حي إلى الآن وفي كل موضع أراك، وقال أبو زيد: في هذا الوقت أريك أفعالي.

فعندها التقى البطلان كأنهما جبلان، وطار من تحتهما الغبار وقدحت حوافر الخيل ناراً، والفريقان ينظران إلى حربهما وحريم بني هلال تنخي أبو زيد لكي

يخلصهم من الأعداء، فعندها صرخ الهصيص صوتاً دوت له الجبال وقام باعه في المزراق وطوحه إلى أبي زيد، فأخذه بالسيف أبراه كما يبري الكاتب القلم وأبو زيد ضايق الهصيص ولاصقه وسد عليه طرقه وطرايقه وهز بيد عود الزان وطعنه بين بزيه طلع من بين لوحيه، ثم ثنى عليه بالسيف فطير رأسه، ولما نظر جماعته ما صار ولوا الأدبار وتبعهم القوم الأخيار، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وعاد أبو زيد وجماعته إلى الخيل الشاردة والعدد المبددة وإذا بالأمير دياب والأمير حسن والقاضي وقومهم كانوا قد سمعوا أن أبا زيد لحق الهصيص برجال قليلة، فتلملموا ولحقوه وكان السابق الأمير دياب، فقال: أين الرجال يا أبا زيد؟ فقال: هربوا فدونكم خيل أعدائكم، فقال دياب: يا أبا زيد أنت طول عمرك تفرج عن بني هلال غمها، فقال: كونوا على حذر لأن الذين حاربناهم نقطة من بحر لأن قوم الزناتي أربعة وعشرون سلطاناً وكل واحد منهم يحكم على مائة ألف والبوش يخاف عليه من العدا لئلا يأخذوه، ومرادنا نبعث معه أميراً، فقالوا: من يروح مع البوش؟ فقالوا: الشور للجازية أم محمد لأن لها ثلث الشور فأحضروها، ثم بعدما دارت القهوة وكاسات الشراب، التفت الأمير حسن نحو الجازية وقال لها: قد أرسلنا وراك لكي نشاورك في أمر البوش، فمرادنا نرسله لغير موضع، فشوري علينا من يروح مع البوش، أبي زيد ما لنا بعده تدبير وأنا لا أصلح لأني أمير، فيقولون أميرهم راع والقاضي بدير أصابعه مقطعة ولا يصلح إلا دياب لأنه يحميه من الأعادي، فأخبرينا ما رأيك؟ فقالت له: هذا رأس الشور فأشار السلطان حسن ينخيه. فعرف دياب أنها مكيدة من الجازية ولكن أخفى الكمد وأظهر الجلد وأشار يطيب خاطر حسن.

وكان الأمراء يسمعون كلامه فشكروه وقالوا له: من يرد عنا القوم في كل غارة؟ فأشار أبو زيد يقول:

قال أبو زيد:

المسمى كلام أكيد من جدي خذ البوش وروح ارعاه وسير إلى أقصى الجرد تسلم مال ملوك هلال. كذا الرعيان مع العبد مثلك من يحمي ذا البوش همام، مثلك ما حدى احفظ نفسك والرعيان من أبطال ومن يردي أخاف عليك من الغارات يجوكم ليلاً في تعد، إياك بالليل تنام، خل النوم مع الرقد ومن يثبت منكم معنا ينال الخير، والقصد غداً خليفة يلقانا وأكون له أنا الجندي أبو سعدى قرم مجرب وصوته مثل الرعد باكر يصبح يلقانا بالبولاد وفي الزرد ومعه جيش يأتينا على خيل ضمر يتحدى وأنا يا جواد أحضركم أبو زيد، أنا السند غداً أغنمكم منهم مكاسب لا تتعدى وتروح كل هوادجنا يفوح المسك مع الندي، أنا أوصيكم يا فرسان كونوا

عصبة مشتدي، لا تزعل يا أمير دياب، فكون بعزمك مشتدي، خذ البوش واسرح فيه بالك غلام تنعدي ألفين فارس خيالة وثلاثين ألف جندي اصبر على الأهوال ولا تأتونا على البعد، اسماً يا أبا وطفا دياب، يا ابن غانم اجتهد لولاك هلال ما سكنت بلاد الغرب ولا نجد المال تكفل فيه وزغبي حولك كالأسد كم وقعة أشفيت هلال، أنت يا زكي الجد.

فلما فرغ أبو زيد من كلامه أجابه دياب: يا أبا زيد أنت السيد وفيك الخير مع السعد.

فلما فرغ دياب من كلامه، ركب في قومه بني زغبي وهم تسعون ألف فارس، ولكل ألف فارس راية بيضاء، وسار أبو زيد معه ليدله على وادي الغبا والغباين، وساق الرعيان البوش وكانوا ستة آلاف راع، وساروا إلى أن وصلوا إلى وادي الغبا والغباين، فوجدوا فيه أنواع الزهور والورود ورائحتها منتشرة في كل مكان، والمياه الصافية الباردة تجري وتنساب وتسقي الأشجار والزروع، والشلالات تصب من أعلى مكان إلى ذلك الوادي فتشكل مناظر طبيعية جميلة، فأنسروا بهذا المكان الذي كأنه جنة رضوان، فقال أبو زيد: انزلوا في هذا الوادي واحذروا من كيد الأعادي، ثم إنه عاد لبني هلال، أما الأمير دياب فنصب صيوانه في الوادي، وأوقف رقباء على الجبال أربعة آلاف خوفاً من العدا.

ويرجع الكلام إلى الزناتي، فإنه لما علم في قتل أخيه غضب وأتى بجيش ونزل إلى الميدان، فنزل إليه أبو زيد، فقال له: هل أنت عبد المحابيس؟ قال: نعم. فقال الزناتي: أين المال؟ فقال: معي ألف والباقي خلف. قال: أنت رحت تجيب مال أو رجال؟

فالتقى بعد ذلك البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق رأسيهما غراب البين، فاختلفت بينهما ضربتان قاطعتان، فكان السابق بالضربة أبو زيد، فأخذها الزناتي بطارقة البولاد فنزل على رقبة الجواد فبرتها كبري القلم، فوقع الزناتي على الأرض، فركضوا على بعضهم البعض وأقاموا الزناتي وخلصوه، والتقى الجيشان والتحم الفريقان وقاسوا الأهوال وبطل القيل والقال، حتى أقبل الزوال، دقت طبول الانفصال وقعدوا إلى الصباح، فاستعد بنو هلال ونزلوا إلى الكفاح ونزل الزناتي مع قومه للميدان، فحملت الشجعان وطارت الرؤوس عن الأبدان، وبقوا على هذا الحال إلى وقت الزوال، فدقوا طبول الانفصال وكل منهم طلب الأهل والأوطان، فلما عاد بنو هلال جلسوا في صيوان الأمير حسن بن سرحان، فقال الأمير حسن: لماذا يا أبو زيد تقاتل القوم أنت بنفسك وما تعطيني الخبر؟ فإن كنت

طائعاً لله والأمير، فضع رجليك في هذا القيد، قال أبو زيد: سمعاً وطاعة، وحط القيد في رجليه وقعد في بيت الأمير حسن فلما أصبح الصباح دقت بنو هلال طبولهم ونزلوا إلى الميدان، فنزل الزناتي فلم ير أبا زيد معهم، فطمع فيهم وغار عليهم مثل الأسد الضرغام وقتل منهم جملة من الفرسان وشتتهم بين الروابي والآكام وكسرهم حتى رحلهم سبعة مراحل، وأخذ الخيل والجمال والحريم والأطفال فراحوا إلى عند أبي زيد وهو مقيد، فقالوا: إلى متى يا أبا زيد؟ قم فك القيد من رجليك.

وما لبث أن استعد أبو زيد للحرب ودق طبوله ونزل إلى الميدان، فسمع الزناتي صوت الطبول، فنزل هو وقومه إلى الميدان، فقال الزناتي: لا ينزل لي إلا أبو زيد، فما أتم كلامه إلا وأبو زيد صار قدامه، فقال له: أين كنت يا أبا زيد فقال له: أنا كنت غايب واليوم جئتك محارب، فالتقى البطلان كأنهما أسدان ضرغامان وغنى فوق رأسيهما غراب البين حتى تعب منهما الساعدان وكل تحتهما الجوادان، وداما في قتال إلى الزوال، فدقت طبول الانفصال ورجعت كل فرقة إلا الأطلال، وباتوا يتحدثون، وفي الصباح ركب القومان واصطف الجيشان وصار قتال وأهوال وبقوا على ذلك سبعة أيام، وكلت منهم الزنود وذابت الكبود، فهرب الزناتي وقومه فغار عليهم أبو زيد بقومه وأرجعهم أربعة عشر مرحلة إلى الوراء وأدخلهم البلد، فلما دخل الزناتي إلى المدينة سكرها وراءه وقال: أنا ما بقيت أقاتل أبا زيد،ثم جلس يكتب إلى الأمير حسن يقول:

حلق الزناتي طارة يا معشر الخطارة من أجل قوم جونا. خلوا البلاد دماراً أنا الزناتي عندي أبطال ما تنعدي والحرب محكم عندي يشبه لهيب النار، يا أبو علي القاني في حومة الميدانِ أريك طعن الزان، يا ما قتلت أمارة يا بو علي في بالك أن الدهر يصفى لك لا بد ما تشوف حالك وتشوف شي ما صارا وتشوفني بالنوم. وتقول جاني قومي مرعوب دائم دومي. عقلك وذهنك طار ارحل بظعنك عادي مع جيشك والعتاد، هذي البلاد بلادي ما هي لغيري داره، وإياك من أبو سعدى يجيك مثل الرعدة نجمة خدمه سعده نجمك عليه غبار وجاك الزناتي غاير من فوق أدهم طاير بيده حسام شاهر، إن صاب رأسك طاره والله أنا أفنيكم وبناتكم تنعيكم قصاب أعمل فيكم وأعمل بكم جزاره. يابو علي اتهير للحرب لا تتغير عند اللقاء تتحير في طعن البتارة.

فلما فرغ الزناتي من كلامه طوى الكتاب وأرسله إلى الأمير حسن، فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه.

ثم رد حسن بكتاب، وأرسله إلى الزناتي فلما وصل إليه قرأه وعرف معناه،

مزقه ورماه وصاح على الفرسان وأمر بدق الطبول والركوب على الخيل، وأما الأمير حسن فبعد ما أرسل رد الجواب دق الطبول للكفاح وطلب النصر من الله الفتاح ونزل هو وقومه إلى الميدان، فنزل الزناتي وعرض وبان وقال حسن: لا يبرز لي إلا أمير العربان، فنزل إليه السلطان فقال له الزناتي: أنت مثلي وأنا مثلك فعندها التقى البطلان كأنهما جبلان، وحان عليهما الحين وزعق فوق رأسيهما غراب البين، وداما في قتال حتى ولى النهار ودقت طبول الانفصال، وعاد كل إلى مكانه. ولما أصبح الصباح نزل أبو زيد إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فنزل إليه الزناتي وقال له: أين السلطان حسن حتى أذيقه طعني وضربي؟ فقال أبو زيد: أنا خصمك وقد جئتك، فعند ذلك التقى البطلان كأنهما أسدان أو جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق رأسيهما غراب البين حتى كل منهما الساعدان وبقيا على هذا إلى وقت الزوال. وفي ثاني الأيام نزلا إلى الحرب والكفاح، فأما أبو زيد فقد زاد في الحرب وأما الزناتي فأدار رأس جواده وهرب، فانكسر قومه فلحقه أبو زيد حتى وصل إلى مدينة تونس، ففتح البواب للزناتي حتى دخل وأغلق الباب في وجه أبي زيد فقام أبو زيد في عزم الركاب وضرب الرمح في الباب خرقه وعاد إلى قومه والأصحاب من بعد ما فرق قوم الزناتي وقتل منهم كل قرم عاتي إلى أن وصلت بنو هلال إلى بيت الأمير حسن، ودار فيما بينهم الكلام وشكروا أبا زيد الهمام.

ثم قالوا: يا ويلنا من بعدك يابو شيبان يا حامي الأظعان، يرجع الكلام إلى الزناتي لما قالوا له عن الضربة التي ضربها أبو زيد خربت الباب ثمانية كعاب، فعاد في حساب وأمور صعاب، أما أبو زيد ثاني يوم دق طبله واستعد للقتال وطلب اللقا، فدخل البواب إلى عند الزناتي وقال له: من ينزل إلى الميدان؟ فقال الزناتي: ومن ينزل إلى عزرائيل قباض الأرواح. ثم كتب إلى أبي زيد كتاباً وأرسله مع الوزير فلما وصل إليه أخذه وتوجه نحو صيوان الأمير حسن وأعطاه الكتاب، فقرأه ثم قال: حيث إن الزناتي خليفة ذل من حربنا، ابعث له أن يعتق أولادنا من الحبس ويرسلهم.

فلما وصل المرسال إلى الزناتي وأعطاه الكتاب من أبي زيد حمد الله الذي رضوا في فكاك الأولاد، فبعث الزناتي إلى بنته سعدى وقال لها: أطلقي المحابيس حتى نرسلهم إلى أهلهم، فلما وصل إليها الخبر، أرسلت سعدى إلى أبيها تقول: يا حيف عليك يا أبي أنت صدقت كلام العرب هؤلاء العرب، ما بقوا يفارقوا هذه البلاد، فقال: والله لقد صدقت ولو عدمنا الحياة ما عدنا نرسلهم، وكان مرعي عندها في تلك الساعة، فقال لها: هكذا عملت وأبيت أن نذهب إلى أهلنا، فقالت له: يا حبيب القلب ألم تعلم أنني متى أطلقتكم تذهب روحي برفقتكم؟ ثم أشارت تسليه بهذه الأبيات:

تقول سعدى بنت أمير تونس وجرح الهوى قد علقني حبايله
جرحني الهوى في قلبي أهانني ومشعال نار الوجد أشعل فتايله
أنا ما ضناني غير مرعي وذلني فيا رب تجمع شملنا بشمايله
طوله يشابه المرديني إذا مشى متى تسمح الأيام وانظر جمايله
أنا خايفة يطلقكم أبي وترحلوا لأن سلامة كل يوم يزاعله
فإن كان يرسلكم تروحوا لأهلكم وينظركم حسن وتشفى نحايله
أنا خايفة يبطل حربنا مع قومكم وتروحوا إلى نجد العدية جمايله
ويأمر حسن بالشيل سرعة لأرضكم يفرح بمرعى حين ينظر جمايله
مقالة سعدى الهوى قد أضامني عمل حب مرعي في فؤادي عمايله

(قال الراوي): فلما فرغت سعدى من كلامها فأنشد مرعي يجاوبها ويقول:

يقول الفتى مرعي بعين وجيعة لها بعد نوم الهاجعين ذراف
لأن حسنك يا مليحة ذابني وجاني هواك والغرام صداف
ولكن أبوك يا مليحة أهاننا بالحبس صرنا موجعين ضعاف
وإن كان يطلقنا فلا تمنعيه حتى نروح لأهلنا وسلاف
وأخبر حسن بما فعلتيه معنا أبوك بين الملا عراف
ونرسل إلى أبيك نخطبك منه ونعطيك خيلاً مع أموال ظراف
هذا مرادي يا مليحة ومنيتي نريد الحلال وما نريد خلاف
وأما الخنا فلست فيه موافق لأني أنا من نسل قوم أشراف
ولا بد نملك أرضكم وبلادكم وآخذك حقاً بغير خلاف

فلما فرغ مرعي من كلامه وسعدى تسمع نظامه، بقيا على ما كانا عليه، في النهار تنزله إلى الحبس وفي الليل تأتي به وتنام وإياه، وأما بنو هلال لما لقوا أولادهم ما طلعوا من الحبس، دق أبو زيد طبوله ونزل إلى الميدان، فما أحد جاء إليه، فغار في جواده ودق باب تونس، فرد عليه البواب من تكون؟ فقال أبو زيد: أريد سيدك حتى آخذ روحه من جسده، فراح البواب لعند سيده.

فلما فرغ خضر من كلامه والزناتي يسمع نظامه، فأعطاه درعاً وسيفاً وخوذة وقال له: يا خضر إن قتلت أبا زيد، أعطيتك مدينة وسعدى، فقال: يا سيدي أنا أكفيك شره، فبرز إلى أبي زيد فقال له: من تكون من الفرسان حتى تنزل الميدان؟ قال: أنا خضر بن موسى، فضحك أبو زيد.

فانطبقا على بعضهما، فقام أبو زيد وحرك الجواد ولاطف خضر وطسه بالدبوس ورماه تحت الحصان، فقال خضر: أنا بجيرتك يا ابن الأجاويد، فقال أبو

زيد: قم واشلح عدة الحرب ما تستاهل القتل، فصار البواب يبكي حتى وصل إلى عند الزناتي، فقال: كيف حالك مع أبي زيد؟ فقال: يا ملك الزمان كأني رأيت مناماً، أحسب الحرب مثل فتح الباب وغلقه. فسطر الزناتي كتاباً وأرسله مع عبده إلى أبي زيد، فأخذه وقرأه وعرف معناه، أخذه لعند الأمير حسن فقرأه وهم في الحديث إلا وغازي عبد السلطان قد دخل وكان دار بلاد المغرب الجواني وتسمى الشقور وفيها سبعة ملوك، كل ملك يركب بمائة ألف خيال، فابتدأ يخبر الأسياد.

فلما فرغ من كلامه والأمارة يسمعون نظامه، قال أبو زيد: ارتاحوا أنا علي في جميعهم وحدي، ثم إنه نبه فرسانه وراح إلى صيوانه، فقام السلطان حسن وراح لعنده وقال: يا أبا زيد أنت ذاهب وأنا خايف من الزناتي يحاربنا، فقال أبو زيد: أنا أحط لكم راية حمراء على باب تونس، فلا يطلع إليكم ما دام الهوى يلوح بها وتمشي بالليل، ولا تدق طبلاً حتى نلاقي القوم ونرمي فيهم الوهم، فعاد الأمير حسن، وأما أبو زيد فصبر إلى الليل وركب هو وقومه بنو زحلان ومشوا نحو ذلك العدوان مقدار سبعة أيام، حتى وصلوا إلى موضع فيه ربيع ومياه، فقال أبو زيد: حولوا فحولوا، وفرشوا له الحرام فنعس ونام، فطلع ثعبان ولسع أبا زيد في فخذه ففاق أبو زيد من ضربة الثعبان وصاح من صميم الفؤاد، فركضوا إليه وقتلوا الثعبان وعاد في قلب أبي زيد لهيب النار، فحملوه إلى البيت فقامت عياله بالبكاء والنواح على هذا الأسد المسموم، فعرف السلطان حسن وخاف من الزناتي لأنه عرف أن أبا زيد مسموم ودياب غائب، فقوي عزمه واستعد لحرب بني هلال وأشار يكتب إلى السلطان حسن بالأمر، فرد عليه السلطان حسن، ثم طوى الكتاب وأعطاه إلى النجاب، فأخذه إلى مولاه وأعطاه إياه، فقرأه وعرف معناه، ولما أصبح الصباح دق طبله وركب وأطلق الغارة على بني هلال، فركب بنو هلال خيولهم ودقت الطبول، فالتقى الفريقان فبرز الزناتي إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه السلطان حسن، والتقى البطلان كأنهما جبلان وطار من تحتهما الغبار حتى سد منافس الأقطار، وقدحت حوافر الخيل ناراً وتكسرت بينهما الرماح والسيوف وكلت منهما الزنود والكفوف وبقيا على هذا الحال إلى المساء، فافترقا على سلامة وباتوا إلى الصباح يتحدثون، فلما أصبح الصباح وضاء بنوره ولاح، برز الزناتي للميدان فأراد السلطان أن يبرز إليه فمنعوه وقالوا: نخاف عليك من الزناتي وأبو زيد ملسوع ودياب غائب وإن صار لك حادث تشتت بنو هلال في الجبال، فقام الخفاجي عامر وطلب الزناتي فمنعه حسن وقال: أنت نزيل عندنا والنزيل ما عليه حرب، فقام الخفاجي وأقسم يميناً أنه إن لم ينازل الزناتي عشرة أيام يرحل هو وقومه عن بني هلال، فتركوه فبرز الزناتي والتقى البطلان

كأنهما جبلان وزعق فوق رأسيهما غراب البين وفي اليوم الثالث كل الزناتي وولى هارباً من الخفاجي، وكان عند الزناتي خطيب يسمى مطاوع، فقال للزناتي: باكر أنت انزل إليه وأنا أتخبى، وإن انكسرت اهرب قدامه فيلحقك حتى يفوتني فأجيله من الوراء وأطعنه من قفاه، وأما الخفاجي فإنه رأى مناماً أن قدام بيته شجرة طويلة أتاها نجار قطعها، فقام من منامه مرعوباً واستدعى بنته ذؤابة وامرأته.

ثم إن أبا ذؤابة قال لها: يا بنتي إذا ركب بنو هلال ماذا يكون الجواب؟ وأنا حالف يمين أني أحارب الزناتي عشرة أيام. فقالت له: تمارض يعذروك، أما بنو هلال فدقوا طبولهم وركبوا خيولهم وتفقدوا الخفاجي فما وجدوه، فسأل عنه حسن فقالت الجازية: أنا أروح إليه، فراحت تلاقي ذؤابة تبكي، فسألتها عنه قالت: مريض، فرجعت أخبرتهم، فقال حسن: الخفاجي أقسم يمين يحارب الزناتي عشرة أيام وحاربه ثلاثة بقي عليه سبعة، فكان حاضراً أمير اسمه ظريف فقال: أنا أروح إليه فراح إليه وسأله عن حاله فأشار الخفاجي يجيب عن سؤاله، ثم وثب كالأسد وشد على جواده وتقلد بالحرب والجلاد وسار مع ظريف، فعندها زغردت البنات ودقت العماريات.

وبعد ذلك التقى الفارسان في حرب وصدام إلى أن انحل عزم الزناتي من شدة حربه، فولى هارباً وللنجاة طالباً، وحكم دربه نحو جناين الورد وكان الخطيب ماسكاً السيف بيده وإذا بالزناتي هارب والخفاجي لاحقه، فطلع الخطيب وطعن الخفاجي بين كتفيه، خرج يلمع من بين لوحيه، فرماه قتيلاً وفي دمه جديلاً، فغار الفريقان والتحمت الطائفتان وصاح على رؤوسهم غراب البين، أما ظريف صديق الخفاجي فلحق بالخطيب وطعنه، أصاب الجواد ورماه على الأرض، فرد الزناتي إليه وخلصه من بين يديه ولا زال القتال بينهم حتى ولى النهار فانفصلوا عن القتال وامتلأت الأرض من القتلى، وأخذ الظريف الخفاجي عامر إلى بيته وهو بحالة النزاع، فلما رأته ذؤابة طار صوابها.

وأفاق من صحوة الموت وكلمها ثم شهق شهقة واحدة وسلم الروح فقام عليه الصياح والتفت عليه العربان من كل ناحية حتى أملوا الروابي والبطاح وكسروا عليه السيوف والرماح وغسلوه وكفنوه وواروه التراب، يرجع قولنا إلى الزناتي فإنه دق الطبل ونزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فما برز إليه أحد، فقام حسن وقال: علامكم يا بني هلال ما أحد يبرز للزناتي؟ فما أحد رد له جواب.

فقال القاضي: مرادي أكتب أوراقاً تضعها في جراب، والذي تطلع ورقته ينزل للزناتي، فكتبوا الأوراق ووضعوها في الجراب ومد القاضي يده وشالها، فقال:

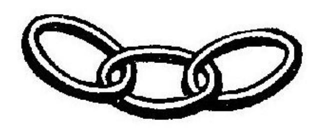
ورقتي فقالوا: انزل إليه فقال: احفروا لي قبراً جنب الخفاجي لأن أجلي قد دنا، فقالوا له: إذا لزم الأمر ما لها لا من زيد ولا من عمرو، فقام اشتد واعتد ونزل الميدان، فقال له الزناتي: من أنت؟ قال: أنا قاضي العربان. قال له: أنت القاضي وتعرف الحق من الباطل وتجهل حربي وتنزل لمبارزتي، ثم راح يهدد.

وسمع الزناتي تهديده فوقع فيما بينهما حرب شديد وضرب يقطع الزرد النضيد مقدار نصف ساعة، فقام الزناتي في عزم الركاب وضرب القاضي بدير على كتفه الأيمن شقه نصفين إلى الخاصرة، فوقع القاضي قتيلاً وفي دمه جديلاً، فلما رأى هلال أن قاضيهم قتل، التقت الرجال بالرجال حتى جرى الدم وسال وفاضت الروابي والتلال، وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار ودقت طبول الانفصال، فانفصلوا عن القتال حملوا القاضي إلى بيته وقاموا عليه الصياح وكثر النواح، فقال حسن: ما ينفع الميت هذا التعديد لكونه شيء لا يفيد، فغسلوه وكفنوه وفي التراب واروه، وعاد بنو هلال في حسرة على القاضي وثاني يوم دق الزناتي طبله وبرز للميدان وطلب مبارزة الفرسان، فقال حسن: هاتوا الجراب فجابوه تقدم مفضل أخو القاضي بدير ومد يده طلعت ورقته، لبس آلة حربه وبرز إلى الزناتي والتطم الفارسان في حومة الميدان وبدءا في الحرب والطعان، وما زالا في كر وفر حتى طار عليهما الغبار وقدحت حوافز الجوادين ناراً، وقد داما في الحرب والصدام مقدار خمسة عشر يوماً، حتى انذهل الزناتي من حرب مفضل، فضرب ديواناً وقال لقومه: من منكم يقتل الأمير مفضل يا فرسان؟

فقال الخطيب مطاوع: أنا أنزل إليه، وفي الصباح لبس آلة الحرب والقتال وبرز إلى الميدان، فنزل إليه مفضل وقال له: أين الزناتي؟ فقال: أنا جيت بالنيابة عنه، ثم هجم على مفضل ووقع بينهما الحرب والقتال، واختلف بينهما ضربات شديدة، فكان السابق الخطيب، ضرب مفضل على هامه حط رأسه قدامه، فلما رأت بنو هلال أن مفضل قتل، التطم الجيشان وزعق فوق رؤوسهم غراب البين، أما بنو هلال فنبذوا مفضلاً قتيلاً بعدما راح منهم خلق كثير، وأما الزناتي فعاد في غاية الأفراح وزالت عنه الهموم والأتراح، لكن بنته سعدى ما هان عليها بقتل أبطال بني هلال، وكان عند أبيها حكيم اسمه فتوح، فقالت له: أريد منك دواء يبري السقيم من لسع الثعبان لأن عندي جارية انقرصت، فأعطني لها دواء يقطع آثار السم، فلما حصلت عليه أعطته عبداً من عبيدها وقالت له: خذ هذا الوعاء وأعطه إلى أبي زيد وإياك أن تخلي أحداً يدري ما فيه ولك مني ما تريده، فأخذه العبد وأعطاه إلى أبي زيد فشرب منه فبرئ لوقته، وفي الحال دقت الطبول وزعقت الزمور وذهبت عن بني هلال الهموم،

فسمع الزناتي وعرف أن أبا زيد قد طاب، فقال: من يبرز منكم له؟ فقال الخطيب: أنا له وإلى ألف من أمثاله، فبرز إلى الميدان وعرض وبان وطلب الفرسان، فبرز إليه أبو زيد والتقى البطلان كأنهما جبلان، وحان عليهما الحين وزعق على رأسيهما غراب البين مقدار ساعتين، فقال أبو زيد في عزم الركاب وضرب الخطيب بالسيف على هامه، حط رأسه قدامه، فلما رأى قوم الزناتي أن مطاوعاً قتيل وفي دمه جندل، ولوا هاربين وإلى النجاة طالبين، فلحقهم أبو صبرة وبنو هلال، ودعوا منهم القتلى تلول تلول وجابوا خيلهم وعددهم وعادت بنو هلال بالعز والإقبال، وأما أهل الغرب فوقع فيها الذل، فعند ذلك أرسل الزناتي الأخبار إلى ملوك الشقور، وكانوا سبعة ملوك وكل ملك يملك على ألف عنان، يقول لهم: إنه قد أتانا عساكر وعربان ومعهم مكاسب لا يمكن وصفها، فبادروا الآن لنأخذهم في حد السيف والسنان، فلما وصل الخبر إليهم جاؤوا بالحال، فوصلت أخبارهم إلى بني هلال، فقال أبو زيد: علي فيهم وحدي بعون الواحد القهار.







# الجزء السابع عشر: قصة عقل بن هولا

فلما فرغ أبو زيد من كلامه، دعوا له بطول العمر والبقاء وركب في قومه بني زحلان وأخذ أولاده معه مخيمر وشيبان وأخذ معه من بني زغبة ألفين وساروا إلى ملتقى الملوك ثلاثة أيام، حتى وصلوا إلى وادي النسور وكمنوا للقوم في الليل، ولما أصبح الصباح أقبلت عليهم الجيوش مثل الغمام، فصاح أبو زيد بصوت مرعب، ومال فيهم على الميمنة وشيبان وباقي القوم على الميسرة، حتى أفنوا الجنود وقتلوا السبعة ملوك وجيوشهم وكسبوا خيولهم وأسلحتهم، وبعدها جمع أبو زيد عسكره ونزلوا ربطوا في الوادي خوفاً من غيرهم، فهذا ما كان من أبي زيد ورفاقه.

فيرجع الكلام إلى الزناتي، فلما بلغه الخبر دق طبله وبرز إلى الميدان، فبرز إليه زيدان بن غانم شيخ الشباب، فقال الزناتي: من أنت؟ فقال: أنا الأمير زيدان بن غانم. فلما فرغ خليفة من كلامه، وقع بينهما الحرب الشديد إلى آخر النهار، دقت طبول الانفصال وثاني يوم جاء الأمير زيدان بالطراد، فولى الزناتي هارباً وزيدان وراءه إلى باب المدينة، فقفلوا الأبواب في وجه زيدان وكانت خطيبة زيدان معه وهي بنت عمه اسمها ضيا، فلما تزاحم القومان جفل جملها فأخذها قوم الزناتي، ولما رجعوا من القتال أمر الزناتي سعدى أن تبقي ضيا عندها.

وللحال قامت سعدى بإرسال ضيا لعند أهلها وأما خليفة فقال لقومه: كيف رأيتم يا فرسان من منكم يلقى طراد زيدان، وكان للخليفة ابن أخت يسمى مطاوع، فقال: يا خال أنا له، فقال خليفة: أنت لست من رجاله، فقال: صدقت يا خال، لكن دعني أعمل ما بدا لي، فأخذ مطاوع رجاله وحفر ثلاث حفر وغطاها، ثم دق الزناتي طبله وخرج إلى الميدان، فخرج إليه زيدان فالتطم الاثنان كأنهما أسدان كاسران وحان عليهما الحين وصاح فوق رأسيهما غراب البين، فأراد زيدان أن يضرب خليفة بالرمح، فولى خليفة وهرب نحو الحفائر، فجرى وراءه زيدان فوقع في الحفرة هو والحصان، فرجع له مطاوع وضربه على هامه، حط رأسه قدامه وأرسل رأسه ووضعه مع رؤوس الأمراء على سور تونس، فاشتبك القوم وأطبقوا على بعضهم إلى أن ولى النهار ودقت طبول الانفصال، فرجع الفريقان وباتوا إلى الصباح، وثاني يوم برز الزناتي للميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه بدر بن غانم أخو زيدان

فوقع بينهما ضربتان قاطعتان، وكان السابق بالضرب الأمير بدر، ضرب الزناتي بالرمح فخلا منه وثنى عليه بالسيف، فأخذها بطارقة البولاد وثلث عليه بالدبوس، فخلا عنه ببراعته، فاعتدل الزناتي على ظهر الحصان، وضرب بدر بالسيف فقطع رأسه وأرسله إلى تونس، فوضعوه مع رأس أخيه زيدان، وكان لبدر ولدان، واحد اسمه عقل والثاني نصر، وكانا أفرس أهل الوقت وأجمل أهل العصر، فقال عقل: لا بد أن أقاتل الزناتي في غد، وكانت والدتهما أخت السلطان حسن، تسمى هولا، فسمعت عقل يقول ذلك الكلام فخافت عليه من الزناتي لأنه بطل مغوار، ومتى انغلب يدبر حيلة في قتل من نازله، فأشارت هولا تنهي عقل عن حرب الزناتي.

لكن هولا عرفت أن قولها لا يفيد، فذهبت إلى الأمير حسن وعرفته أمرها، فأتى لعند عقل وصار ينهيه عن قصده فلم يرجع عن عزمه، فقال له: الله ينصرك عليه، فلما أصبح لبس عقل آلة الحرب والكفاح وصار في الميدان وعرض وبان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه الزناتي خليفة وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نقتل كبارهم يجونا صغارهم، فالتطم الاثنان كأنهما جبلان أو أسدان يزأران، حتى حمى عليهم الزرد فعرف الزناتي أن عقل فارس لا يطاق ومن صغر سنه خبير بطعن السنان وضرب اليمان، وصارت الزينات تنخي عقل وتقول يا حامي الزينات، وعقل قد زاد حربه وأشبع الزيناتي من ضربه، ولا زالا في قتال وجدال لحين الشمس مالت للزوال، فدقوا طبول الانفصال، ولما أصبح الصباح ركب القومان والتحم الفريقان فبرزوا إلى الميدان وصاح على رؤوسهم غراب البين، وأما أبو سعدى فكل وذل وضعفت قواه وانحل، فلوى عنان جواده وولى هارباً وإلى النجاة طالباً، فتبعه عقل وقذفه بالدبوس، رماه على الأرض فأدركه قومه وخلصوه، فانحدف عليهم عقل وبنو هلال وعظم الحرب والضرب، ولم يزالوا بالقتال حتى ولى النهار وأقبل الليل، فدقت طبول الانفصال، فعاد الزناتي منزعجاً وصار يوصي فرسان قومه على قتل عقل، ويقول وعمر السامعين يطول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو سعدى الزناتي خليفة | ونيران قلبي زايدات ضرام |
| فمن منكم ينزل إلى عقل يقتله | ويدعيه في وسط اللحود ينام |
| أعطيه سعدى تكون له حليلة | ويكون عندنا في أعز مقام |
| يشتفي مني الفؤاد بقتله | وأكيد العدا في حرب وصدام |

فلما فرغ خليفة من كلامه وقومه يسمعون نظامه، فقام ابن أخته مطاوع وقال: يا خال أنا له إن كان ما قتلته يحرم عليّ نقل الرمح ما دمت حياً ويحرم علي الفرح والعز والهنا، فقال خليفة: الله يعينك عليه، ولما أصبح الصباح ركب مطاوع جواده

واعتدل في عدته وجلاده، ودقت طبول بني هلال وركبوا الخيول وركب عقل أولهم وهو ينادي اليوم ولا كل اليوم، فلما رآه قوم الزناتي ولوا هاربين وفي أولهم مطاوع، فقال له خليفة: لماذا انهزمت يا ابن أختي؟ فقال: انهزمت قومنا وما بقي أحد، فلما وصل عقل تحت سور تونس فطلعت بنت الزناتي الثانية وكان اسمها بسمة، فنظرت إلى عقل فوقع هواه في قلبها وملك فؤادها.

وتكلم عقل وكانت بسمة تسمع نظامه، فعاد مطاوع وبرز إلى الميدان فاستقبله عقل وانعقد غبار القتال حتى سد منافس الأقطار وداما في حرب وصادم وافتراق والتحام، وقدحت حوافر الجوادين ناراً، فيا لهما من أسدين ضرغامين وبحرين متلاطمين، أما مطاوع فرأى قدامه فارساً كراراً وأسداً مغواراً ورأى من عقل حرباً حير عقول الأبطال، فعول على الهرب والفرار، فاشتلق عليه قوم الزناتي فغار على عقل ثلاثة منهم وأحاطوا به، فضرب واحداً منهم أرماه وغار على الذي قدامه،فهرب الباقون من أمامه، فغار على قوم الزناتي وكل فارس ثبت أمامه زوره المقابر، فنزل إليه الزناتي ومطاوع والعلام وعلام ابن نجدة اثنين من قدام واثنين من وراه، وغدره مطاوع في طعنة من ورائه، فقال الزناتي: خذوه، فتزاحمت عليه الرجال، فراح جسم عقل تحت حوافر الخيل، ما بان له أثر، ودقت طبول الانفصال فرجع القومان إلى الأطلال، وكان لعقل أخ يسمى نصر، فقال: غداً أنزل إلى الميدان آخذ ثأري من هؤلاء الأعداء الغادرين، فلما سمعت أمه هولا بكت بكاءً شديداً وتحسرت على عقل تحسراً عظيماً. لكن ولدها نصر طيب خاطرها، وفي ثاني الأيام بزر نصر إلى الميدان، فبرز إليه الزناتي وظن أنه عقل، فقال: لقد عاش عقل ورجع إلى الحياة فصدمه الأمير نصر صدمة جبار، فالتقاه بقلب أقوى من الصوان والتطم البطلان كأنهما جبلان واختلف بينهما ضربتان قاطعتان، كان السابق نصر، فالتقى السيف بالدرقة فنزل على رقبة الجواد براها كبري القلم، فوقع الزناتي على الأرض، فأدركه قومه في جواد وأركبوه ومالت المواكب وهاجت الكتائب، وما عاد يعرف العدو من الصاحب، وبقي السيف القرضاب يجز الرقاب، حتى مالت الشمس إلى الغياب، فدقوا طبول الانفصال وباتوا يتحادثون إلى الصباح، فركب نصر وبرز إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه مطاوع والتحما بالحرب الشديد، فاختلف بينهما ضربتان كان السابق نصر، فشك رمحه في صدر مطاوع، فأطلع السنان يلمع من ظهره، فوقع قتيلاً وفي دمه جديلاً، فعندها غادرت قوم الزناتي وحملت على بني هلال وزادت المصائب والأهوال، والتحم الفريقان في المجال وأمر الزناتي في أناس تقاتل وأناس تحفر حفاير، وما زال الحرب والقتال حتى وقع نصر في حفرة،

فغار عليه الزناتي وضربه بالسيف على هامه، حط رأسه قدامه، فأخذوه وأمر أن يحطو رأسه على سور تونس جنب رأس عقل، فغار القومان وتزاحم الفريقان وزعق فوق الرؤوس غارب البين، ولم يزالوا في القتال حتى ولى النهار وأقبل الليل، فرجعوا عن الحرب والصدام ودفنوا نصر بجانب أبيه ولحق بعمه وأخيه، وأما أمه وأخته وقريباته فقد قصصن شعورهن وأقمن الأحزان.

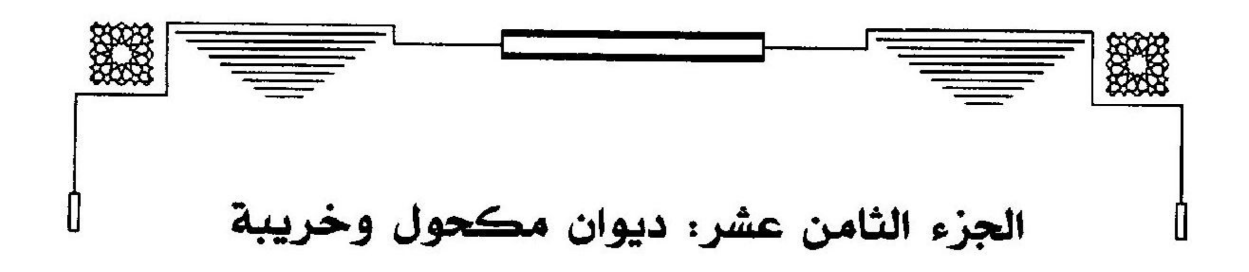
وطفقت أمه تندبه، وكذلك فعلت أخته فتنة، فلما فرغت فتنة من كلامها، أقاموا النواح على القبور وقال غانم: أنا بعد أولادي لا أريد حياة، ومرادي أنزل للزناتي إما أقتله وآخذ بالثأر أو يقتلني وأستريح من الأحزان، فبرز إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز الزناتي وأنشد:

قال الزناتي ابن مهران صادق    ولي قلب أقوى من حجر صوان
أنت علينا يا أمير اعتديتم    زرتم بلادي وخربتم البلدان
قتلت أولادك راحوا بزاتهم    بدر الفتى المسمى أخو زيدان
وأولادهم برزوا يريدوا قتالنا    عقل وأخوه زينة الشبان
قتلتهم وراحوا بغامض الثرى    وصفيت رؤوس الكل على الحيطان
تسعين أمير صاروا رؤوسهم عندي    ورملت من بعدهم ترى النسوان
ما عاد إلا أنت يا أمير جيتنا    فأنت شايب بالكبر وزمان
فروح يا مسكين لا يقل عقلك    ما يلتقي حربي سوى المردان
فارجع روح صلي واعبد ربك    واختم لهم في سورة الرحمن

فلما فرغ من كلامه التقى البطلان كأنهما جبلان، ولم يزالا في قتال وجدال حتى دقت طبول الانفصال، فرجعا عن الحرب والكفاح ولم يزالا على ذلك الحال مدة شهر، وبعد ذلك كل الأمير غانم وما عاد ينزل إلى حربه ولا أحد غيره ينزل، فضرب الزناتي ديواناً وقال لقومه: ما رأيكم؟ فتقدم ابن عمه العلام.







# الجزء الثامن عشر: ديوان مكحول وخريبة

فقال الزناتي: ما قتل دياب مع الذين قتلناهم، قال العلام: دياب في وادي الغباين مع جيوش بني هلال، قال الزناتي: مرادنا نرسل له من يقتله ويجيب البوش منه، والتفت إليه أخيه أبي خريبة وهو فارس صنديد، فأمره في الركوب إلى وادي الغباين ويجيب البوش منه، فقال: سمعاً وطاعة، وركب من ساعته وأخذ معه عشرين ألف فارس قروم عوابس، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى وادي الغباين وغاروا على بوش بني هلال، وأرادوا أن يسوقوه بالعصي، فقامت الرعيان بالسياط والصراخ، فلما سمع دياب ركب جواده وطلعت فرسانه وراءه والتحم الحرب بينهم بطعن يقصف الأعمار، وصار بينهم ضرب مثل النار، فعندها قام دياب في عزم الركاب وضرب أبا خريبة بالسيف على هامه حط رأسه قدامه فوقع على الأرض يختبط بدماه ولما رأى قومه أن أميرهم قتيل ولوا هاربين وإلى النجاة طالبين، فلحقهم بنو زغبة ومدوا السيف في أعناقهم، وما سلم منهم إلا الذين وصلوا إلى عند الزناتي وأخبروه عن قتل أخيه، فاستدعى أخاه الثاني وكان اسمه مكحول، وقال له: خذ قومك وامض إلى دياب بن غانم، خذ ثأرك منه وانهب بوش بني هلال، ومهما جبت من هؤلاء يكونوا هبة مني إليك، فركب بعسكر مقدار خمسين ألف همام، وسار إلى أن وصل إلى الوادي، وكان دياب وقومه في الصيد وما بقي عند البوش إلا مقدار ألف فارس فغارت عليهم خيل مكحول وساقوا البوش جميعه، فراح الصوت إلى دياب وأعلموه في الخبر، فعندها غار حتى وصل إلى القوم وهجم على مكحول والتطموا في الخصام وتجرعوا شرب كأس الحمام، فضرب مكحول دياب في الرمح، فقام دياب رجله من الركاب وأخذها من تحت فخذه وطعن مكحول في الرمح، فأراد أن يخلي منها مثل دياب، فجاء الرمح في صدره طلع يلمع من ظهره، فوقع قتيلاً وفي دمه جديلاً، فأخذ درع وجواده وغادر على قومه وبدأ يذبح فيهم حتى قتل مقدار عشرة آلاف فارس والباقون هربوا، فلما وصلوا عند الزناتي، أعلموه بقتل أخيه فغضب غضباً شديداً وبرز إلى الميدان عرض وبان، وطلب مبارزة الفرسان، فما أحد رد عليه.

وإذا بغبار علا وطار حتى سد منافس الأقطار، وبان من تحته فرسان على

خيول أخف من الغزلان، وإذا هو الرياشي مفرج الذي كان مع أبي زيد في غزوة ملوك السفور، فحول وسلم عليهم، فسألوه عما جرى له، فصار يخبرهم في أول الكلام وإذا ببيارق حمر قد طلعت وأبو زيد بأول الخيل، فلاقاه الأمير حسن وبنو هلال وهنؤوه بالسلامة وفرحوا في ملقاه، وطلعت النساء والأولاد وأهالي القتلى الذين قتلهم الزناتي وقعدوا على المقابر لابسين السواد هاتكين الستور باكيات نائحات، ووصلت الخيل التي أتى بها أبو زيد من الأعداء والمكاسب والغنائم وأخبر السلطان أبا زيد بما فعل بهم الزناتي وكم أباد من الفرسان، فلما سمع أبو زيد قول حسن، صار الضياء في وجهه كالظلام، وحزن حزناً شديداً على من قتل من الفرسان، وعندها قام ومر على المقابر وشاهد النساء والبنات، فلما شاهدن أبو زيد رفعن أصواتهن في البكاء، فطيب خاطرهن وقال لهن: إن أراد الله نأخذ لكن بالثأر ونترك ديار الزناتي خراباً، ثم دخل عند عليا وبات لثاني الأيام وقسم الأموال وأعطى حسن جزءاً، وشال إلى دياب قسماً، وثاني يوم برز أبو زيد إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان وتعرض تحت أبواب تونس ونادى الزناتي يبرز إلى الحرب وللالطعان، فما أحد رد عليه، فوقف تحت الأبواب المسكوكة ولا أحد يخرج ولا يطلع سوى النسوان التي فوق الأسوار يتفرجن، فعندها صاح في البواب افتح أو أرسل مولاك، فسار البواب لعند الزناتي قال له: قم كلم، أبو زيد واقف بالباب يريد يواجهك، فقال الزناتي: من يقدر يشوف عزرائيل ويسلمه روحه، قال البواب: افتح له لكي يواجهك، فقال له: دير بالك وهات المفاتيح، فعند ذلك أخذ المفاتيح وقال: اقعد خلف الباب وإذا أحد سأل عن سيدك، فقل له: لن يواجه أحد، فعاد البواب وأعلم الأمير أبا زيد بذلك.

يرجع الكلام إلى الأمير حسن، التفت إلى أبي زيد وقال له: ما دمت جيت ما بقي الزناتي يفتح الباب ولا يطلب حرباً وفي غيبتك ياما عمل من الأعمال، ثم إن الأمير أبو زيد قال لهم: قصدي أعمل حيلة تسوى قبيلة، اندهوا للجازية، فندهوا إليها فحضرت بين أيديهم، فقال لها أبو زيد: مرادي أن تجمعي مائة بنت من أحسن بنات العرب وأحضريهن في الليل فأحضرت مائة بنت إلى الأمير أبي زيد، فقام ولبس ثياباً بيضاء مثل النسوان ولبس درعه وتحزم بسيفه وسار هو والبنات والجازية، وكان نصف الليل إلى أن وصلوا إلى بوابة تونس، فقال أبو زيد: اقرعي الباب، فنادى البواب: من يقرع أبواب تونس في هذا الليل؟ فقالت الجازية: نحن من بنات العرب جئنا ومعنا بضائع لكي نبيع ونشتري من عندك على قدر احتياجنا. فقال لها البواب: روحوا لن أفتح لكم الباب في الليل. ثم إنها تدخلت عليه فذهب إلى الزناتي وأخبره

بالبنات على الباب، فقال له: اذهب أنا قرأت كتبهم قبل ما يحضروا إلى هذه البلاد؛ لأن هذه حيلة من حيل أبي زيد، ثم إن البواب رجع إليهن وأخبرهن بما قال الزناتي، ثم إن الجازية ابتدأت بالمنادمة هي والبواب وأشارت تنشد والبواب يجاوب.

فلما فرغت الجازية هي والبواب من المنادمات والبنات يسمعون كلامهما، أخذهم الأمير أبو زيد ورجع إلى ربعه، يرجع الكلام إلى مرعي وسعدى، فقال لها: يا سعدى إلى متى الانتظار وقد طال علينا المطال، وأبوك لا يطلع إلى محاربة أبي زيد ولا يفتح الباب، فضحكت سعدى وقالت: أنا أفض هذا المشكل؛ لأن ما يقتل أبي إلا الأمير دياب؛ لأنه بان عندي في الكتب، ولكن سأروح الليلة لعند السلطان حسن وأدعيه يجيب دياب، فلما دخل الليل استدعت أربعين بنتاً من بنات الأمراء مثل الأقمار، فلما حضرن قلن: ما تريدين؟ فقالت لهن: أريد آخذكن معي لنتفرج على بنات هلال والأمير حسن أبو المحابيس الذي عندنا، ونرجع في هذا الليل، فقلن: سمعاً وألف طاعة، ثم أمرت لهن بأربعين خلعة من خاص الحرير والديباج الملون وأمرت بأربعين جواداً من خيرة الجياد، وركبت سعدى أمامهن مثل البدر المنير لأنه ما كان يوجد في عصرها أحلى منها، وتقلدت البنات بأفخر السلاح إلى أن وصلن إلى باب البلد، وقالت للبواب: افتح الباب، إياك تتكلم قدام أحد، فأعدمك الحياة، فقال لها: يا ستي المفاتيح مع أبيك أخذهم مني، فقالت: أنا لا أحتاج إليها معي مفاتيح، وفتحت الباب وخرجت هي والبنات وأمرت عبدها الطواشي يقعد على الباب لحين رجوعهن، فقعد ينتظر رجوعهن، فعند ذلك سارت سعدى والبنات حتى وصلن إلى الحارس، فقال العبد: ما هذه الخيل في هذا الليل؟ فقالت سعدى: ضيوف، فقال: مرحباً بالضيوف الكرام، فقالت: أين الأمير حسن؟ فقال لها: نايم، فقالت: قل له سعدى بنت الزناتي تريد تواجهك وترجع بالليل، فقال لها: انتظري، ودخل لعند جارية اسمها مباركة، وقال لها: اعلمي مولاك أن بنت سلطان تونس حضرت لعندنا، فدخلت وأعلمت مولاها حسن، فتعجب من حضورها بالليل، فخرج وقال لسالم: ما الخبر؟ فأنشد سالم يقول:

| | |
|---|---|
| يا مير جانا سربة خطارة | ملوك متقطرين قطارة |
| يا أمير جونا من بلاد بعيدة | وأنا بأمري يا ملك محتارة |
| ارتاع قلبي من منظرهم | شبهتم يا أمير شعلة نارة |
| ما راعني إلا الخيول ولبسهم | وكلهم يا أبو علي عالمهارة |
| ولبسهم ديباج بلون واحد | من الذهب فوق الصدور زراره |

فلما فرغ العبد من كلامه، فرح الأمير حسن، وقال للعبد؟ اعزمهم، فراح العبد

وعزمهم ونزلهم عن خيولهم وربطها ومشى قدامهم، فسلمت سعدى على السلطان، وعرفته بنفسها وبرفيقاتها، فسلم عليهن وأما أم مرعي لاقتها وضمتها إلى صدرها، وقالت لها: دخلك مرعي كيف حاله؟ وسلمت عليها سلام الأحباب ثم قالت له: يا بو علي لا يكون عندكم افتكار نحو مرعي ورفاقه؛ لأنهم في أعز مكان، وإنما الرأي عندي أن ترسلوا تجيبوا دياب ابن غانم، فشكرها الأمير حسن وأثنى عليها وأرسل إلى أبي زيد يحضر عند سعدى فحضر وسلمت عليه وشرحت له الكلام ووعدت حسن وأبا زيد وأكدت عليهم ليرسلوا وراء دياب، وذهبت هي والبنات معها حتى وصلن إلى القصر، هذا ما كان من سعدى.

ويرجع الكلام لحسن وأبي زيد، بعدما ذهبت سعدى قال حسن: كيف يكون الرأي يا بو زيد؟ فقال: أنا إن هلكت بنو هلال ما أرسلت وراء دياب، قال حسن: وأنا كذلك، فقال أبو زيد: أحضر البنات وأمرهن أن يكتبن إلى دياب ويطلبنه لأخذ الثأر، فأول ما تقدمت ذؤابة بنت الخفاجي عامر، كتبت مكتوباً وقصت شعرها ووضعته فيه وحطته قدام جدها غانم وقالت: اكتب مكتوباً إلى ولدك لكي يفرج همنا، فكتب غانم إلى ولده كتاباً وضمنه:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى غانم على ما جرى له | بدمع جرى فوق الخدود سكيب |
| ونيران قلبي كلما أقول تنطفي | يهب لها ضمن الضلوع لهيب |
| على ما جرى فينا وما قد أصابنا | وأمر جرى فينا تراه عجيب |
| يا من يودي إلى دياب رسالتي | إلى أمير بالوغا غريب |
| وقوله يا فارس الناس كلها | ويا عز من نقل القنا وقضيب |
| وأنا كبرت وما بقي لي حيل | وعزمي غدا مني وراح ذهيب |
| وعمك مسلم عم الشيب رأسه | ما عاد له عزم ولا ترتيب |
| وبدر وزيدان يا ديب إخوتك | قتلهم الخليفة أمس وقت المغيب |
| عقل ونصر أولاد أخوك قتلوا | وقد دعاهم فوق الوطا عطيب |
| وخرب أبو سعدى جميع ديارنا | وما عاد لنا سامع ومجيب |
| ألا يا دياب الخيل أسرع نحونا | واقتل خليفة يا أمير غصيب |
| وإن كان ما تقتل خليفة برمحك | ترى البيض تلفظ كلام معيب |
| وتبقى الهلاليات جميعاً مع العدا | يروحوا سبايا لكل ندل ورهيب |
| قتل خليفة ابن عمك زامل | وأخوك غدا ما عاد فيه نصيب |
| ضرب مفضل ضربة أباده | وراح على وجه التراب نحيب |
| ثمانين أميراً من هلال وعامر | ادعى دماهم على الوطا سكيب |

ونزل معيقل للزناتي وحده وقلنا معيقل بالطرود لبيب
انحدر على جمع الزناتي خليفة تلقاه أبو سعدى كنار لهيب
ضرب معيقل ضربة عامرية ألقاه على الوطا خلاه قليب

وقال لعبده: خذ هذه المكاتيب إلى مولاك دياب، ولا تجيني إلا وهو معك، وإن رجعت بلاه أعدمك الحياة، فعندها أخذ المكاتيب وسار طالباً وادي الغباين، فوصل ووجد مولاه دياب والعرب على الطعام، فصبر حتى رفعوا الطعام، فدخل على مولاه ووضع المكاتيب بين يديه، قال له: يا سعد أرى وجهك أصفر فما عندك من الأخبار؟ وأشار يسأل العبد.

ثم بدأ يقرأ المكاتيب واحداً بعد واحد حتى انتهى، فقال: إني أرى مكاتيب البنات ومكتوب والدي، فأين مكاتيب الأمير حسن وأبي زيد؟ فقال: يا مولاي هذه ثمانون مكتوباً ألا تكفيك حتى يرسل لك حسن وأبو زيد؟ فقال دياب: أنا جيت هذا المكان برأيهم، ما جيت بشور البنات، فكيف أروح على كلام البنات حتى يقول لي حسن وأبو زيد: ومن أرسل وراك؟ فقال العبد: إن البنات ما كتبن المكاتيب إلا بأمر حسن وأبي زيد، فقال له: إن رحت أنا على كلام البنات وقتلت الزناتي لا يعدونها لي، وإن تكلمت يقول لي حسن من بعث وراك؟ فماذا يكون جوابي لهم وهذه آخر الوقعات بين وبين الزناتي ومرادي أملكهم الغرب كما ملكتهم الشرق، فإن كان مقصد بني هلال حضوري هات لي مكتوبين وحجتين من حسن وأبي زيد، ثم إنه أحرق مكاتيب البنات، قال العبد: أنا إن رحت وحدي فإن البنات يقتلنني، قال له دياب: أنا أكتب لك الجواب. ولما فرغ من تسطير الكتاب طواه وختمه وأعطاه للعبد فأخذه وسار طالباً بني هلال، فلما وصل إلى غانم أعطاه الكتاب ففضه وقرأه، فاستدعى البنات وقرأ عليهن المكتوب وقال: إنه لم يأت لأن حسن وأبا زيد لم يرسلا له مكاتيب، وإن لم يرسلوا له لا يأتي ولو انقطع بنو هلال، فرجعت البنات ودخلن عند حسن باكيات وقلن له: يا حسن أرسل لنا وراءه في هذه الساعة، ليأخذ لنا بالثأر ويكشف عنا العار، وإن لم ترسل وراءه نروح كلنا لعنده، فعند ذلك استدعى أبا زيد وقال: انظر هؤلاء البنات وما مرادهن واكتب لهن مثل ما يردن واسترنا معهن، فقال أبو زيد: يا حسن أنا ما أكتب ولا أرسل وراءه؛ لأني لا أحبه ولا أطيق ذكره، فقال حسن: وأنا كذلك، فأرسل خلف أبيه غانم ودعه يذهب خلفه فعند ذلك أرسلا وراء غانم فحضر فقال حسن: يا غانم مرادنا منك أن تذهب إلى ابنك دياب تجيبه، فقال غانم: يا حسن، ابني لا يأتي ما لم تكتبوا له أنت وأبو زيد، فلما أصبح الصباح عول والد دياب على السفر وحرر مكتوبين على لسان حسن وأبي زيد إلى دياب، وأخذهما

معه وركب هو وامرأته وسارا طالبين دياب، وأرسل عبد يعلم ابنه في قدومه إليه هو ووالدته، فلما وصل العبد إلى دياب وأخبره بقدومهما إليه، ذهب لملاقاتهما وتوجه إلى أمه وأنزلها من الهودج وقبل رأسها وقال: ما الذي أتى بك إلينا؟ فأجابت تقول:

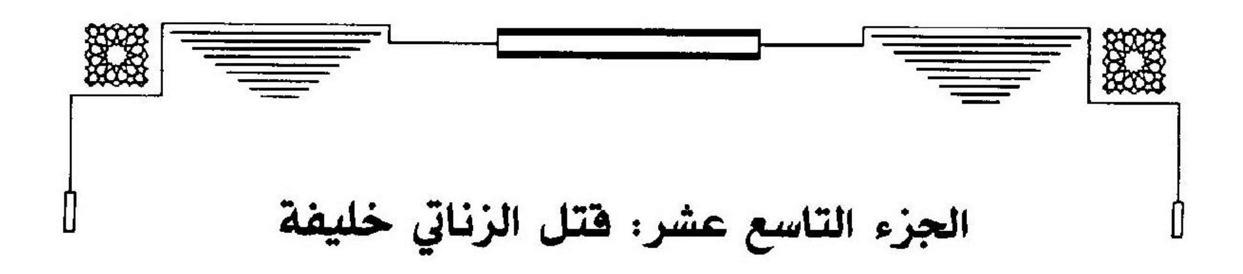
تقول فتاة لوَّع البين قلبها ... ارجع إلى قومك واصل الزمايم
ونحن يا أمير جئنا لعندك ... فما هذا الرجا منك يا ابن الأكارم
ضيعت حق من رباك والدك ... وسفهت قولي يا قليل الحشايم
ولو كنت يا ابني حافظ مكانك ... فما كان العدا دعونا هزايم
أغظت غانم يا أمير وغظتني ... وعاد دمعي فوق الخدود سجايم
ترى الزناتي قد قتل من رجالنا ... إخوتك وكبارنا راحت عدايم
وخالك بدير مع الخفاجي عامر ... ومن غيرهم جملة أمارة أكارم
فقم بنا نرجع إلى نجد أرضنا ... نعيش بها من خير فضل ابن غانم

فلما فرغت الأم من كلامها، أشار دياب يقول:

يقول الفتى الزغبي دياب ابن غانم ... غضبتم علينا يا وجوه الأكارم
أنا لأجلك أقتل خليفة بساعدي ... وأدعي دماه فوق الأرض عايم
وآخذ لثأر زيدان بسيفي والقنا ... وأدعي خليفة عالثرى نايم
فلا بد أنصركم وأشفي قلوبكم ... أنا جيتكم ما عاد فيها مراحم
وأنت يا أمي افرحي وابشري ... من فوق خضرا مثل طير الغمايم
وتعرفي الفرسان في حومة الوغى ... إذا جيت للميدان ولوا هزايم
فلا بد أن آخذ بثارات إخوتي ... وثارات خالي والقروم الأكارم

فلما فرغ دياب من كلامه وأمه تسمع نظامه، فطاب خاطرها وتوجهت إلى الخيام واستقبل بعد ذلك أباه، فسلم عليه وقبل يديه، فقال: لا تكلمني لا أنا والدك ولا أنت ابني أنا بريء منك لو كنت ابني كنت سمعت كلامي وأخذت لي بثأري من الزناتي الذي قتل إخوتك أولادي وأحرق فؤادي.

فلما فرغ غانم من كلامه وولده دياب يسمع نظامه، فقال لأبيه: إذا كنت لم تأت بمكاتيب ما أروح، ولو ما فضل أحد من بني هلال، فأعطاه المكاتيب ففضها وقرأها وعزم على الحضور وأمر بذبح الأغنام وعمل الولائم والضيافة ثلاثة أيام، فأسرت أم دياب لولدها، يا ابني أبوك خرف وما عاد له عقل لأنه دعا عليك قدامي وما هان علي، فقال: يا أماه دعاه علي ما في بأس لأنه من حزنه على أولاده ومقهور من الزناتي ومن فراقنا، ولكن إن أراد الله تعالى أروح معكم وأطلب رضاكم وآخذ لكم بالثأر بعون العزيز الجبار.



# الجزء التاسع عشر: قتل الزناتي خليفة

(قال الراوي): فلما فرغ دياب من كلامه وأمه تسمع نظامه، فرحت وقالت: يا غانم مرادنا نسير لأن بني هلال في انتظارنا، فقال: تأهبوا حتى نسير ونعلم بني هلال أن دياب يحضر يوم الأحد لعندهم، فركبوا وساروا حتى وصلوا إلى بني هلال، فكانت ضجة قوية، فقالوا: أين دياب؟ فقال غانم: نهار الأحد يكون عندكم. أما دياب بعد ذهاب والديه أمر الرعيان بلم البوش من كل جانب ومكان وساروا قدامه طالبين بني هلال بأبطاله وفرسانه الذين معه، ثم قلعوا الصيوان وأمر العكام بأن يسبقه وينصب سيفه على أبواب تونس في نصف الميدان،ثم دق طبوله ونشر أعلامه حتى بقي بينه وبين بني هلال يوم كامل، وكانوا جميعهم في انتظاره، وثاني يوم الأحد خرجت الأربع تسعينات ألوف واستقبلوه بالطبول والنوبات وزالت الهموم والأتراح بقدوم دياب وأدخلوه إلى الحي بنوبة سلطانية عظيمة، وأما أهل القتلى فإنهم اجتمعوا على التراب وهم في السواد وأثواب الحداد، لكي يشكوا إلى دياب ما فعل الزناتي بهم، وأما حسن وأبو زيد فبقيا في الصيوان وما خرجا من الخيام، وأما دياب لما لم يجد حسن وأبا زيد، عرف المضمون وإنما أخمد الكمد وأظهر الصبر والجلد، ولم يزل سائراً في الموكب العظيم حتى وصل إلى تونس، فرجت منه الأرض وطلعت النساء على الأسوار للفرجة على الزينة، وارتعد الزناتي خليفة ومن عنده وقال: الله يعيننا على حربه، وأما دياب فرفع رأسه إلى سور تونس، فوجد رؤوس الأمراء وهم ثمانون رأساً مشكوكين على الرماح، فسأل من هؤلاء؟ فقال له عمه عرندس هؤلاء رؤوس بني هلال الذين قتلهم الزناتي وهم أولاد عمك، فقال: كل هذا يجري في غيابي، وظل سائراً إلى التربة، فتقدم أهل القتلى والبنات وشالوا البراقع وحدفوها إلى دياب فطيب خاطرهم وخاطر فتنة بنت خاله.

وسار مع الموكب حتى دخل البيوت، فمر على صيوان الأمير حسن وأبي زيد، فوجدهما يتفرجان، فدخل وسلم عليهما فقاما له على الأقدام وأكرماه غاية الإكرام، وبعدما قام دياب وركب إلى بيته وتفرقوا كل واحد لمحله، وأما فتنة فصارت تخبر أباها بما حدث.

فلما فرغت فتنة من كلامها وأبوها يسمع نظامها، قال: مرادنا أحد يروح لعند

دياب يروي لنا الخبر عن حربه للزناتي، فقامت داية الحريم وقالت: أنا أكشف لك عن ذلك وسارت للصيوان، ولما وصلت إليه وجدته يلاعب بنتاً صغيرة اسمها نجيبة، ويقول لها: أين أطعن الزناتي؟ فقالت له: اطعنه بعينه! فقال: قولك مبارك، وحياتك ما أطعنه إلا بعينه، فرجعت الداية إلى عند الأمير حسن وأخبرته عما رأت من دياب ثم افتكر وأطرق رأسه إلى الأرض ساعة من الزمان ثم تنهد وأنشد يقول:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي ... الأجواد تختبي ليوم النوائب
وما سندنا إلا دياب ابن غانم ... لأنه صميدع من خيار القرائب
ويرجو من الرحمن يفرج همنا ... لأن العرب ذاقوا أعظم المصائب
عسى من الزغبي يجينا غاية ... ويقتل خليفة بين جمع المواكب
دياب أمير وابن أمير وأمير ... ولا مثله في شرقها والمغارب
قال الفتى حسن الهلالي أبو علي ... وقلبي فرح في ملتقى الحبايب

فلما فرغ حسن من كلامه وامرأته تسمع نظامه، واسمها نافلة وهي أخت دياب، لحظت على حسن أنه داخله الحسد من أخيها، فعند ذلك أشارت تقول:

مقالة التي قد نالت رجاءها ... ودمع عيني فوق الخدود سجايم
سعدنا في بني زغبة دياب ... شبيه البحر موجه جا يلاطم
فلما أقبلت خيله علينا ... ففرحت البيض داقات الوشايم
طبوله حوله يا أمير تنضرب ... شبيه الرعد بوسط الجو قايم
وخافوا الأعادي حين شافوا ... بني زغبي وهم نسل الأكارم
وقد قال الزناتي لأهل تونس ... يصيروا أهلها لنا خدايم
قالت التي قد نالت رجاءها ... نصرك يا حسن في ابن غانم

فلما فرغت من كلامها قال لها: يا نافلة عسى الأمير دياب يقتل الزناتي ونملك تونس ونخلص أولادنا، هذا ما جرى للأمير حسن ونافلة، فيرجع الكلام لدياب، فإنه قال لقومه: في الصباح احضروا جميعكم، قالوا: سمعاً وطاعة، ولما أصبح الصباح نهض الأمير دياب وطلب مبارزة الفرسان ولاعب الخضرا في أربعة أركان الميدان، وصال وجال ولعب بالرمح حتى حير عقول الشيوخ والشباب، ثم تقدم إلى أبواب تونس ودقها في عكاز المرح فارتج السور، فقال البواب: من؟ فقال: أنا دياب، أعلم سيدك الزناتي يخرج لحربي لكي يوفي الناس ديونها، وإن سألك عني فقل له دياب قاتل أخويك أبو خريبة ومكحول، فابرز إليه وخذ بالثأر. فمضى البواب وأعلم الزناتي. فضاقت في وجهه الدنيا، وما عاد يعي على حاله، فأرسل أحضر ابنته سعدى وقال لها: يا باغية ما أحد جلب لنا البلاء سواك، فلو كان من الأول تركتني

أقتل المحابيس وأبا زيد، كنا ارتحنا من بني هلال، لا أخاف إلا من دياب، فقالت سعدى: يا أبي لا تخف منه أنا أرده عنك، ثم مشت على شراريف القصر فرأت دياب يلاعب الخضرا، فنظر إليها وكف وجهه عنها لحسنها، وقال: ما اسمك وما تريدين؟ قالت: أنا سعدى وأنت ما تريد؟ فأنشد وأنشدت بدورها، ثم رد عليها دياب.

(قال الراوي) فلما فرغ الأمير دياب من كلامه، قالت له سعدى: قف عندك حتى أرسل لك أبي، وعادت لأبيها تحثه على حربه فركب الجواد وبرز إلى الميدان، وأنشد:

| | |
|---|---|
| اليوم يومك يا زناتي خليفة | فلا بد من سيفي تروح شلال |
| قال الفتى الزغبي ابن غانم | حل الوفا واشتقت أنا للمال |

فلما فرغ الأمير دياب من كلامه، والزناتي يسمع نظامه، فالتطم البطلان كأنهما جبلان وتصادما صدام الأبطال وضربت في حربهما الأمثال وقلق الزناتي من حرب دياب ورأى منه أبواباً ما كانت تخطر له بحساب، رآه بحراً ما له قرار، وما زالا في الحرب والطعان وهما في أشد ضيق إلى نصف النهار، فزاد الأمير دياب على الزناتي بحربه وعاد يفتل حوله على الخضراء مثل الصاعقة، فخاف الزناتي وانحل عزمه وولى من قدام دياب هارباً إلى أبواب تونس، ودياب لاحقه مثل الأسد الكرار، فهجم دياب وعسكره على قوم الزناتي والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال فيا لها من وقعة تشيب رؤوس الأطفال، وذهب من الفريقين عدد كبير من الفرسان والشجعان، وكان لتونس ثلاثة أبواب داخلة في بعضها باب صارة وباب منصور وباب حسرة، ففتحوا الأبواب حتى دخل الزناتي وسكروها، فضرب دياب الباب بالرمح فخرقه، فأطبقت قوم الزناتي على قوم دياب، فالتقاهم بسيفه القرضاب وهجم بنو زغبة وعظمت الأهوال وبطل القيل والقال إلى أن ولت الشمس للغياب، ودقت طبول الانفصال فاختبأ قوم الزناتي من خارج السور ورجع الأمير دياب وقومه إلى بني هلال، فهنأوه بالسلامة وأكلوا وشربوا وحضر الأمير حسن والأمير أبو زيد لعند دياب وعانقاه وهنأاه بالسلامة وجلسا معه للمنادمة والكلام، وأمر دياب في الذبائح وعمل الولائم فسألوه عن حرب الزناتي، فتبسم من قولهم وقال: أنا أكفيكم شره وأقصر عمره، فقالوا: يا دياب غداً اقتل الزناتي وملكنا الغرب كما ملكتنا الشرق، فقال: إن أراد الله تعالى، ولكن يا حسن الذي يقتل الزناتي يكون سلطان الغرب، فقال الأمير حسن: نحن أولاد عم وبين الأهل ما في فرق والرزق واحد والحكم واحد، ثم انصرفوا إلى حالهم، ولما أصبح الصباح برز دياب إلى الميدان، فبرز الزناتي وانطبقا

على بعضهما انطباق الغمام وطال بينهما الطعن والصدام، من شروق الشمس إلى وقت الظلام، فدقت طبول الانفصال وانفصلا عن القتال، أما الزناتي فعاد في أسوأ حال وأيقن بالهلاك، فضاق صدره واحتار بأمره، فطلع إلى قصره وارتمى على فراشه، ثم فتح شباك القصر ونادى ابنته سعدى فأتت وجلست مقابله في شباك آخر، فتنهد الزناتي وصار يعاتب سعدى.

فلما فرغ الزناتي من كلامه، قالت له سعدى: يا أبي إن لم أنم الليل من أجلك، ودائماً أطلب من الله أن ينصرك وينيلك مرامك وأنا أنثى لم أتعود على القتال والكفاح ومبارزة الأبطال، ثم إنها انصرفت والهوى غالب عليها، ولما أصبح الصباح طلعت بنو هلال من خيامها وركبت سوابقها، وأما الزناتي فأغلق أبواب تونس وما عاد يفتح ولا عاد له قلب للخروج إلى الميدان لخوفه من الأمير دياب الذي قام من نومه وتقلد سلاحه وركب الخضرا وبرز إلى الميدان، فحين نظره الزناتي هانت المنية عليه، فبرز لدياب وصدمه صدمة الجبار، وهاش الزناتي كالجمل فتلقاه دياب بالسيف وطار فيما بينهما الغبار حتى سد منافس الأقطار وحجب عنان السماء إلى الظلام، دقت طبول الانفصال وافترقا على سلامة، واستقاما على هذا الحال مدة شهرين، وفي آخر الأيام برز الاثنان إلى الميدان، فغضب دياب وزاد به الغضب وضرب الزناتي بالسيف، فأصاب جواده فرمى نفسه على الأرض وقد أيقن بذهاب الروح، فأدركه قومه في جواد من الخيل وأركبوه ومال عليهم دياب بالسيف القرضاب، وزاد نار الحرب التهاباً وقطعت منهم الزنود والرقاب، وساقهم دياب سوق الغنم ودخلوا المدينة وسكروا أبوابها، فطلع الزناتي إلى قصره فنام على فراشه وهو غارق في الأفكار لنصف الليل، فقام مرعوباً ونادى ابنته سعدى فأتت، ولما شاهدت حاله بكت وندمت وصارت تشجع والدها على حرب دياب، وثاني الأيام برز إلى الميدان فبرز إليه الأمير دياب ثم التقى البطلان، وكأنهما أسدان وما زالا في حرب وصدام إلى وقت الظلام، دقت طبول الانفصال. وثاني الأيام برز الاثنان إلى الميدان، ولم يزالا في حرب وصدام إلى وقت الظلام، فدقت طبول الانفصال. وثاني يوم برز البطلان، وأخذا في الحرب والصدام حتى أقبل الظلام، فدقت طبول الانفصال، وثاني يوم برز دياب إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه الزناتي وصار يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الزناتي أفرس الفرسان | في القلب مني زايدة نيراني |
| بليت فيكم يا هلال بلية | ربي بكم دون الملا أبلاني |
| قتلت منكم قوم ما لهم عدد | راحوا طعام الوحش والغربان |

صافف رؤوس رجالكم انظرها   على الصور منشورة وفي الصيوان
أنا خليفة يا دياب تحذر   يا ما قهرت أبطال مع شجعان
انزل عن الخضرا وبوس ركابي   واسلم بروحك لا تكون ندمان

فلما فرغ دياب من كلامه، التقى البطلان في الحرب والصدام، فبقيا في قتال شديد حتى ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، ودقت طبول الانفصال ورجع كل منهما إلى قومه، وقد ذل الزناتي بعد عز، وبكى على أحواله وملكه، وبات تلك الليلة في هم وأتراح إلى الصباح، كتب كتاباً يطلب فيه الصلح وأرسله إلى دياب، وكان دياب قد برز إلى الميدان، فلما وصل الرسول أعطاه الكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه، فتوجه لعند السلطان حسن وعرض عليه كتاب الزناتي، فقرأه أبو زيد على الأمارة، فبهتوا جميعاً مقدار ساعة، فقال أبو زيد: ماذا تقولون؟ فقال: الرأي عندك يا أبا زيد. فقال أبو زيد: الرأي أنكم تصالحوه ومن أبى عن الصلح يسأل الجازية فالتفتت إليهم وقالت أذل الله لحاكم يا بني العربان ذليتم عن حرب الزناتي ودياب أيضاً ذل معكم وهو شاطر في ركوب الخضرا وتعريض الصدر، وحالاً نادت النسوان وقالت: دونكن والخيل، فنحن نقهر الزناتي ونأخذ ثأرنا، والتفتت إلى دياب، وقالت له: انزل عن الخضرا حتى أركبها وأقاتل الزناتي وأنشدت تقول:

تقول فتاة الحي أم محمد   أنا أورد خليفة أقصى الموارد
أنا بنت سرحان الأمير بلا خفا   أخي حسن سلطان على القوم سايد
ألا بأعذاري شدوا الخيل واركبوا   على سوابق أصيلات فرايد
ونلبس خوذهم والدروع وخيلهم   ونحن نحارب في اللقا والمطارد

فلما فرغت الجازية من كلامها والأمراء يسمعون نظامها، فعند ذلك تبادرت البنات إلى الخيل، وكل واحدة مسكت لجام فرس وقالت لراكبها: انزل واركب موضعي في الهودج وأنا أركب جوادك، وأما الجازية فقالت إلى دياب: انزل وأنا أركب موضعك وأحارب، فغضب دياب وقال لها: كم مرة خلصتك من السبي، ولو صالحه كل بني هلال ما أفوت ثأر إخوتي وأولادهم، ولا صالحت خليفة، فارجعي إلى الوراء وردي البنات واتركي الحرب للرجال، ثم إنه رد على الخليفة وقال:

يقول الفتى الزغبي ولد غانم   وذم الفتى بعد الكمال حرام
وحمد الفتى بعد القبيح مذمة   وحمد الفتى بعد النضال لزام
أنا دوم ممدوح بفعل أكارم   بخير وجود بالفلا وخصام
كم فارس أنا بقناتي قتلته   وادعيته ضمن التراب عدام
فلا بد ما أملك بلادك كلها   وقومك يصيروا عندنا خدام

(قال الرواي): فلما فرغ دياب من كلامه، طوى الكتاب وأرسله إلى الزناتي خليفة، فلما وصل إليه، فضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه، انخمدت أنفاسه وزاد وسواسه، ولما أصبح الصباح دقت طبول بني هلال للحرب والكفاح، وبرز الأمير دياب إلى الميدان، فنظر الزناتي فأشار يكتب إلى دياب ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو سعدى الزناتي خليفة | والهم قد جانا مع الوسواس |
| أيا دياب الخيل يا طيب الثنا | يا أمير حامي حومة البرجاس |
| فاصفح عن حربي وخذ ما تريد | أموال خذ مني وكل أجناس |
| أقسم عليك بجاه ربي تجيرني | وبحق إله العرش رب الناس |
| وبطل الحرب عني لا تلومني | وديني بقولي ما أنا دلاس |

فلما فرغ الخليفة من كلامه، طوى الكتاب وختمه وقدمه للأمير دياب، فلما قرأه مزقه ورماه وصرخ في الخادم صرخة أرعبته، وقال له: لولا ما يكون قتل الرسول حرام لقتلتك، ولكن ارجع لمولاك وقل له: ما عنده جواب إلا الحرب، فرجع النجاب وأعلم مولاه بذلك، فلم يرد عليه جواباً، فعند ذلك عاد دياب إلى بوابة تونس، فحكم طريقه على خندق كبير، فنزل عن الخضرا وقاس الخندق، فطلع عمقه خمسة أرماح ووسعه ثلاثة، فعرف أن الخضرا تقفزه، فعند ذلك اعتلى ظهر الخضرا وأرجعها إلى الوراء وصار يلاعبها حتى وصلت إلى الخندق، فحثها بالركاب فقفزت إلى الجانب الآخر وظل غايراً إلى الباب لقي البواب نائماً، فلكزه بكعب الرمح، ففاق فوجد فارساً فوق رأسه يقول: يا بواب اذهب إلى سيدك وقل له: أن ينزل إلى الميدان، وإن لم ينزل فقل له: الأمير دياب قفز بالخضرا فوق الخندق، وغداً يقفزها فوق السور، فراح البواب وأعلم مولاه ورجع دياب إلى قومه، فعند ذلك نزلت دموع الزناتي وصار يبكي على حاله، وأرسل وراء سعدى ابنته لكي يودعها، وكان قصده قتلها، ولكن لم يستطع الوصول إليها، وكانت سعدى ضربت الرمل فعلمت أن منيته قد قربت، فأتت إلى الشباك قباله وقالت له: طب نفساً وقر عيناً لأنه بان عندي في الرمل إنك منصور على دياب، فدق طبله وبرز إلى الميدان فبرز إليه الأمير دياب والتقى البطلان كأنهما جبلان وغنى فوق رأسيهما غراب البين، فوقع بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الزناتي، طعن دياب بالرمح فأخلى عنها فأصابت الخضرا، فوقعت على الأرض ووقع دياب كأنه طود من الأطواد، فطمع الزناتي فيه وسحب السيف من غمده وهجم عليه، فأدركه بنو هلال وقدموا له جواداً من الخيل الجياد، ركب وهجم على الزناتي في قلب لا يهاب الموت، وما زال السيف بينهما إلى وقت الظلام، فانفصلا على سلامة من الحرب والقتال.

أما دياب فإنه حزن على الخضرا كثيراً، وأمر أن يغسلوها ويكفنوها بالحرير ويدفنوها، وبنى على قبرها قبة عظيمة وذبح على قبرها ألف ناقة، وفرقها على الفقراء زكاة سلايلها وأولادها، وثاني يوم نهض دياب واعتد في عدة جلاده وركب على ابن الخضرا، وكان مهراً رباعياً طويل الباع لين الطباع، وبرز إلى الميدان كأنه فرخ جان وطلب مبارزة الزناتي، فبرز إليه لأنه فرح بقتل الخضرا وظن أنه يملك أربه من دياب ويقتله كما قالت له: سعدى وأما حسن وبنو هلال، تحقق عندهم أن دياب في هذه المبارزة يقتل الزناتي لا محال لأجل ثأر الخضرا، فركب الأمير حسن مع سائر بني هلال، وركبت العماريات الهوادج واصطفت العساكر أمام بعضها البعض، والتحم الزناتي ودياب في حرب شديد يقطع الزرد النضيد من الصباح إلى الظهر، فثارت في رأس دياب نخوة الرجال والهمة الكافية العلية، فسحب الدبوس من تحت فخذه وبرمه في يده وضرب الزناتي على رأسه، فطيرت جميع أضراسه فأدار رأس جواده وعول على الفرار من عظم الألم، وما عاد يدري كيف يتوجه، فلأجل نفوذ الأحكام قام دياب بعزم الركاب وأطلق عليه الرمح لأن الزناتي كان هارباً، فالتفت لكي ينظر إلى دياب إن كان لاحقه فأصاب الرمح عينه ونفذت الحربة من قفاه، فتذكر الأمير دياب وقت قول ابنته نجيبة حين قالت له: اطعنه بعينه، فمال أبو سعدى عن الجواد وعول على الوقوع، فسحب دياب السيف وضربه على هامه أرمى رأسه قدامه، فأخذ دياب الرأس على رأس السنان وغار هو ورجال بني هلال على قوم الزناتي، فبدلوا أفراحهم بالكدر وولوا هاربين، وأما قرايب الزناتي فإنهم صاحوا الأمان ودخلوا واقعين على دياب، ورموا سلاحهم وطلبوا الأمان وأولهم كان العلام وطلبوا من دياب مكاناً يقيمون فيه مع حريمهم، فأعطاهم مدينة الأندلس وما حولها، ورحل العلام وقومه والحريم والعيال، وقطنوا بذلك المكان، ورجع الأمير حسن والأمير أبو زيد وبنو هلال نحو تونس، أما دياب فإنه ملك تونس وأعطى عبده خليل الرمح، وأمره أن يضعه فوق تونس وينادي أن الأمير دياب هو الملك وكل من لا يدخل تحت طاعته يقتل، ففعل العبد كما أمره مولاه، أما سعدى فقد لبست أفخر ملبوس وسارت تتمختر كأنها عروس، وأتت لعند الأمير مرعي وهو يتمشى بجناين القصر بالملابس الحريرية ومنتظر الفرج والتيسير فدخلت عليه سعدى وقالت له: اعلم أيها الأمير أنه جاء الفرج وتعاهدت معه أن لا يأخذ غيرها ووعدته أن لا تأخذ غيره ولو قطعت بالسيوف، ثم ودعا بعضهما البعض وكل واحد ذهب إلى حال سبيله، أما الأمير دياب فأمر بتعليق رأس الزناتي على السور، وأمر بتنزيل رؤوس بني هلال ليدفنوهم وملك دياب تخت الزناتي وحاز الملك والمال والنوال وساق الخدم قدامه

وأمر بإطلاق مرعي ويحيى ويونس وخلع عليهم وأرسلهم لعند أهلهم وجلس دياب على تخت الزناتي ولبس التاج وهو مصنوع من قديم الزمن ومرصع بالمرجان الأحمر والياقوت الأخضر ومنسوج بالدر والجوهر والذهب الأصفر واجتمعت حوله بنو زغبة، فلما سمعت سعدى بجلوس دياب على كرسي أبيها خافت وارتعدت فرائصها وخاب ظنها بمرعي وندمت حيث لا ينفعها الندم وتوجهت لعند الأمير دياب وترجته في دفن أبيها، فقبل طلبها وطيب خاطرها وأدخلها بين حريمه فأكرموها غاية الإكرام، هذا ما جرى إلى دياب وأما ما جرى إلى الأمير حسن وأبو زيد وهما راجعان إلى تونس، فقد سبقهما أناس وشاهدوا رمح دياب والمنادي ينادي باسم دياب والعبد خليل حين رأى الأمير حسن وأبو زيد مقبلين، رجع شاور مولاه فقال له دياب ارجع وناد كما أمرتك، فرجع وصار ينادي لا سلطان إلا دياب وكل من لا يدخل تحت رمحه يعدمه الحياة، فحين سمع حسن هذا الكلام قال: كيف الرأي يا أبا زيد، فقال: هينة يا حسن ندخل ولو ما شال الرمح فتقدم عبد الأمير حسن، وضرب الرمح قطعه نصفين، فضربه العبد خليل قطعه كما قطع الرمح، وأما حسن هجم على ديوان الزناتي، فوجد دياب جالساً على التخت وحوله أكابر بني زغبة والخدم والعبيد بين يديه والتاج على رأسه، فهجم عليه حسن وقال: ما هذا يا دياب؟ أما كفاك مروري من تحت رمحك وتلبس التاج على رأسك وتريد أن ترثني وأنا حي وتعزلني من منصبي ورثة جدي وأبي؟ لا بد عن قتلك يا نحس! بعد هذا العمل، وانحدف على دياب، فوقف أبو زيد والرجال بوجه حسن وقالوا: يا مولانا أن دياب مخطئ ومنك المسامحة، فهذا كله جرى ودياب جالس على الكرسي غير عابئ به ولا بكلامه، ازداد حسن حنقاً وقال: اتركوني حتى أقتل هذا الغاصب، فقال له دياب: يا حسن أنت عندك هذه الشطارة، فلماذا ما قتلت الزناتي وملكت تخته؟ ولأي سبب أرسلت تتدخل علي أنت وأبو زيد وكل بني هلال حتى أنا قتلت الزناتي ومهدت لكم البلاد؟ فقال حسن: أنا والأمير أبو زيد ما أرسلنا وراءك ولا أحد من جميع بني هلال إلا البنات وأبوك غانم، فقال دياب: المكاتيب عندي فقال حسن: ليست المكاتيب مني، فتقدم أبو زيد وأنشد يقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو زيد الهلالي سلامة | فمالك يا حسن سرحان هايش |
| تريد تقتل دياب يا بو علي | هو حامي ظعننا من كل طارش |
| لأنه جعل رمحه على باب تونس | الفعل يا أمير فعل طايش |
| حريمنا بعثوا البراقيع لابن غانم | ليدعي أبو سعدى بدمه يشالش |
| جانا على خضرا وجندل عدونا | وأخذ بثأرنا في ماضيات الطرايش |

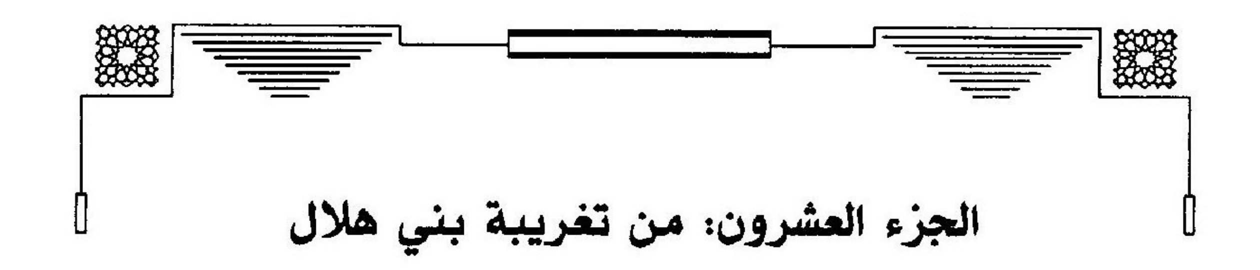
قوموا بنا نقسم بلاد الزناتي ونادوا بالاطمئنان والكل عايش

فلما فرغ من كلامه تقدم إلى دياب وقال له: يا ابن العم العين لا تعلو على الحاجب، قم حتى نركب حسن على الكرسي ونقسم البلاد، فقام دياب مسك حسن مع أبي زيد وأجلسوه على التخت،ثم تقدم الأمير دياب وأشار يقول:

يقول الفتى الزغبي دياب ابن غانم والنار من جوا الضلوع شجونها
يا أمير حسن لولا دياب ابن غانم غدا ظعنكم بحرب الزناتي رهونها
ولما قتلت الهيدبي وأنت شاهد وأبو زيد حاضر كيف تنكرونها
طعنته ورميته والقنا يقرع القنا بيض العذارى شاخصات عيونها
وملكتم نجد العدية وأرضها وقفت بها بيض العذارى يفتنونها
تكاونت أنا والزناتي خليفة وما تعلم الأرواح من هو زبونها
وقد راحت الخضرا وشت بها النيا من طول عمري من العدا أصونها
وجاؤوني بني هلال وعامر وجاؤوني بنات هلال يندبونها
وجابوا القماش الحرير الغالي وجاؤوا إلى الخضرا يكفنونها
حفرت لها في الأرض قامة ومثلها خايف وحوش البر ينهشونها
إن مت بالله ادفنوني جنبها في وسط روضة موضع ما تدفنونها
عسى نلتقي يوم القيامة جميعنا وأقبل الخضرا وأمسح عيونها

□□□□□





# الجزء العشرون: من تغريبة بني هلال

(قال الرواي): فلما فرغ دياب من كلامه فاعتذر له الأمير حسن وقال: يا أمير دياب الخطأ يقع في قلب الصواب والخضرا، خذ عوضها مدينة تونس من غير حساب، وأقسم لك ثلث الغرب الذي تريده، وأنا مثلك وأبو زيد مثلي، فحضروا جميعهم في الديوان وتقاسموا الجميع بالسوية من دون تونس، فهي للأمير دياب، وانصرفوا على هذا الحال، أما الأمير مرعي فإنه اجتمع مع أبيه وسلم عليه وقامت الأفراح وذهبت الأحزان وعملوا الولائم وذبحوا الأغنام إلى الخاص والعام ونادوا بالأمان في جميع البلدان وسلطنوا العلام على قابس ومكناس وتلك البلاد، وبعد ذلك أمر حسن ببناء قبة عظيمة على قبر الزناتي وأمر بإحضار الحفارين والنجارين والدهانين وجميع أرباب الصنائع أن يبذلوا المجهود في تزيين تلك القبة على قبر الزناتي، وأن يكتبوا عليها أسماء الله الحسنى، فرينوها بالفضة والذهب وصنعوا له مشهداً ومزاراً. وتقاسم البلاد حسن وأبو زيد ودياب، هذا ما جرى من أمراء بني هلال.

وأما ما كان من قوم الزناتي والأمراء وائل ومحمود وزائد وغيرهم من الحكام الذين يحكمون على سبعة تخوت بلاد الغرب والأربعة عشر قلعة، فلما سمعوا بتسلطن العلام وقتل الزناتي، هاجوا وماجوا واجتمعت القروم من جميع جزائر الغرب، وأتوا إلى ملكهم ناصر، وهو أخو خليفة، وكان حاكماً على الأربعة عشر قلعة وعلى سبعة تخوت بلاد الغرب فدخلوا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وأخبروه عن بني هلال وعن قتل خليفة أخيه، فهاج وماج واسودت الدنيا في عينيه، وحالاً أمر بتجهيز العساكر والأبطال وأرسلهم إلى العلام ليتهيأ إلى حرب العربان، فلما وصلوا إليه قبلوا الأرض بين يديه وبكوا على ملكهم خليفة وأظهروا له الحزن والهم والكدر، وقالوا: يا ذلنا من بعده والله لنأخذ بالثأر ونكشف عنا العار ونرجع تونس بالسيف البتار؛ لأنه أرسلنا إليك الأمير ناصر أخو خليفة حتى تتهيأ للحرب والقتال، فكان جواب العلام إنني كليت من الحروب وليس لي جلد على ملاقاة الأبطال والرجال، فافعلوا ما بدا لكم وأنا أمدكم بالأموال، فأرسلوا يعلمون ناصر أخو خليفة، ولما بلغه الجواب أخذ في تجهيز العساكر في الحال من الغرب الجواني،

وما مضت مدة من الزمان حتى تجهز عنده ستمائة ألف مقاتل بين فارس وراجل، فأتى بهذا العسكر الجرار وقصد بني هلال، وما زال سائراً حتى قارب أطراف تونس، هذا ما كان من هؤلاء.

وأما ما كان من دياب فإنه دخل يوماً على قصر خليفة فوجد سعدى تبكي وتنوح من فؤاد مجروح على فقد أبيها وعلى فراق مرعي لما كان عندها من الحب والهيام ومزيد الشوق والغرام، فحياها بالسلام ومال إليها وزاد غرامه فيها وأراد أن يأخذها زوجة له، فقال لها: طيبي نفساً وقري عيناً حيث إنك صرت في ملكي وتحت حكمي، وأريد أن آخذك لي زوجة، وأشار يقول:

يقول أبو موسى دياب بن غانم ... ولي عزم في الهيجا كليث رهيس
ولي عزم أمضى من حسام إذا سطا ... وماني ردي الأصل ولا خسيس
ألا فابشري يا سعدى بابن غانم ... أنا صرت حاكم في دريد وقيس
ألا يا سعدى قري وافرحي ... وأنا صرت بعلك دون كل رئيس
فلا تحزني من بعد خوفك وافرحي ... أنا دياب الخيل بيوم انكيس

فلما فرغ من كلامه اغتاظت غيظاً شديداً وأشارت تقول:

تقول سعدى بنت سلطان تونس ... سطا البين وتعدى علينا ومال
يا زمان المضى وراح وانقضى ... تعال إلينا يا زمان تعال
أنا كنت أميرة بنت أمير وأميرة ... وقصري على شرافتين طوال
ذنبي برقبتك يا دياب بن غانم ... قتلت والدي بالصارم الفصال
تقتله وتريدني لك حليلة ... فهذا منك يا دياب ضلال
فإن أخذتني يا أمير تعمى نواظري ... فإني أعجل لروحي بشنق حبال
ولا الناس يقولوا أخذت عدوها ... ولا أنسبك لي يا دياب رجال
ولا أريد الزغبي دياب بن غانم ... إلا مقطع فوق رؤوس جبال

فلما فرغت سعدى من كلامها، اسودت الدنيا في عينيه، وقال لها: تتجاسرين علي في هذا الكلام يا بنت اللئام، وحينئذ أمر عبيده بضربها وأن يشغلوها الأشغال الشاقة ويلبسوها الملابس الخشنة ويطحنوها الملح، ففعلوا ما أمرهم به مدة عشرة أيام، فدخلت عليها نافلة أخت دياب، فلما رأتها على هذا الحال سألتها عن حالها وما جرى لها، فأخبرتها سعدى عن ظلم الأمير دياب.

فما أتمت سعدى كلامها إلا ودياب صار أمامها، وكان قد سمع منها الخطاب؛ لأنه كان واقفاً خلف الباب، فأمر غلمانه أن يزيدوا عليها الأشغال، ففعلوا

كما أمر مدة خمسة عشر يوماً وهي تبكي وتنوح، وكان أكثر بكاها على مرعي لأنه نسيها وما فكر فيها، وكان عندها عبد من عبيد أبيها، اسمه مرجان، قالت له: مرادي أرسل كتاباً إلى السلطان حسن، فقال لها: على العين والراس، فلما فرغت سعدى من الكتاب، طوته وأعطته للخادم فأخذه وسار به إلى حسن، ففضه وقرأه، فحينئذ اغتاظ من دياب وأعلم أبا زيد بما حصل مع سعدى من الأول إلى الآخر، فقال أبو زيد: ما تقدر تجيب سعدى إلا بواسطة قسمة البلاد، وفي اليوم الثاني ركب الأمير حسن وأبو زيد مع جماعة من الفرسان، وتوجهوا نحو دياب إلى أن وصلوا إليه وسلموا عليه، فاستقبلهم بالترحاب والإكرام وأجلسهم بأعلى مقام، وصار يرحب بهم ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم | أهـلاً وسـهـلاً بـأصـحـاب الـدار |
| أهـلاً بـمـن قـد شـرفـوا لـمـحـلـنـا | أبـو زيـد والـسـلـطـان والأمـار |
| أهـلاً بسلطان الأعارب جميعهم | مـقـري الـيـتـامـى فـي سـنـيـن عـسـار |

قال الرواي: فلما فرغ دياب من كلامه، شكروه على قوله ونظامه وبقوا في ضيافته ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع قال حسن لدياب: مرادنا نقسم بلاد الغرب، فقال دياب: الأمر لأبي زيد، فقال أبو زيد: قدامكم مصاعب ومتاعب كثيرة، فإنكم ملكتم تونس وهي من جملة الممتلكات، والباقي سبعة تخوت يجلس عليها سبعة ويحكمون على أربعة عشر قلعة.

فلما فرغ أبو زيد من كلامه، تعجبوا من سعة اطلاعه وحسن نظامه، وبينما هم في الكلام إذا أقبل عليم العبد مرجان ابن أبو القمصان مخضباً بالدماء ومهشم الأعضاء، فسألوه ما الخبر؟ فقال لهم: إن الشباب قد هلكت وقد نزلت عليهم قوم الأمير ناصر أخو الزناتي الذي من تحت يده سلاطين سبعة تخوت بلاد الغرب، فإن لم تدركوهم بسرعة ذاقوا الوبال، فلما سمعوا هذا الحديث اغتاظوا الغيظ الشديد، وفي الحال دقت طبول الحرب واجتمع عند الأمير حسن فرسان الطعن والضرب، فأخبروهم بما حصل، فهاجت الأبطال واستعظمت تلك الأحوال وركبت جموع بني هلال للحرب والقتال، وفي مقدمتهم الأمير دياب والأمير أبو زيد ليث الغاب، وما زالوا سائرين يقطعون البراري والقفار.

□□□□□



# الجزء الحادي والعشرون: قصة الأمير صبرا

(قال الرواي): هذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من شباب بني هلال وهم موسى بن دياب وصبرا بن أبي زيد وأخواه شيبان ومخيمر، فإنهم كانوا خرجوا للصيد والقنص ومعهم عشرة من أولاد الأمراء، وبقوا مدة ثلاثين يوماً يجولون في البراري والقفار والسهول والأوعار، يقتنصون من الوحوش والطيور، وبينما هم بالصيد إذ وصلوا إلى عين توزر، فنزلوا عن الخيول لأنهم كانوا تعبانين وجلسوا على شاطئ النهر، فقام البعض منهم يوقد النيران والبعض يذبحون الغزلان وهم في أرغد عيش وأهنأ بال إلا وقوم لأمير ناصر والعلام مقبلين عليهم وهم مثل الجراد المنتشر لا يعرف لهم أول من آخر، وكان السبب بقدوم ذلك العسكر هو أن الأمير ناصر والجايلي بن مقرب أتوا ليأخذوا بثأر الزناتي، وأخذوا معهم العلام بالحيلة لأنه كان مختبراً تلك الأراضي ولسبب التقادير صادف طريقهم عين توزر، فالتقوا بشباب بني هلال، فأحاطوا بهم من اليمين والشمال، فحينما رأوا الأعداء أحاطت بهم من كل جانب، صاحوا دونكم والخيل قبل ما تدركنا الأعداء، فحينئذ ركبوا ظهور المهارة وتقلدوا بالسيف والنصال، وهجموا على تلك الفرسان ونزلوا عليهم بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات، وفرقوا الميامن والمياسر حتى ما كان الواحد منهم يعرف الأول من الآخر، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وبقوا على هذا الحال لحين الزوال.

فافترقوا عن بعضهم وتجمعوا في تلك الأرض، فوجدوا صبرا مجروحاً وشيبان أخو صبرا مقتولاً ومرجان بن أبي القمصان مفقوداً، وبقوا يحرسون بعضهم حتى الصباح، رأوا عساكر الأعداء حايطينهم من كل جهة، فصاروا يشجعون بعضهم البعض إلى الصباح، ركبوا ظهور الخيل وتقلدوا بالرماح والنصال وهجمت عليهم قوم الأمير ناصر، فالتقوا الأبطال والجنود كأنهم الأسود، وما زالوا في أخذ ورد وقرب وبعد وضرب شديد مدة أيام، فاستقتل شباب بني هلال وهجموا على جيش الجايلي من كل جهة ومكان، وأبلوهم بالذل والهوان ونزلوا عليهم في طعنات قاطعات، فقتلوا من عساكر الأمير ناصر مقدار خمسة آلاف فارس، ثم كلت الشبان وقل عزمها واضمحلت قوتهم فأحاطت بهم عساكر الأمير من كل مكان، ونزلوا عليهم بضرب شديد وكانت وقعة عظيمة؛ لأن قوم الأمير ناصر كانت تأتيهم النجدات من العلام

ومن السبع تخوت، وقتل بتلك الواقعة ثمانية من شبان بني هلال، وقبضوا على الأمير صبرا وقادوه بالسلاسل والأغلال وأحضروه قدام العلام، فلما رأى صبرا أمر بإطلاقه لأنه كان تعاهد مع الأمير أبي زيد فلما لحظ الأمير الجايلي فعل العلام قال: يا علام لماذا هذه المطاولة؟ اقتله بثأر الزناتي ابن عمك من لحمك ودمك، وقد قتلوا منكم أضعاف ما قتلتم منهم، فسحب الجايلي الخنجر وضرب صبرا في صدره فقتله، وقال للفرسان الذين حواليه: دونكم ورفاقه، فوجد موسى ابن الأمير دياب مع جملة من الفرسان ونازلين عليه بضرب مثل زخ المطر وهو يدافع عن نفسه من حلاوة الروح ويقول: يا أبا زيد يا حامي الميدان، لو كنت حاضراً ويا دياب لو تراني تخلصني من هؤلاء الأنذال، وبينا هو في ذلك الحال وكادوا أن يقتلوه، إلا والسيوف لمعت والعساكر تقدمت، وفي أولهم الأمير دياب في بني زغبة وخلفه الأمير أبو زيد في بني زحلان، وكان السبب في مجيئهم أن مرجان أبا القمصان أخبرهم بذلك الشأن، وعند وصولهم رأوا الأرض قد ملئت بالطول والعرض، وصاح الأمير دياب على الأبطال وهجم على الأعداء من الميمنة وأبو زيد من الميسرة، وبقية الرجال هجموا على الأعداء بقلوب قوية، وتقدم الأمير سرور ابن القاضي نشل الأمير موسى من بين الأعداء وهنأه بالسلامة، فأخبره عما حصل لهم وعن قتل صبرا وشيبان، ثم ارتدوا على الفرسان بالسيف والسنان والخيل غايره والرؤوس طائرة والدماء فائرة، ودارت على قوم الأمير الجايلي الدوائر إلى أن أقبل الزوال فبات بنو هلال بالأرض يحرسون بعضهم البعض إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح، فوجدوا الأعداء حايطينهم من كل جهة ومكان ومرادهم أن يكبسوهم لأنه قد اتتهم نجدات من جزائر العرب وتلك الجهات، وسطوا على بني هلال من اليمين والشمال ونزلوا عليهم بطعنات قاضيات وكثرت الأهوال على بني هلال وشتتوهم في تلك الروابي والجبال حتى انكسرت بنو هلال سبعة مراحل إلى الوراء، فلما أمسى المساء اجتمعت الفرسان عند الأمير دياب وقالوا له كيف الرأي يا أمير دياب؟ فقال لهم: الرأي عند أبي زيد، فحينئذ تفكر أبو زيد بقتل ابنه صبرا، فهاجت في رأسه نخوة العرب الجاهلية وصاح على الفرسان إن شاء الله، ننزل إليهم بالسيف البتار ونلحقهم بالدمار ونأخذ منهم ثأر الأمير صبرا، وصار يحثهم على قتل الأبطال ويقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... بدمع جرى فوق الخدود سيال
الآن طاب الطعن في سوق القنا ... بضرب الشواكر وسيوف نصال
ألا فارجعوا ردوا الأعادي بعزمكم ... بعزم قوي يهلك الأبطال

لاقوهم بالسيف وبيدوا جموعهم وخلوا دما الأعدا كسيل سال
وخذوا بثأر الأمار جميعهم بضرب السيف وطعن النبال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه، ثارت في رؤوس الأبطال نخوة الرجال، وفي الصباح اصطف الجيشان والتقى العسكران، فانحدر أبو زيد إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فسقط إليه الأمير الجايلي كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل، وصدم أبا زيد صدمة تزعزع الجبال فأشار أبو زيد يقول:

على ما قال أبو زيد الهلالي أنا ليث المعامع والنضال
أنا ليث الحروب بكل يوم أفرجها إذا وقع القتال
ألا يا جايلي فاسمع لقولي ورد على قصيدي مع مقالي
ستعلم أنني ليث قدير مبيد الخيل هزام الرجال
ولي قلب كما الصوان ثابت أكيد الخصم حقاً لا أبالي
وحق الله خلاق البرايا إله دائم في الملك عال
لأقطع جنسكم يا آل حمير وأفني قومكم عند القتال
وآخذ ثأر شيبان وصبرا وأجري دمكم فوق الرمال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه انحدف عليه الجايلي من غير رد جواب وداما في الحرب والصدام ساعة من الزمان، وكلما فتح أبو زيد باباً من الحرب يسده الجايلي حتى سد عليه اثنين وسبعين باباً، وبقيا على هذا الحال إلى وقت العصر، فصاح الجايلي على أبي زيد وضربه بالرمح راحت الضربة خائبة بعد أن كانت صائبة، فثنى عليه بالسيف، فأخذها بطارقة البولاد فانكسر السيف، فحينئذ تعدل أبو زيد على ظهر الحمرا وقال له: خذها من الأمير أبي زيد، وضربه بالسيف، فحكم على الرقاب فأخذ الرأس والخاصرة وسقط السيف على الجواد فقطعه قطعتين، فمالت الأبطال على الأبطال والفرسان على الفرسان من اليمين والشمال، حتى ضعفت رجال الجايلي، فحل بهم الدمار وركنوا إلى الهزيمة والفرار، ولا زالت بنو هلال تضرب فيهم بالسيف البتار إلى أن أوصلوهم لقرب الديار، وكان قد ولى النهار وأقبل الليل فباتوا يحرسون بعضهم إلى الصباح، فنزل الأمير دياب إلى الميدان وعرض وبان وطلب مبارزة الفرسان، فانحدر إليه الأمير ناصر وأخذوا في الحرب والصدام إلى نصف النهار فغار الأمير دياب على الأمير ناصر وضربه بالسيف، فخلا منه فأتت على رأس الجواد فبرته كما يبري الكاتب القلم، فوقع ناصر على الأرض، فانحدر العلام أمام الأمير دياب بقلب لا يهاب، فنزل الأمير أبو زيد إلى العلام خوفاً من أن يقتله الأمير دياب؛ لأنه كان متعاهداً هو وإياه في سنة الريادة، فصار يتجاول هو

وإياه، فضرب الأمير أبو زيد رأس جواد العلام فأوقعه على الأرض فأتت قومه وأركبته جواداً آخر وصار يتجاول هو وإياه إلى وقت الغياب، وبقيا على هذا الحال عشرة أيام وكان كل يوم يقتل له جواداً في آخر النهار حتى ضجرت العرب من قتالهما، وحينما افترقا عن القتال، أتت الجازية إلى الأمير أبي زيد، وقالت له: لماذا هذه المطاولة أيها الأمير وصبرا قد قتل بواسطة العلام، وقد قتلوا منا تسعين أميراً؟! ثم أنشدت تقول:

تقول فتاة الحي الجازية أم محمد ... ألا فاسمعوا لي يا هلال الأكابر
أبو زيد للعلام ينزل يحاربه ... من الصبح لما الليل يسود عاكر
فينزل يحاربه ويقتل جواده ... ويترك العلام بالأرض حاير
لأنه حالف عمره ما يخونه ... ومتعاهد وإياه والعهد ظاهر
ولو يحاربه مدى العمر في الوغى ... لم يقتله أبداً ولا له خاطر
ولو مات منا كل يوم قبيلة ... فما زال أبو زيد على العهد ساير
ألا فاسمعوا لي يا رجال جميعكم ... غداً إن أتى العلام عاللقا غاير
ورأيتم أبو زيد الهلالي يحاوله ... فصيحوا على العلام وارموه شطاير
وادعوه على الغبرا قتيل مجندل ... في ثأر صبرا عز قيس الأكابر

فلما فرغت الجازية من كلامها والأمراء يسمعون نظامها، انتبهوا إلى ما كانوا عنه غافلين، فحينئذ اجتمع عشرة من بني هلال وضربوا الرأي مع بعضهم أنه في الغد إذا نزل أبو زيد للعلام، فليجتمعوا العشرة وليضربوا العلام بعشرة رماح سوى حتى لا يقع اللوم من أبي زيد على أحد منهم؛ لأنه متعاقد هو والعلام، ففي ثاني الأيام برز العلام إلى الميدان، فبرز إليه الأمير أبو زيد، فلما رأوا من أبي زيد هذه الأحوال، هجموا على العلام وضربوه بالعشرة رماح فوقع على الأرض، فحزن الأمير أبو زيد عليه وتقدم إليه وقبله بين عينيه وكان قد أقبل الظلام، فدقت طبول الانفصال ورجع الأمير ناصر وقومه في حزن عظيم على فقد العلام، وأما أبو زيد فحمل العلام إلى الخيام، فحينئذ أفاق من غشوته، وتنفس الصعداء وسلم الروح، فحزن أبو زيد عليه ثم دفنوه باحتفال عظيم إكراماً لأبي زيد، فلما سمع قوم ناصر بموت العلام ولوا الأدبار وركنوا إلى الهزيمة والفرار، فتبعهم بنو هلال مدة عشرة أيام حتى شتتوهم في البراري والقفار، وبعد ذلك اجتمع أبو زيد مع دياب وبقية الأمراء، فعملوا مشورة فقال أبو زيد: لدياب إننا صرنا في نصف بلاد الغرب، وقد بعدنا عن حريمنا وأوطاننا وحولنا جزائر بلاد الغرب وقد كثرت أعداؤنا ومالنا معين على المغاربة، ونخاف أن يعملوا علينا حيلة ويهلكونا لأننا وحدنا بهذه الديار وأمامنا أربعة عشر

قلعة محصنة، فماذا يكون عندك من التدبير؟ فقال: الرأي عندي أن نخبر الأمير حسن بهذا الشأن، ونوصيه في المال والعيال، فقال أبو زيد: لا بأس بذلك أيها الأمير، فحينئذ أرسل أبو زيد كتاباً يعلم الأمير حسن بقتل ولده صبرا ورفاقه وقتل الجايلي، وأن العلام خان العهد والميثاق فقتلناه وعن الحروب التي حصلت لهم وسلم الكتاب للنجاب، فأخذه وسار حتى وصل إلى حسن وسلمه الكتاب فقرأه وعرف معناه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وأحضر قلماً وقرطاساً وجعل يقول:

| | |
|---|---|
| يقول حسن الهلالي أبو علي | والنار في قلبي تهب وتشتعل |
| حركت عندي يا هلالي ساكناً | وأصبحت من هذا الكلام في وجل |
| فإن احتجت لدياب بالعجل | تلقيه يجيلك مثل قطعة من جبل |
| وإن احتاج إليك أنت فروح له | في عسكر من فوق خيل بالعجل |
| وأنتم سيروا يا سلامة فإني | داع لكم طول الزمان ولم أزل |
| إن شاء إله العرش أن ينصركم | ينجيكم باللطف وبلوغ الأمل |
| يا هل ترى عاد الزمان يلمنا | ونعود لمة وشمل مشتمل |

فلما فرغ الأمير حسن من تحرير الكتاب، أرسله إلى أبي زيد، فحين وصوله قرأه أبو زيد على الأمراء والفرسان، ثم قال لدياب: أنت تتوجه نحو كويج وتلك القلاع، وأنا أتوجه نحو قابس وتلك القلاع، بشرط أن يكون علمكم معي وعلمي معكم، فإن ملكت أنا قابس لا أزحل حتى أعلمك ويكون الاتفاق على هذه الحالة حتى نملك الأربعة عشر قلعة، فحينئذ أمر أبو زيد بدق الطبول ونفخ الزمور، فركبت الفرسان الخيول وتقلدت بالرماح والنصول فركب أبو زيد بتسعين ألف من بني الزحلان، وتوجه إلى قابس، وركب دياب في بني زغبة وساروا إلى كويج، فنصبوا الخيام ورفعوا الأعلام، فكتب دياب إلى وائل ملك كويج.

فلما فرغ دياب من تحرير الكتاب، أعطاه للنجاب وطلب منه رد الجواب، فتوجه النجاب نحو الأمير وائل، فلما وصل إليه أعطاه الكتاب، فأخذه الأمير وائل وقرأه وعرف مضمونه ومعناه، فاغتاظ الغيظ الشديد وكتب إلى الأمير دياب:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى وائل بعين وجيعة | ونيران قلبي أشعلت بالضرائم |
| أيا غاديا مني على متن ضامر | سلم على الزغبي دياب بن غانم |
| وقل له وائل أرسل لك كتابه | بشعر ارتجالي وقول ملايم |
| أرسلت تهددنا بقتل جموعنا | والهلس بين الناس مثل العلاقم |
| نحنا أمارة عندنا خيل مثمنة | ودروع ثقيلة وسيوف صوارم |
| ونحمل على الفرسان في حومة الوغى | نخلي دما الأعداء كما بحر عايم |

فكم أمير قد جاء يريد حروبنا | فيغدي قتيلاً ويروح عادم
أنا طالب منك ثأر خليفة | لأنه ابن عمي وأخذ الثأر لازم
غداً نلتقيكم في حومة الوغى | ونخلي الحرب ليل ونهار قايم
فإن قتلناكم نلنا مرادنا | وأخذنا ثأر خليفة والنصر قايم
وإن كان كسرتونا فالسعد أتاكم | والأمر لله مالك كل العوالم

فلما فرغ الأمير وائل من نظامه، طوى الكتاب وأعطاه إلى عبده، فسار لعند دياب وأعطاه الكتاب، ففتحه وقرأه ثم قال للعبد: أخبر سيدك إنه ليس عندنا جواب غير الحرب، فتوجه العبد وأخبر سيده بما أجاب الأمير دياب، فلما سمع وائل ذلك الكلام أمر بدق طبله وتحصين بلده بالمدافع والأبطال، ولبس درعه المانع وتقلد بسيفه القاطع، وعلا ظهر الحصان كأنه فرخ جان، وركبت الفرسان ظهور الخيل وتقلدت بالرماح وتأهبت للحرب والقتال، وانحدر الأمير وائل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه دياب فأشار الأمير وائل يقول:

يقول الفتى وائل على ما جرى له | ونيران قلبي أشعلت في لهيبها
أنا فارس الفرسان في حومة الوغى | بيدي أسقي القوم كاس عطيبها
أنتم تعديتم وجيتم بلادنا | لأرض كوبج قصدكم تملكونها
حولي فوارس يصدع الصخر عزمهم | تقول سباع واثبة عانصيبها
فارجع يا دياب وإلا قتلتكم | طعنات وائل مثل نار في لهيبها

فلما فرغ من كلامه أشار دياب يهدده فانطبق عليه وائل كأنه فرخ جان والضرب والقتال يشيب رؤوس الأطفال إلى أن انتصف النهار، انطبقت الجيوش على بعضها البعض وانتشب القتال والطعان، وجرى الدم وسال وصارت القتلى كالتلال، فكانت وقعة مهولة انتصر فيها قوم وائل، فإنهم هجموا على قوم دياب وأبلوهم بأعظم مصاب وشتتوهم في تلك الأوعار ولما ولى النهار ارتدت الفرسان عن بعضها ونزلت قوم دياب المنهزمين في جهة من الأرض، وصاروا يجتمعون، وقام دياب وجمع أكابر قومه ومن يعتمد عليهم وصار يحمسهم.

فلما فرغ دياب من كلامه هاجت برأس الأبطال نخوة الرجال وفي ثاني الأيام برزوا إلى الميدان وهجموا على بعضهم، فكثرت الضجات وعلت الصيحات فما عدت تنظر إلا رؤوساً طائرة ودماءً فائرة والفرسان غائرة ودارت على قوم وائل الدائرة، فقتل منه عشرة آلاف ثم ولوا هاربين إلى النجاء طالبين، فتبعهم قوم دياب وشتتوهم في البراري والهضاب وأدخلوهم البلد وتقدم الوزير دهقان وقال له: غداً أنزل إلى الميدان وأكفيك شر هؤلاء العربان، وأما قوم دياب فسألوه عن خصمه فقال

لهم: إنه فارس شديد وقرم عنيد ولكن غداً أنزل إليه وآخذ روحه من بين جنبيه. وفي الصباح تقلدت الجيوش بالرماح ونزلوا إلى الميدان فانحدر الوزير دهقان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه أمير من أمراء بني هلال اسمه المهاب فقال له دهقان: من أنت؟ فقال: أنا المهاب وصنعتي حداف الرقاب، فحينئذ انطبقا على بعضهما كالأسود وتجاولا حتى كلت منهم الزنود وحصل منهما ضربتان ماضيتان كان السابق دهقان فضرب المهاب على رأسه شقه إلى تكة لباسه فنزل إليه فارس فقتله والثاني جندله والثالث محقه وما زال يجندل فارساً بعد فارس حتى جندل خمسين فارساً وأخيراً نزل إليه دياب فتجاولا ساعة من الزمان فلاصقه دياب وضايقه وضربه بالسيف على هامه رمى رأسه قدامه، وحينئذ دقت طبول الانفصال ورجع وائل حزيناً.

فوقع الوهم في قوم وائل من دياب الذي لما رجع إلى الخيام سألوه عن خصمه، فقال لهم: بطل شديد وقرم عنيد، وفي الصباح دقت الطبول ونفخت الزمور وركبت الفرسان، وانحدروا إلى ساحة الميدان، فالتقى دياب بوائل وانطبقا على بعضهما كأنهما جبلان، وتكسرت بأيديهما الرماح وتضاربا بالسيوف الصفاح ولعبا ألعاباً حيرت الفرسان، وبعد ذلك ضرب وائل دياب بالرمح، فغطس تحت بطن الشهبا، فراحت الضربة خايبة فتعدل دياب وضرب وائل بالسيف على هامه حط رأسه قدامه، فوقع وائل قتيلاً وفي دمه جديلاً، فلما رأت قوم وائل أن ملكهم قتيل ولوا الأدبار وركنوا إلى الهزيمة والفرار، فتبعهم دياب بقومه إلى أن دخل البلاد وجلس على كرسي المملكة، ثم كتب إلى السلطان حسن يخبره بما يجري وصار، فلما وصل الخبر إليه، قرأ الكتاب على رؤوس الأمراء والسادات، ففرحوا فرحاً شديداً وعملوا عراضة عظيمة لها قدر وقيمة، إكراماً لدياب الذي جدد الهمة وتوجه من كويج إلى ناحية برج الدمع، فأمر العسكر بالنزول ونصب الخيام ورفع السناجق والأعلام، وأشار يهدد الأمير بكار ملك برج الدمع بكتاب خطه وطواه وأرسله مع النجاب إلى الأمير بكر سلطان برج الدمع، وكان جالساً في الديوان، وإذا بجملة فرسان من كويج دخلوا عليه وقبلوا يديه فسلم عليهم وأكرمهم وسألهم عن قدومهم فأجابه أحدهم يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى قائد على ما جرى له | ونيران الحشا زادت شعالي |
| على ما صاب قلبي من هموم | وأمور ما رأيت لهما مثالي |
| أتانا قوم ما يحصى عددهم | يهزوا في الرماح وفي العوالي |
| ركبنا والتقيناهم جميعاً | بطعن يورث الأعدا خبالي |
| كبير القوم يسمى ابن غانم | أمير دياب شيال الحمال |

ضرب وائل وألقاه قتيلاً      وقد أردى الوزير على الرمال
فولينا هزامى من لقاهم      ولا طقنا لهم أبداً قتال

فلما فرغ قائد من نظامه، حزن الأمير بكار على وائل ابن عمه واستعان بالله على قتل دياب، وبينما هم كذلك أقبل نجاب على بكار وسلمه الكتاب، ففضه وقرأه وفهم ما حواه أمر العساكر أن يكونوا تحت الطلب، وعند الصباح أمر بدق الطبول للحرب والقتال، فحضرت الفرسان وركبوا ظهور الخيول وسار بهم إلى عساكر دياب، فلما وقعت العين على العين نزل الملك بكار فصال وجال ونادى بأعلى صوته:

هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يبرز لي كسلان ولا عاجز، فما أتم كلامه حتى برز دياب قدامه، فأشار الملك بكار يهدد دياب.







# قصة السبع تخوت

فلما فرغ من كلامه هجم دياب على الملك بكر واصطدما صدام الأبطال، فانجرح دياب ووقع على الأرض، فأراد أن يكمل عليه، فحصله الأمير محمود بن دياب وأسرع الرجال وحملوه من الميدان إلى المضارب والخيام، وبقي محمود يقاتل إلى قرب الزوال، فرجع إلى أبيه فرآه قد أحضر الحكيم الهندي، فوضع المرهم وقطب الجرح وقال: لقد زال الخطر، وفي الصباح نزل محمود للميدان فنزل إليه بكار وما زال هو وإياه في حرب وصدام مدة سبعة أيام، وفي اليوم الثامن نزل الميدان فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف الصفاح، حتى زهقت الأرواح، وما زالا في أخذ ورد وقرب وبعد، فتطاولت لهما الأعناق وشخصت لهما الأحداق، إلى أن بدرت من الاثنين ضربتان قاطعتان، فكان السابق بكار فغطس الأمير محمود تحت بطن الجواد، فراحت الضربة خائبة بعد أن كانت صائبة، فاعتدل الأمير محمود على الجواد وضرب الأمير بكار بالسيف على رأسه، فشقه نصفين، فصاح دياب عليهم: أيها الأبطال! وهجم مع بني زغبة على الأعداء وأبلوهم بالذل والويل، ودخلوا البلد وجلس دياب على الكرسي واستلم الأموال، ثم أمر العساكر بدق الطبول وركب الخيول، فركبت الفرسان وسار قاصداً برنيجة وتلك الأقطار، فلما وصل برنيجة نصب الخيام ثم كتب يطلب عشر المال من الملك زايد.

فلما فرغ دياب من الكتاب، أرسله مع نجابة إلى ملك برنيجة الذي رأى مناماً مزعجاً، فنهض مرعوباً وأمر بإحضار الرَّمال مسرور، فلما حضر قال له: إنني رأيت مناماً مهولاً، وأشار يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الملك زايد بقول صادق | كلاماً يؤرخ في الكتب بسطور |
| رأيت مناماً أبدل اللذة والهنا | بغم وحزن دائماً وكدور |
| حلمت أني في واسع البر والفلا | ملقى طريحا ودمائي تفور |
| وفوقي دياب مثل سبع كاسر | وبقيت معه في الخلا مأسور |
| ضربني ضربة جاءت علي كأنها | مدفع خرج من وسط برج وسور |
| فرحت مرمي على الأرض منطرح | وأضحى دمي على التراب بحور |
| فاضرب يا رمال رملك بالعجل | وخبر كلام الصدق يا مسرور |

فلما فرغ الملك زايد من كلامه والرمال مسرور يسمع نظامه، ففتح كتب الرمل وقال: أعطني الأمان يا ملك، قال: عليك الأمان، فأشار الرمال يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى الرمال فيما قد جرى | وعبرات عيني على الخدود حذور |
| تقول إنك كنت في البر والخلا | وسبع كاسر قد أتاك يزور |
| فارس عرمرم يقرع الخيل بالقنا | يخلي الدما تجري شبيه نهور |
| يسمى أبو موسى دياب بن غانم | فرس صميدع في اللقا مشهور |
| يجينا بقومه وينزلوا بأرضنا | ونبقى معاهم في بلا وشرور |
| تتكاون أنت وياه في حومة الوغا | وتمشي معه يا ملك مأسور |
| ويظفر علينا يا ملك برجاله | ويدعي الفوارس في عميق قبور |
| ويملك قلعتنا ويأخذ أموالنا | ويسبي حلايلنا وكل قصور |
| فهذا منامك يا أمير مؤكد | من يستطيع أن يدفع المقدور؟ |

فلما فرغ الرمال من كلامه، توجه الملك إلى الديوان وأخبرهم بالمنام، وقال لهم: كيف العمل؟ فقال الوزير ماجد: إن هذا الفارس قتل الأمير وائل ملك كويج وقتل الملك بكار حاكم برج الدمع وهو قاصد إلينا فالأوفق أن تسلم له المال والخيل والجمال وإلا يبيد عساكرنا ويهلك أبطالنا؛ لأن معه تسعين ألف فارس من بني زغبة، فلما سمع الملك زايد هذا الكلام، صاح به ويلك يا جبان، تخوفني من حرب دياب وتظن أن رجالنا وفرساننا جبناء، فوحق ذمة العرب وشهر رجب! ما أترك أحداً ينزل إلى حربهم وقتالهم، بل أنا أنزل إليهم، ثم ضرب الأمير ماجد على هامه فقتله، فشالوه ودفنوه، وفيما هم في ذلك الحديث وإذا بنجاب الأمير دياب دخل إلى الديوان ووقف بين يدي الملك وناوله الكتاب، فلما فضه وقرأه اغتاظ الغيظ الشديد وقال للرسول: قل لدياب: ما عندي جواب سوى الحرب، فذهب الرسول وأخبر مولاه دياب، فاغتاظ الغيظ الشديد وأمر بدق الطبول، فاستعدوا للقتال وساروا قاصدين الميدان، وأما الملك زايد فتجهز إلى الحرب والطعان وسار إلى خارج البلد، وإذا بفرسان الأمير دياب تظهر كأنها أسد الغاب، فلما التقت العين بالعين نزل الأمير زايد إلى الميدان، فصال وجال وطلب مبارزة الفرسان، فانحدر إليه الأمير دياب فأشار الملك زايد يهدده. فقال له الأمير دياب: يا زايد خصمك لا يروعه كلام ولا يهزم من صدام.

بعد ذلك التقى البطلان كأنهما جبلان، وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين، فكانا تارة يتباعدان وتارة يتقاربان إلى وقت الظلام، دقت طبول الانفصال، وفي الصباح، نزل الأمير دياب إلى الميدان، فبرز إليه الأمير زايد

فانصب عليه دياب وقال: خذها من يد دياب حداف الرقاب، وأطلق الضرب على رأسه، أخمد أنفاسه، فوقع على الأرض قتيلاً، ثم صاح دياب بقومه، اهجموا على الأعداء! فهجموا عليهم وارتمى الأمير دياب كأنه صاعقة نزلت من السماء على الجيش، فمزقه وقلب الميامن على المياسر والمياسر على الميامن، وظهرت أفعال الأمير ضرغام والأمير محمود ونكسوا الرايات والبنود وقتلوا الفرسان والجنود وفتكت بنو زغبي فتك الأسود والتقى الأمير دياب بوزير الملك وكان اسمه نافع، فتجاولا في ساحة الميدان وتطاعنا بالسنان إلا أن الأمير دياب ضايقه ولاصقه وسد عليه طرقه ومد يده فاقتلعه من سرجه كأنه العصفور في يد الباشق وضربه بالأرض أدخل طوله بالعرض، فلما نظرت قوم الملك زايد هذه الأحوال ولوا الأدبار، فتبعهم قوم الأمير دياب وفتكوا بهم فتك الذئب بالأغنام، ودخل الأمير دياب إلى البلد واستلم الأموال والذخائر وجلس على كرسي المملكة وأشار يخبر الأمير حسن ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم | وروحي كما البولاد طاير شرارها |
| ألا أيها الغادي بلغ رسالتي | لحسن الهلالي عز قوم هلالها |
| أخبرك يا بو علي فيما جرى | بأرض المغارب من عظيم هوالها |
| أتينا برنيجة ونبغي أخذها | تاري بها زايد كشعلة نارها |
| أتانا إلى الميدان يا أمير أبو علي | كما برج مبني فوق عالي سوارها |
| تلاقيت أنا وياه في حومة الوغى | عشرين يوم أتعبوني مجالها |
| ضربني بيده يا أمير بالعمد | لو جاء على قلعة لهد حجارها |
| ضيعتها وخليت عنها بهمتي | فراح عمده من يمينه وطارها |
| أخذت أنا للعمد حالاً وجئته | وسديت عليه يمينها وشمالها |
| ضربته على رأسه فراح مجندلاً | ودعيته ملقى بأوشم حالها |
| ملكنا أموالهم وحصونهم | وأخذنا قلعتها وكل عمارها |

فلما فرغ دياب من كلامه، طوى الكتاب وأعطاه إلى النجاب، أخذه وراح إلى الأوطان، فدخل على السلطان حسن وسلمه إياه، ففضه وقرأه على الأمراء والسادات، فشكروا فعل دياب ودعوا له بالنصر، وأما الأمير حسن فاستدعى الأمير رضوان وقلده وظيفة قائمقام على قلعة برنيجة، فأخذ الأمير رضوان مائة أمير من عشيرته وودع الأمير حسن، فأعطاه كتاباً إلى دياب.

فأخذ الأمير رضوان وتوجه إلى برنيجة، فدخل على الأمير دياب فاستقبله وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه على كرسي المملكة وأمر المنادي أن ينادي بالبلاد باسم الأمير رضوان ويكون حاكماً عليها، ثم سلمه الأموال وأمر بدق طبل الرحيل، ثم

توجه إلى القلعة فضرب الخيام وأشار يكتب إلى الملك محمود يطلب منه عشر المال.

وطوى الكتاب وأعطاه للنجاب، فأخذه وسار حتى وصل لعند الملك محمود وسلمه الكتاب، فأخذه وقرأه فقلبت الدنيا في عينيه كالظلام والتفت إلى الرسول وقال له: اذهب إلى مولاك وقل له: ما له جواب إلا السيف القرضاب ورمي الرقاب، فرجع الرسول لعند الأمير دياب وأخبره بما قاله محمود، ولما أصبح الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح من الفريقين، ولما وقعت العين بالعين حملت على بعضها الطائفتان، فقام الحرب على ساق وقدم وجرى للقوم وقعة عظيمة تشيب الأطفال وتقصر الأعمار، وكان قد هلك من الفريقين عساكر ما لها عدد، حتى دارت على قوم محمود الدائرة، فدخلوا البلد وسكروا الأبواب والأمير دياب وقومه حاصروهم من خارج السور، فجمع الملك محمود أكابر الديوان وقال لهم: مرادي أطلب منهم الأمان، فقالوا: نحن طائعون لأوامرك، فجعل يكتب إلى الأمير دياب ويطلب منه الصلح:

| | |
|---|---|
| يقول محمود من قلب وجيع | لهبات قلبي زايدات نيران |
| اسمع كلامي يا ابن غانم يا دياب | يا عز قيس وجملة العربان |
| إني أتيت طائعاً يا سيدي | فاقبل خضوعي وأعطني الأمان |
| وتبقى عندك يا أمير على المدى | ونعيش بظلك بكل أمان |
| فاعفو عنا يا دياب وسامح | فإني أتيتك طائعاً رضيان |

فلما فرغ محمود من الكتاب أرسله للأمير دياب، فلما قرأه أمر بالأمان ودخل البلد واجتمعت إليه الأكابر، واستلم من محمود الخزائن والقصور وولاه على الملك، على شرط أن يدفع له الجزية في كل عام، ثم سار قاصداً قلعة طنجة إلى أن اقترب منها فأمر بنصب الخيام، ثم أرسل من يكشف له خبر أهالي طنجة وقعد ينتظر إلى أن رجع الرسول، فقال له: إن ملك طنجة يقال له نايل وهو فارس شجاع، وأما أسوار المدينة فهي عالية وعساكره لا تعد ولا تحصى، وقد علم بخبر وصولنا من الرعيان فجهز عساكره للقتال، فلما سمع دياب هذا الكلام دق الطبول وركبت الفرسان إلى ساحة الميدان. ونظر الملك نايل قوم الأمير دياب، فأمر بدق طبوله، فنزل الأمير ضرغام ابن الأمير زيدان وطلب مبارزة الفرسان، فما أتم كلامه حتى صار الملك نايل أمامه وقال له: من أنت؟ فقال له: أنا الأمير ضرغام. ومن أنت؟ قال: أنا حاكم مدينة طنجة الملك نايل، ثم التقى البطلان كأنهما أسدان وقام الحرب وزاد الضرب ورجع نايل على خصمه، فلاصقه وضايقه ثم اقتلعه من بحر سرجه

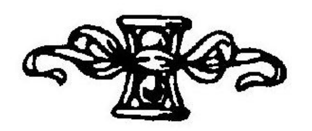
وحذفه إلى الوراء، فأخذه قوم نايل وقيدوه بالجنازير، فبرز إليه الأمير فواز فالتقاه نايل وأخذا في ضرب الصفاح وطعن الرماح حتى زهقت الأرواح، فضربه بالرمح فقلبه وسلمه لقومه، فبرز إليه آخر أرداه وثان أعدمه الحياة وثالث بدد أمعاه ورابع غرقه بدماه، وما زال يقتل حتى قتل عشرين فارساً وأسر ثلاثين ودقت طبول الانفصال فبات الأمير دياب وهو غائب عن الصواب من عظم ما جرى على فرسانه.

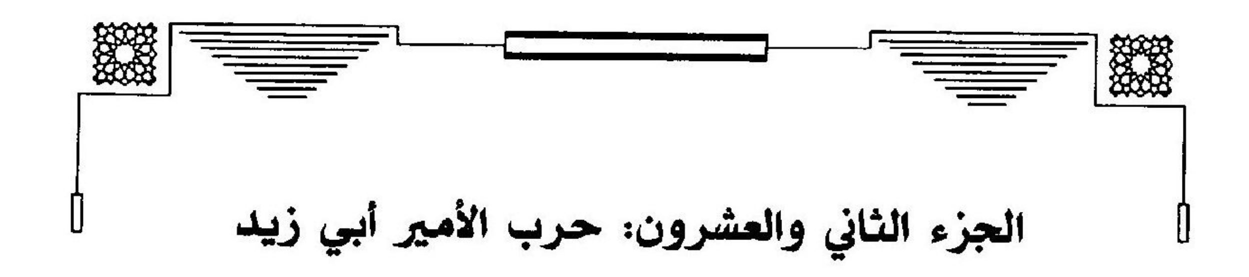
فلما أصبح الصباح ضربوا طبول الحرب والكفاح، فبرز نايل إلى ساحة الميدان ونادى هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ فما أتم كلامه حتى صار الأمير دياب قدامه وقال: أبشر بالهلاك فقد أتاك الأمير دياب، وانطبقا على بعضهما انطباق الغمام فراح بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الأمير دياب، فوقعت الضربة في صدر الأمير نايل، أرمته قتيلاً وفي دمه جديلاً، فولى قومه هاربين وإلى النجاة طالبين، فدخل الأمير دياب البلد وخلص الأسرى وجلس على تخت طنجة واستلم الأموال والذخائر واستولى على الملك ثم استدعى الأمير عقل وأجلسه نائباً على البلد، وخرج قاصداً مدينة طنجة، فوصل إلى سهل واسع الجنبات فيه العيون جاريات، فسرحوا الأغنام وأقاموا يستريحون من عناء الحروب، فسمع بهم الملك مزيد، فلم يمهلهم لأخذ الراحة، فأمر بدق الطبول فتحضرت العساكر عنده والفرسان وبرزت الطائفتان للحرب والكفاح، واصطفت الصفوف وإذا الملك مزيد برز إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فبرز إليه دياب وهو راكب على الشهبا وقال له: من تكون أيها الفارس؟ فأجابه أنا الملك مزيد فارس عشيرته وحامي قبيلته، وأنت من تكون من الفرسان؟ فقال له: أنا الأمير دياب بن غانم فارس الأعارب والأعاجم، عند ذلك حمل البطلان كأنهم جبلان وغنى عليهما غراب البين مدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن، زاد دياب على خصمه الدرهم قنطار وجذب الحسام وضربه على رأسه فهوى السيف إلى بطن الجواد فألقاه على الأرض أربعة أقسام وحمل على العساكر مع بني زغبة ورياح، وفتكوا بهم فتك الذئاب بالغنم، ودخلوا البلد وجلس دياب على الكرسي وضبط الأموال وجمع الغلال ووضع عليها أمير يسمى الأمير خليل، وقال له: أنت تكون نائباً على مدينة طنجة وتقوم مقامنا بالأحكام وترسل لنا الجزية في كل عام.

وحينئذٍ أمر دياب بدق طبول الرحيل وجد المسير إلى القلعة الحائجة، وكان الملك عليها اسمه سليمان، فعندما علم بقدوم دياب أمر حالاً بتجهيز العساكر للحرب، فبينما هم في الانتظار وإذا بجيش الأمير دياب يتقدم إلى الأمام، فهجمت الفرسان على الفرسان واصطدم الفريقان وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالسنان لمدة عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر، برز الأمير دياب إلى الميدان، فبرز إليه الملك

سليمان، فطلع من الاثنين ضربتان قاطعتان، وكان السابق الأمير دياب طعن الملك سليمان بالرمح في صدره، فطلع يلمع من ظهره فوقع على الأرض قتيلاً، فلما نظرت عساكر الملك سليمان إلى ملكها ولت الأدبار، فتبعها أبطال بني زغبة يضربون أقفيتهم حتى شتتوهم، وجلس الأمير دياب على كرسي المملكة واستلم زمامها وأموالها، فعند ذلك ولى عبد الجليل الرياحي نائباً وأوصاه بأحكام البلاد وراحة العباد، وبعد ذلك حضرت عند الأمير دياب جميع بني زغبة وذبحوا الذبائح وعملوا الولائم والأفراح واستراحوا من الحرب والكفاح، وقد انقادت لطاعته العباد وسكان تلك البلاد، فهذا ما كان من أمر الأمير دياب في تلك السبعة القلاع وبلاد الغرب قسمته.







# الجزء الثاني والعشرون: حرب الأمير أبي زيد

واسمع ما جرى للأمير أبي زيد بعدما غادر الأمير دياب حينما توجه كل واحد لأجل أن يملك قسمته، فسار أبو زيد قاصداً بلاد قابس حتى وصل إليها ونصب خيامه وأحاط البلد من جميع الجهات، فلما أصبح الصباح قامت أهالي البلد ونظرت عساكر بني زحلان كأنها مردة الجان، فأخبروا الملك فياض وكان شديد البأس قوي المراس، فصاح على الفرسان وأمرهم بالخروج إلى الحرب والقتال، فركبوا الخيل وركب الملك فياض بمقدمتهم وخرجوا خارج البلد وصاحوا على الدشمان ونزلوا عليهم بطعن كما لسع الثعبان، فالتقاهم أبو زيد بالعساكر وصاروا يمددون الفرسان بالعرض والطول، وبينما هم في حروب متينة التقى الأمير أبو زيد بالأمير فياض، ووقع بينهما القتال وأخذا في الحرب والطعان ولله درهما من بطلين ضرغامين وأسدين كاسرين! فشخصت لهما الأحداق وتطاولت إليهما الأعناق، وتعلمت منهما الفرسان أبواب الحرب والطعان، فضرب الأمير فياض الأمير أبا زيد، فخلى عنها فراحت الضربة خائبة بعدما كانت صائبة، واعتدل الأمير أبو زيد على ظهر الحصان كأنه فرخ جان، وضرب الأمير فياض بالسيف على هامه حط رأسه قدامه وهجم هو وقومه على الدشمان وارتمى عليهم كأنه صاعقة نزلت من السماء، فولت عسكر الملك فياض الأدبار وركنت إلى الهزيمة والفرار، فتبعهم قوم الأمير أبو زيد حتى دخلوا البلد، وملك الأمير أبو زيد القلعة واستلم ذخائرها وأموالها وطاعت لهم جميع سكانها وجلس على كرسي السلطنة وأحضر أميراً من بني زحلان اسمه الأمير حمزة، وولاه على تخت قابس، ثم ودعه وسار قاصداً قلعة سوت، وكان الحاكم عليها ملك عظيم الشأن ذو جند وأعوان يقال له: البهلوان.

وكانت قد وصلت له الأخبار بما جرى للملك فياض من الأهوال، فجمع العساكر والأبطال ونصب خيامه خارج البلد، وإذا بالخيل أقبلت فاستقبلهم البهلوان بالعساكر والجنود، فالأبطال حملت والرجال زحفت والرماح للصدور خرقت والسيوف للرقاب قطعت والدماء دفقت وضربات أبي زيد للفرسان محقت، حتى أهلك الأبطال بطعناته وأفناهم بضرباته وشتتهم بحملاته، فبينما هو يصول ويجول، إذ التقى بالبهلوان وتجاولا في ساحة الميدان وصاح أبو زيد على خصمه وضربه

بحسامه، فبدد أمعاءه وأعدمه الحياة، فلما نظرت عساكر البهلوان ملكها تمدد على الرمال، ولوا الأدبار وركنوا إلى الهزيمة والفرار، فتبعهم أبو زيد ودخل البلد وملك أبراجها وأسوارها وولى عليها أمير يقال له الأمير همزان، وأجلسه على كرسي المملكة. أما المنهزمون من قوم الأمير البهلوان، فإنهم ما زالوا سائرين حتى وصلوا مغوارة، فدخلوا على ملكها وأخبروه بما جرى لهم من الأمير أبي زيد وكيف قتل ملكهم واحتل قلعتهم، وأخبروه أن هؤلاء العربان هم الذين قتلوا الزناتي وملكوا البلاد وسبوا العباد، فلما سمع الملك منهم هذا الكلام، قال لهم: الرأي عندي أن نترك لهم البلد ونذهب إلى مدينة القيروان لعند الملك زهير؛ لأن أراضينا لا تحميها العساكر، فذهبوا وتركوا البلد وقصدوا مدينة القيروان، فلما وصلوا إليها دخلوا على ملكها الأمير زهير وأخبروه بواقعة الحال، فقال لهم: إن هذه الأرض لا تكفينا فالأوفق أن نذهب إلى الأندلس لأنها واسعة حصينة وبها قلعة متينة، فاستصوبوا رأيه وسارت الرجال والأحمال إلى الأندلس لعند الأمير حماد، وأخبروه بواقعة الحال وما جرى لهم، فاستقبلهم بالإكرام وأنزلهم بأحسن مقام وأمر بتحصين البلد، وجلسوا بانتظار الأمير أبي زيد، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر أبي زيد فإنه سار إلى قلعة مغوارة، فخرج أهالي البلد رابطين محارم الأمان في رقابهم، فسألهم أبو زيد عن ملكهم، فقالوا له: لما سمع بقدومك خرج هو والعساكر من البلد، وهربوا إلى مدينة قيروان لعند الملك زهير، وحينئذ أعطاهم الأمان ودخل البلد وضبط الأموال وولى الأمير مروان على تخت القلعة، ورحل طالباً مدينة القيروان، فلما وصل إليها استقبله الأهالي وفي رقابهم المحارم، فسألهم عن ملكهم فقالوا: ذهب إلى الأندلس، فحينئذ أعطاهم الأمان وضبط أموال القلعة وولى عليها الأمير مسعود، وأوصاه بالأحكام ورحل طالباً قلعة الأندلس، فلما وصل إليها رأى العساكر كأنها قطع الغمام، فأمر بنصب الخيام، وكان قد أقبل الظلام، فبات الفريقان يتحادثان تحت مشيئة الرحمن، إلى أن أصبح الصباح وضربوا طبول الحرب والكفاح واعتقلوا بالسيوف والرماح، فبرز الأمير حماد إلى ساحة الميدان ولعب بالسيف والسنان حتى حير عقول الفرسان، ثم طلب مبارزة الأبطال فبرز إليه الأمير أبو زيد.

وصاح على خصمه وضربه بالسيف على رأسه شقه لتكة لباسه، فلما رأى قوم الملك حماد ملكهم قتيلاً، ولوا هاربين ورجعوا إلى البلد، وهجم الأمير أبو زيد وهجمت وراءه بنو زحلان الشجعان، وتبعوا الدشمان حتى دخلوا البلد، فجردوا بهم السيف البتار حتى صار الدم في المدينة كالأنهار، وبعد ذلك رجعت عنهم الفرسان

وجلس أبو زيد على كرسي المملكة وحينئذ طلبت الأهالي الأمان، فأعطاهم الأمان وطاب لهم مكان الأندلس والقيروان، وحينئذ ولى الأمير أبو زيد طوي بن مالك تلك القلعة ووصاه بالأحكام، وساروا قاصدين مدينة مركاش، فلما وصلوا إليها نصبوا الخيام، فلما بلغ مالك قدوم العربان، جمع أكابر دولته وسألهم عن سبب قدومهم، فقال أحدهم: إنهم من قوم بني هلال الذين قتلوا الزناتي خليفة والعلام، وملكوا جميع البلاد وهم رفقاء الذين تملكوا السبعة قلاع ناحية الشرق، وقد أتوا إلينا ليملكوا أرضنا، وبينما هم في الحديث وإذا برسول وقف بين يدي الملك وقال له: إن سيدي الأمير أبو زيد يقرئك السلام ويقول لك أن تسلم البلد،وإلا يحل بك الدمار كما حل بغيرك من الملوك، فلما سمع الملك هذا الكلام خاف وارتعب والتفت إلى أكابر البلدان وقال لهم: ما عندكم من الرأي؟ فقالوا: الرأي عندنا أن نصالحهم ونسلمهم البلد، فقال لهم: خذوا الرسول إلى بيت الضيافة، ثم جهزوا حالهم وخرجوا إلى ملتقى الأمير أبي زيد، فلما رآهم بنو هلال مقبلين بدون سلاح، عرفوا أنهم سلموا البلد، فلاقوهم أحسن ملاقاة وأضافهم قوم مالك، ثم قدموا له الدفاتر والأموال فاستلمها الأمير أبو زيد وأجلس الأمير مالك على كرسيه، بشرط أن يدفع الجزية في كل عام، وبعد ذلك ودعوهم وساروا إلى أن وصلوا إلى مدينة حصينة فيها أبراج وأنهار وأطيار تسبح الملك الغفار واسمها قلعة زوارة، وكان يحكم عليها ملك عظيم الشأن ذو جند وأعوان يدعى الأمير كامل، وكان قوم مالك المنهزمون قد أخبروه بما جرى عليهم من الحروب، فبالحال أمر بتجهيز العساكر والمهمات والذخائر إلى الحرب والقتال، وأشار يتهدد بني هلال ويقول:

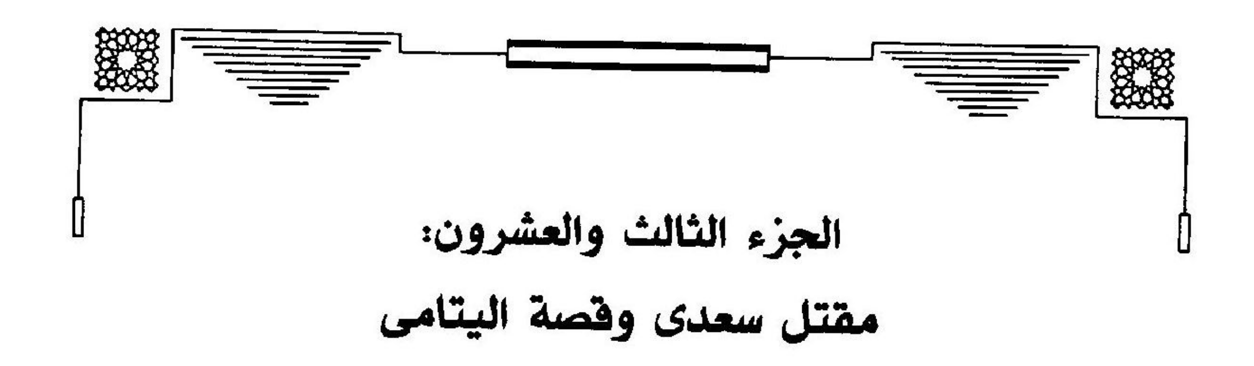
| | |
|---|---|
| يقول الفتى كامل على ما جرى له | نيران قلب زايدات الضرايم |
| فيا أيها الغادي توصل رسالتي | إلى حسن سلطان قيس الأكارم |
| وقول له الملك كامل يقول لك | بأي سبب لأرضنا جيت قادم |
| فإن كنت تطلب السلامة فارتجع | وهد خيامك ثم ارتد سالم |
| مرادكم قلعة زوارة وملكها | فيها قروم ليس يخشوا الصوارم |
| وإن كان لا بد عن القتال والقنا | أجيك كما سبع للصيد هاجم |

فلما فرغ الأمير كامل من نظامه، أرسل الكتاب لعند الأمير أبي زيد فقرأه وعرف ما حواه، فأمر بدق طبول الحرب، فلما سمع الأمير كامل صوت الطبول أمر بدق طبوله، وتحضرت الفرسان إلى الميدان، فلما التقت الطائفتان ووقعت العين على العين، برز الأمير كامل إلى الميدان وكأنه الأسد الغضبان، فبرز إليه أبو زيد فتقاتلا بالميدان وتفننا في أبواب الحرب والطعان، وما زالا في حرب شديد يفك الزرد

النضيد مدة عشرة أيام، ثم برز أبو زيد إلى الميدان فصال وجال وطلب مبارزة الأبطال، فبرز إليه الأمير كامل فالتقى البطلان كأنهما قلعتان حصيتتان وابتدرا بضرب السيوف وطعن الرماح، حتى تمكن منه أبو زيد وضربه بالسيف على هامه، حط رأسه قدامه، وحينئذ هجمت من ورائه الفرسان وغاروا على الأعداء بطعن يشيب الأطفال، وضرب يكسر الصوان إلى أن أدخلوهم البلد وجلس أبو زيد على كرسي المملكة وأحضر الأمير هادي ووضعه حاكماً على قلعة زوارة، وبعد ذلك جهز أبو زيد الأموال وحملها على الجمال وأمر بدق طبل الرحيل وسارت الجيوش والمواكب والفرسان والكتائب ومعهم الأغنام والمكاسب حتى وصلوا إلى عين تورز وهي بنصف الطريق، فجلس أبو زيد لأجل الراحة وأمر بذبح الأغنام وشرب المدام، وبينما هم على هذا الحال إذ طلعت عساكر الأمير دياب من ناحية الغرب الجنوبي، فلما التقى أبو زيد والأمير دياب هنؤوا بعضهم بالسلامة وحكو عما قاسوه من الحروب والأهوال وجلسوا ثلاثة أيام، ثم جدوا بالمسير حتى وصلوا إلى تونس، فلما علم الأمير حسن بقدومهم خرج لاستقبالهم بالنساء والرجال، وعند ملتقاهم هنأهم بالسلامة ودخلوا بموكب عظيم ودارت البشائر في نجوع بني هلال، وفرحت في قدومهم النساء والرجال، وبعدما استراحوا سألهم الأمير حسن عن الأحوال التي جرت لهم، فأخبروه عما حصل معهم وبما قاموا به من الحروب والأهوال في تملك السبعة تخوت، وحينئذ أمر حسن بعمل وليمة كبيرة وبذبح الأغنام وترويق المدام ودعا إليها الخاص والعام، ثم قسموا بلاد الغرب بينهم بالسوية بين أبي زيد وحسن ودياب، لكل واحد الثلث، فكان لدياب السبع قلاع في بلاد الغرب وكانت تونس له من غير حساب؛ لأنها عوض عن الخضرا، ثم رحل الأمير حسن إلى القيروان وجعلها عاصمته، وأبو زيد جعل الأندلس له عاصمة، حينئذ جلس كل واحد بمملكته بكل أمان.







# الجزء الثالث والعشرون:
# مقتل سعدى وقصة اليتامى

(قال الراوي): لنرجع الآن إلى سعدى بنت الزناتي، فإنها كانت باقية بقصر أبيها عند حريم دياب تقاسي أنواع الذل والعذاب، فلما رأت أن حسن نسيها وكذلك أبو زيد، فرأت أن تكتب للأمير حسن وتطلب خلاصها من دياب وأنها مظلومة عنده للغاية، فكتبت كتاباً وسلمته لنجاب، فلما وصل إلى حسن أعطاه الكتاب ففضه وقرأه، فتغيرت منه الأحوال، وحينئذ أرسل عبده جوهر إلى أبي زيد وأخبره بالقضية، فحضر أو زيد ومعه خمسة آلاف فارس من بني زحلان، فاستقبله حسن وسلم عليه وبعدما ارتاح قال لحسن: ما الخبر أيها الأمير؟ فأعطاه كتاب سعدى، فلما قرأه أمر بإحضار النجاب، فلما حضر قال له: أخبر الست سعدى أننا بعد ثلاثة أيام نكون عندها، فسار العبد وأخبرها بأنهما سيأتيان ليأخذاها، ففرحت وصارت تنتظر قدومهما، وأما حسن وأبو زيد فقد ركبا في ثاني الأيام وسارا حتى دخلا إلى تونس الغرب، فلما رآهما دياب نزل واستقبلهما بالترحيب والإكرام وأدخلهما القصر وذبح لهما الذبائح، فأقاما بضيافته ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع قال لهما دياب: لقد شرفتمونا بهذه الزيارة، وكان الواجب أن أرحل أنا إليكم لولا، فقال حسن: نحن أتينا لأمر مهم، فلما فرغ حسن من كلامه، اغتاظ دياب الغيظ الشديد ولكنه أخفى الكمد وقال: سعدى باقية كما هي، وأما قولك إني طلبت أن أتزوجها فهذا كذب، فقال حسن: هذا كتاب سعدى اقرأ، فقرأه دياب فاغتاظ أكثر من الأول، وقال: المرأة التي تخون أباها لا يكون فيها خير لأحد، فقال: هي خطيبة مرعي فأطلب أن تسلمني إياها وإلا يقع بيننا أسباب ما هي في حساب.

ورد عليه دياب، فلما انتهى من كلامه، هجم عليه حسن وقال: والله لو لم نكن ضيوفك لضربتك بهذا الحسام، ثم أرادا أن يهجما على بعضهما، فمنعهما أبو زيد وقال: ما هذه الفعال تتقاتلان لأجل بنت؟ اسمعا عندي رأي حسن، فقالا: ما هو؟ فقال: نحن نضع سعدى في مكان بعيد في آخر الميدان ونكون راكبين على خيولنا بأول الميدان ونطلق الأعنة، فالذي يصل إلى سعدى قبل الآخر تكون ملكه ويأخذها، وقصد أبو زيد أن يأخذها عنده وقال في نفسه: أما خضرة دياب ماتت وبنتها صغيرة ما هي مثل خيلنا، وإن أخذتها أعطيتها لحسن، وينحسم الشر لأننا

ضيوف عند دياب، ولا يليق أن نأخذها بغير رضاه، فقال حسن: رضيت ودياب رضي أيضاً، وفي اليوم الثاني أحضروا سعدى إلى الميدان وأوقفوها في آخره، ووقفوا هم في أوله وأعطوا لبعضهم الإشارة، فخرجوا كأنهم نشاب وكان دياب راكباً الشهبا ابنة الخضرا وكانت أحسن من أمها، فراحت أمام الجميع ومن خلفه أبو زيد على الحصان، وخلفهما حسن على الحيصا وكانت المسافة مقدار ساعة، فلما وصل إليها دياب قالت له سعدى: أنا أختك يا دياب، وكان أبو زيد علمها أن تقول ذلك، فلما سمع كلامها عرف المضمون، فشهر حسامه فجرحها جرحاً بليغاً، فصاح به حسن وقال: لماذا عملت هكذا يا دياب؟ قال: أنت قلتم إن الذي يسبق إليها تكون ملكه، وهي صارت ملكي، فأتصرف فيها كيف أشاء،وبما أنها خائنة لا أريد أن أبقيها عندي، ثم ألوى الشهبا ورجع، وأما أبو زيد فقال إلى حسن: صدق دياب هذه حقه، ثم نزلا إلى سعدى فإذا هي في قيد الحياة، فحملاها وسارا بها حتى دخلا القيروان واجتمعت البنات والنسوان لما عرفوا بقتل سعدى، وكذلك مرعي فإنه مزق ثيابه وصار كالمجنون، وأما سعدى فإنها فتحت عينيها من حلاوة الروح وأشارت تودع الدنيا بكلام يفتت الأكباد.

فلما فرغت سعدى شهقت شهقة واحدة، وماتت، فأقاموا عليها الصياح والبكاء والنواح، ثم غسلوها ودفنوها، وأما دياب فإنه طغى في الحكم وبغى وصار يظلم الناس وما عرف كيف يتصرف بالملك، فأفسد عليه أهل الغرب بني زغبة، وصاروا يوشون لهم حتى صار أكثرهم يبغضه، ودامت الأحقاد بين دياب وحسن وأبي زيد، ولكن في الظاهر كانوا يظهرون المحبة والمودة وفي الباطن كانوا يخفون ما في قلوبهم.

(قال الراوي): هذا ما كان من دياب وبني هلال، واسمع ما جرى من زعيمة ست الغرب أخت الزناتي، فإنها لما أعلنت بأنه وقعت البغضة في بني هلال، قصدت أن ترمي الفتنة بين الأمير دياب والأمير حسن، فجمعت عشيرتها وأخو العلام وقالت لهم: لقد فقدنا أخي الزناتي والعلام والجايلي ومَلَكَ بنو هلال بلاد الغرب وما خلّوا لنا ملجأ نسكن فيه وقد أحزنني موت سعدى وكسر ظهري، وكان كل أملي فيها أن تعزينا، والآن مرادي أن أتوجه إلى بني هلال وأرمي فيهم الفتن، فقال لها: أخو العلام نخاف عليك من أبي زيد لأنه مكار، فقالت: لا تخف علي منه، وودعت قومها وسارت قاصدة بني هلال بصفة شاعرة، فوصلت إلى تونس الخضرا فدخلت على الأمير دياب وقبلت يديه وقالت له، قد سرتني سلامتك وفرحت بقتلك الزناتي؛ لأنه أكبر أعدائي فقتل أهلي ويتم أولادي وأخذ مالي وعدت حزينة غريبة في أقصى البلاد، فلما علمت أنه مات، ركبت ناقتي وقصدت منازلكم العامرة، فأنا عندي في

هذه الأرض عين سلوان وغيط البهرجان، وقصدي أن يكون الغيط من قسمتك، فقال لها: ما يكون هذا الغيط وفي أي جهة، فقالت له: غداً صباحاً أريك إياه، فلما أصبح الصباح ركب الأمير دياب في جماعته والعجوز دلتهم على الغيط، فانبسط الأمير دياب وانشرح لما نظر تلك الغدران التي تدهش البصر وتلك القصور العامرة والأشجار الفاخرة،وصار يجني الأثمار ويقطف الأزهار، فقالت له العجوز: أرجوك أن تسمح لي أن أذهب إلى أولادي وآخذ لهم حملاً من الفواكه، فقال لها: افعلي ما بدا لك ولكن لا تطولي علينا، فأخذت ست الغرب من أفخر أثمار الغيط، وذهبت إلى الأمير حسن والأمير أبي زيد وسلمت عليهم وقدمت لهم الهدايا وأشارت تصف لهم الغيط والبهرجان وعين سلوان.

فلما فرغت من كلامها والأمير حسن والأمير أبو زيد سمعا شعرها ونظامها، وقع الحسد عندهما من الأمير دياب،ثم أنعما على العجوز فذهبت في حال سبيلها، وقال الأمير حسن: والله يا أبا زيد، إن الأمير دياب حاز أفخر ملك الغرب ومرادنا أن ننظر هذا الروض، وصار حسن يخابر أمراء الغرب على الفتك في دياب،ثم جمعوا الفرسان والأبطال وركب هو والأمير أبو زيد، وما زالوا سائرين إلى أن دخلوا غيط البهرجان وعين سلوان، ولما نظر الأمير حسن وأبو زيد هذا المنظر وعلو القصر وجميع ما ذكرت عنه العجوز وزيادة، تعجبوا غاية العجب، ولما علم الأمير دياب بحضورهما استقبلهما وسلم عليهما، فقال أبو زيد: يا أمير دياب نحن ماسكين البقرة من ذنبها وأنت تحلبها فقال الأمير دياب: إذا الله أعطى فمن يمنع وإذا منع فمن يعطي، فقال الأمير أبو زيد: فإن شئت يا أمير دياب تعطي هذا الغيط إلى الأمير حسن، فامتنع دياب فانغبن أبو زيد منه وساق الجمال وهجم على الغيط فهدمت الأسوار وردمت الأبيار وكسرت الأشجار، ولما نظر دياب هذه الأعمال جمع بني زغبة ليلاً وحضر ثلاثمائة ثعلب ودهنها بالزفت والكبريت وأشعل النار في أذنابها وأطلقها بين زرع بني هلال، وكان أيام الحصاد، فاشتعل الزرع، فوصل الخبر إلى الأمير حسن فخرج هو وقومه ليطفئوا الحريق ولكن كان احترق أكثره وما بقي إلا القليل، فغضب حسن وعرف أن هذا الفعل فعل دياب فجمع قومه وراح يستشيرهم على حرب دياب، فقالوا: الأحسن أن ترسل وراءه، فإن أطاع السلطان يحرم قتاله، وإن أبى حاربه، فاستدعى دياب، فلما وصل النجاب أبى ولم يحضر.

فلما فرغ دياب من الكتاب، أعطاه للنجاب وقال له: اعطه إلى الأمير حسن، فأخذه وسار حتى وصل إليه فقرأه على رؤوس الأمارة، فقالوا له: افعل ما تريد، فعند ذلك أشار يحثهم على حرب دياب وقتله.

فلما فرغ حسن من كلامه وبقية الأمراء يسمعون نظامه، قالوا: الحق معك دياب، غدار وما علاج الغدار إلا ضرب البتار؟ كل هذا وأبو زيد ساكت، فقال حسن: لماذا يا أبا زيد أنت ساكت؟ فقال أبو زيد: أنا أرى من الموافق أن لا تقاتلوا دياب لأنه منا وفينا ونحن طول عمرنا عايشين سوا ودايماً أنا وهو نتعاون على الخير والشر، فإذا حاربته فإما أن أقتله وإما أن يقتلني، ومن قتل منا تخسره بنو هلال والرأي عندي أن نصلح بينكم ويذهب كل شيء إلى حال سبيله، فقال حسن: لا بد عن قتاله لأنه ما كفاه خرج عن طاعتي ووضع رمحه فوق تونس ليمرقنا من تحته وقتل سعدى خطيبة مرعي أمامي، وهي صارت من حريمنا، وقد طمع فينا وأراد أن يأخذها، فقال أبو زيد: أنا أروح معكم ولكن لا أقاتل بل أصلح، ثم إنهم جمعوا قومهم وذهبوا إلى قتال دياب، فلما وصلوا إليه وعلم بهم، خرج بقومه لقتالهم، فلما قرب الجيشان برز حسن إلى الميدان، فبرز إليه دياب فالتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين، وثار الغبار وسد منافس الأقطار وقدحت حوافر الخيل ناراً وكلت منهما الزنود وزهقت منهما الكبود وأطلقا الأعنة وقوما الأسنة مقدار ساعة من الزمان، طلعت من الاثنين ضربتان قاطعتان، كان السابق بالضربة الأمير دياب، فوقعت على فرس حسن فقتلتها، فوقع السلطان على الأرض فأسرع أبو زيد وخلصه، وأما مرعي لما نظر أباه السلطان وقع على الأرض هجم على دياب فضربه دياب بالحربة جت على فخذه فأرماه إلى الأرض، ثم إن دياب لوى عنان جواده ورجع وما أحد تبعه، ثم اجتمع بقومه وقال لهم: عرفتم ما صار بيننا وبين حسن، فما الرأي عندكم؟ قالوا: الرأي عندنا أن تغيب مدة من الزمان حتى تصلح الأحوال ويروق البال، لأنك تعديت على حسن وعلى ابنه مرعي وربما حشد الأمير أبو زيد، فتقع الحروب ونفني بعضنا وتشمت الأعادي بنا فقال لهم الأمير: لا أرحل من هذه البلاد ما لم أقتل حسن، هذا ما كان منه.

وأما حسن قام من وقته وهو مجروح، فحملوه وأخذوه إلى القيروان وصار الأمير أبو زيد يلوم حسن ويقول له: أنت تعديت على دياب، وكان مرادك أن تقتله، ومن الموافق أن تصغيا لقولي وترفعا الحقد من بينكما، ثم إن أبا زيد أصلح بين حسن ودياب، ولكن بقيت البغضة كامنة إلى يوم من الأيام جمع حسن قومه وسادات عشيرته وقال: مرادي زف مرعي على عطر بنت أبي زيد، فنادوا في جميع العربان مدة العرس شهر تمام، لا أحد يأكل ولا أحد يشرب إلا عند الأمير حسن، فذبح الذبائح وعمل الولائم، ثم استدعى عشرين فارساً من أولاد عمه، وقال: مرادي أرسلكم إلى تونس لتعزموا دياب، وكتب له كتاباً يعرفه فيه بالحضور، وسلمه إلى

أمير من أولاد عمه وقال لهم: لا ترجعوا إلا ودياب معكم، فأخذوا المكتوب وساروا يقطعون الروابي والهضاب قاصدين الأمير دياب، وأما دياب في تلك المدة فقد حلم حلماً هائلاً، فاستدعى ابن عمه مسلم، فلما حضر سأله عن الخبر فأشار يعلمه ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو موسى دياب ابن غانم | الأيام ما تبدي بيوم سعيد |
| رأيت مناماً يا أمير مسلم | نكد علينا غاية التنكيد |
| رأيت خلخالاً على ساق فضة | يدور على الرجلين بالتوكيد |
| ورأيت جماعة من رجالي قدمتهم | وما شفعتهم بالعين يا صنديد |
| ورأيت أني في وسط قاعة مربعة | ومصفحة أبوابها بحديد |
| فسر لي منامي يا أمير مسلم | واشرح منامي يا أمير وفيد |

فلما فرغ دياب من كلامه، قال له مسلم: لا تفكر يا عمي لأن هذه أضغاث أحلام وما هو إلا من ثقل الطعام، وبعد مدة من الزمان أقبل عليه عشرون أميراً من عند حسن فدخلوا وسلموا عليه وأعلموه بعزيمة حسن وأعطوه الكتاب، فلما قرأه وعرف رموزه ومعناه، انسر وانشرح جداً وسألهم عن صحة الأمير حسن وأبي زيد وعن أخته نافلة وعن بقية نجع بني هلال، فقالوا: الجميع يهدونك السلام والتحية والإكرام، وكان قد سمع بهذا الخبر فما ظن بسوء، فقال لهم: بعد ثلاثة أيام إن شاء الله أكون هناك، فسلموا على الأمير حسن، فذبح الذبائح وأولم الولائم واجتمعت القبائل عنده، وهم في بسط وانشراح إلى أن كان اليوم الثالث نظروا الغبار من جهة تونس من بني زغبة الأنجاب، فخرج واستقبلهم وسلموا على بعضهم البعض، وكان دياب لابساً جبة من الحرير الأخضر وعلى رأسه عمامة من البرفيل والأرجوان ومعه ألف فارس من بني زغبي الأنجاب، ثم دخلوا على الأمير حسن فترحب بهم غاية الترحيب وجلس دياب على كرسي من العاج كأنه الذهب الوهاج، وقومه حواليه، ثم أمر الأمير حسن بإحضار القهوة والكأس والشراب، وأحضر مائدة مصحوبة بألف فارس ضرغام، فلما جلسوا على المائدة وجدوا المناسف مغطاة، فرفع الأمير دياب الغطا عن المنسف فلم يجد فيه طعاماً، وإنما وجد فيه قيوداً من الحديد، فقال الأمير دياب: ما هذا يا حسن؟ فقال له: الواجب أن تتقيدوا إلى السلطان ولو ساعة، فعندها وضع الأمير دياب القيد برجله وفعل الباقون كفعله وبينما هم كذلك وإلا اندفعت فرسان دريد لداخل المكان، بيدهم الخناجر والسيوف، فعندها أمر الأمير حسن بنصب المشانق والحبال وقال: اقتلوا جميع هؤلاء الرجال، فذبحوا ستين أميراً أمام دياب وأبيه، والباقون أمر بشنقهم، أما الأمير غانم وولده

دياب فكادت تفقأ مرارتهم من الحزن ولكن لم يستطعا عمل شيء؛ لأنهما أسيران وخاليان من السلاح والأمير حسن ينصب المشانق ويصيح بأبي الفردوس اشنق ولا تتأخر، فعندها شنق أبو الفردوس جميع أمراء زغبي الموجودين، فأقامت نساؤهم الصياح والبكاء والنواح حتى ارتجت من صراخهم تلك الروابي والبطاح، وبينما هم في تلك الأحوال، دخل القاضي سرور إلى الديوان، فلما رأته أخته بذلا سلمت عليه وحيته بكلام جميل.

فلما سمع سرور كلام عمته دخل لعند الأمير حسن، فاستأذن بتنزيل القتلى، فأمر حسن بتنزيلهم، فأنزلوهم وأخذهم بنو زغبة وواروهم التراب، وبعد ذلك صاح حسن على أبي الفردوس، اشنق دياب فقال القاضي: الشفاعة في دياب، فقال حسن: ما في شفاعة لأنه حرق الزرع وقتل سعدى وعصى وقطع الطرقات ومشى في أمور ما شافها أحد قال القاضي لدياب: أنت قتلت إخوته وحرقت الزرع وقتلت سعدى ابنة الزناتي خليفة ونصبت الرمح فقال دياب: نعم، وتكلم، ثم لما فرغ من كلامه والأمراء يسمعون نظامه، فقالوا للقاضي: بماذا تصدر الحكم على دياب؟ فقال: الشريعة تحكم على دياب بحبس سنة كاملة، فلما سمع حسن ذلك الكلام استدعى بزحزاح السجان وقال له: خذ دياب إلى السجن. فلما فرغ الأمير حسن من هذه الأبيات سار الزحزاح بدياب إلى السجن، ووضع قيود الحديد في رجليه وعنقه.

(قال الراوي): ولما وصل الخبر إلى أبي زيد، أتى من الأندلس إلى حسن، فسلم عليه ورحب به غاية الترحيب، ثم سأله أبو زيد عما فعل فأخبره الأمير حسن بما فعل فاغتاظ أبو زيد وأنشد يقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو زيد الهلالي سلامة | نيران قلبي زايدات ضرام |
| يا بو علي ما خفت ربنا الباري | تفعل فعايل مجرمين طغام[1] |
| عملت في قومك عمايل شنيعة | ما كان لازم تقع في الإجرام |
| طغيت في حكمك يا أمير أبو علي | الظلم يجعل القصور هدام |
| الله أوصى بالعدل يا حسن | في يوم تجري به الأحكام |
| غداً ينصب الميزان ونتحاسب سوا | وربك يجازي المليح قوام |
| ومن كان فعله بالقبيح فإنه | يجازى بنار زايدة إضرام |
| أخطى دياب الخيال فاصصت غيره | هذه الأفعال والله حرام |
| صار الذي صار وما فيه فايدة | وأمر إلهي نافد الأحكام |

(١) الطغام أوغاد الناس (للواحد وللجمع) والعامة تقول أوباش.

قيموا عزاهم يا أمارى جميعاً　　فهم شهداء في أعلى مقام

فقال له حسن: ما عملت مع دياب إلا ما استحقه، فإن كنت قتلت عمه وإخوانه فهو قتل أخي وخطيبة ابني مرعي وجرح مرعي فجرح قلبي عليهم، فقابلته بمثل ما قابلني وجرحت قلبه عليهم، ثم إن الأمير حسن بعث ألف فارس إلى تونس، وأمرهم أن يحضروا له خزانة تونس وسلاح دياب وأثاث بيته وكل ما يوجد في قصر الزناتي، فذهبوا وأحضروا ما أمرهم به، أما الأمير دياب فقد مضى عليه سنة وهو محبوس يقاسي الذل والهوان، فافتكر في أيام عزه وتذكر أولاد عمه وتذكر الشهبا بنت الخضرا، فطلب من الزحزاح أن يقدم له ما يلزم لكتابة مكتوب، فأحضر له الزحزاح طلبه فكتب كتاباً إلى والده الأمير غانم.

ولما فرغ دياب من كتابه، طواه بعد أن ختمه وأعطاه إلى الزحزاح، فأخذه وسار لعند غانم وأعطاه إياه، فلما قرأه أنشد يقول:

يقول الفتى غانم بعين وجيعة　　ونيران قلبي زايدات وهاج

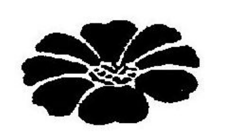
تصبر أيا زغبي على الهم والبلا　　وإياك بين القوم تكون لجاج

وإذا لم تصبر يا دياب ابن غانم　　يبقوا الزغابي في شقا وهجاج

قدامهم يوم طويل وشدة　　وحرب عوان يهوجوا فيه هياج

فلما فرغ غانم من الشعر، طوى الكتاب وأعطاه للزحزاح وأوصاه أن يكتم سره، وأعطاه خمسمائة دينار وأيضاً خمسمائة إلى ولده دياب، فأخذها وسار إلى أن وصل إلى دياب، أعطاه الأمانة والكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه، وبعدها انترك دياب من الجميع وما عاد يفتكر فيه لا شريف ولا وضيع غير أهله والخلان، وأبو غانم ليث الميدان هذا ما كان من هؤلاء، واسمع ما جرى للأمير أبي زيد وحسن، فقد طابت لهم الأحكام وراق لديهم الزمان ونسيتهم صروف الحدثان.

□□□□□



## قصة عزيز القوم أبي زيد ورجوع عليا مع أبي زيد

(قال الراوي): ففي ذات يوم كانوا مجتمعين حسن وأبو زيد في الديوان ومن حولهم السادات والأعيان وأمامهم الأبطال والفرسان، فدخل عليهم نجاب وسأل عن الأمير أبي زيد فأهدوه عليه، فتقدم وتمثل بين يديه ثم قال له: أنا من نجد من عند الست عليا بنت حسن الجعبري، وهي تهديك السلام والتحية والإكرام، وهي من وقت فراقك تطلبها الأمراء والسادات والفرسان، والآن مدورين عرسها على الأمير نوفل فارس الميدان، وقد قامت الزينات في الحي من كل مكان وعليا غير راضية بهذا الشأن، غير أن نوفل كتب كتاباً عن لسانك، أنه ما عاد لك بعليا مأرب ولا عدت ترجع من أرض المغارب، فزوجها لمن تريد، وعندما بلغ عليا هذا الخبر تنغص عيشها وتمرمر ثم أخرج الكتاب وباسه وأعطاه إلى أبي زيد، ففضه وقرأه، ولما وقف على معناه غرغرت عيناه بالدموع، فلما رآه حسن وبقية السادات قالوا: ما جرى عليك يا أبا زيد وما هذا الكتاب؟ فحينئذ ناول الكتاب إلى ابن أخته عزيز القوم لأنه كان بجانبه، فقرأ كتاب عليا على رؤوس السادات، فلما فرغ من قراءته قال حسن: والله يا أبا زيد الحق مع عليا لأنك قطعت عنها المخابرات، وقد حرمت من رؤية أولادها وأنت ما عدت ذكرتها من اليوم تخاصمت هي والجازية، ورجعت من مصر مع أبيها حسن جعبري إلى نجد، وليست هذه من أفعال الأمراء الكرام، فقال أبو زيد: هذا هو الحق والصواب، ثم أخذوا العبد وصاروا يضيفوه ثلاثين يوماً، فعندما تحرك حج العرب للزيارة فنهض العبد إلى أبي زيد وأخبره بالمسير إلى بلاد نجد صحبة الحجاج، فأعطاه أبو زيد مطية وثلثمائة دينار وأشار يخبر عليا ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو زيد الهلالي سلامة | وطير النيا حكم بقلبي مخالبه |
| من البعد والفرقة ياما أصابنا | وكيف حال المرء فارقوه حبايبه |
| أيا غاديا مني على متن ضامر | تجد السير في البر تجري ركايبه |
| إذا جيت نجد العدية وأرضها | فسلم على عليا وباقي قرايبه |
| وقول لها يا منية القلب والحشا | شخصك مصور في فؤادي نصائبه |
| وما عاقني إلا خليفة وحربه | سقيناه كأس الموت مره مشاربه |

قتله أبو موسى دياب بن غانم ... ادعى دماه على الثرى سكايبه
أخذنا بلاده والقصور جميعها ... وأمواله تلفت وراحت ذهايبه
وأميرنا حسن الهلالي أبو علي ... بكل بلاد الغرب حلت ركائبه
كتبت على صدري مسائل كثيرة ... خيام وسلطان وقاضي ونايبه
ولا بد من قاضي يشرح الحكم بيننا ... ويبان للمغلوب من كان غالبه
تعذيبي بالبعد والبعد خيبة ... إذ طال عمر المرء تكثر متاعبه

فلما فرغ أبو زيد من إنشاده، طوى الكتاب وختمه بختمه، وأيضاً شيبان وإخوته كتبوا مكاتيب لعليا والدتهم، وأعطوها للنجاب وساروا معه سفر يومين حتى وصل مع الحج للقدس الشريف، ومن هناك إلى مكة والبيت الحرام، وبعد ذلك رجعوا وسار العبد يقطع البراري والقفار حتى وصل لنجد ودخل على عليا، فترحبت به وسألته عن أبي زيد وعن أولادها، فأجابها بكل خير، وناولها المكاتيب، فلما قرأت كتب أولادها نزلت دموعها وطلبت من الرحمن أن يفرج همومها. هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أبي زيد فزادت بلابله وأشواقه لمشاهدة عليا، ودام على هذا الحال شهراً كاملاً، ثم طلب من بعض جنوده وأصحابه أن يرافقوه لبلاده نجد، فأبوا وقالوا: نحن ما صدقنا حتى وصلنا للغرب واسترحنا من الطعن والضرب، فاغتاظ أبو زيد وطار من عينيه الشرر، فحينئذ قام الأمير عزيز القوم فارس الفرسان وحامي الميدان والذي شهدت له الأقران بالحرب في وقائع الجولان، وهو ابن خالد بن شيحا أخت أبو زيد وأبوه قتل في مصر بوقعة الملك فرمند، وربي عند أمه يتيماً في حمى أبي زيد، حتى اشتدت أوصاله وراقت أحواله، فصار فارساً عظيماً وشيطاناً رجيماً هابته الفرسان في الحرب والطعان، وكان ابن سبعة عشر سنة أمرداً لا نبات بعارضيه، وكان يضع برقعاً على رأسه خوفاً من النساء، تطرح من حسنه فتقدم إلى أبي زيد وقال له: يا خال أنا رفيقك لنجد.

فلما فرغ عزيز من كلامه، انتخى الأمير يونس وقال: أنا معك يا عم لنجد ففرح أبو زيد وأيقن ببلوغ الوطر، ثم ودعوا أهاليهم وجدوا في قطع الروابي والآكام، مسافة تسعين يوماً، فوصلوا لأرض قفرا، فرأوا بئراً فقصده يونس ووجدوا دلواً وحبلاً على جانب البئر، فشد الحبل فانقطع بوسط البئر، فهم عزيز القوم بالنزول فمنعه أبو زيد وقال له: هذا بئر مملوء بالحشرات المؤذية المسمة، فسيروا إلى أن يفرجها الله تعالى فقال يونس: لا بد لي من النزول إلى البئر لأني كدت أتلف من شدة العطش، فقال أبو زيد: الروح ما هي حشيشة حتى ينبت موضعها، والحشرات المؤذية لا تعرف لا أميراً ولا سلطاناً، قال يونس: دعك من هذا الكلام فما أحد

ينزل إلا أنا، فحينئذ أخذ الحبل ونزل إلى البئر فشرب وملأ الدلو، ولأجل نفوذ القضاء والقدر خرج عليه من جانب البئر ثعبان شنيع المنظر ولدغه بفخذه، فلما أحس يونس بضربة الثعبان غاب عن الوجود وزعق صوتاً ارتج منه ذلك المكان، فغاب الثعبان عن عيونه وكان أبو زيد واقفاً على جانب البئر، فقال مالك: يا يونس وما جرى عليك؟ فقال له: لدغني ثعبان، ثم نهض لخارج البير وحس أن قلبه قد احترق بنار السعير، وشكا حاله لأبي زيد وعزيز، فنزلت دموعهما حرقة عليه.

ثم تودع منهما وشهق شهقة فأسلم الروح، فبكيا عليه وكفناه وصليا عليه ودفناه، ثم سارا حتى وصلا لنجد، ودخلا لحي الأمير حسن الجعبري، فوجدا فيه نفخ الزمور ودق الطبول والحي يهوج ويموج، ومرت أمامهما عجوز شمطاء لابسة حلة بيضاء، فحياها أبو زيد بالسلام فردت عليه السلام، فقال لها: هل عندك محل للمنام؟ فقالت له: أهلاً وسهلاً بكما. وسارت بهما إلى منزلها، وبعد أن جلسا قال أبو زيد: مالي أرى الحي في فرح وسرور وبهجة وحبور؟ فقالت له: اعلم يا وجه العرب إن هذا عرس كريم، وهو عرس الأمير نوفل على الست عليا ابنة الأمير حسن الجعبري، وكانت سابقاً زوجة الأمير أبي زيد، وكان ولدي راعياً لإبله وسكن بلاد الغرب ولا عاد له بعليا مأرب ولو يصل إليه خبر زفاف عليا لكان يحضر ويقتل نوفل، فقال لها: هل عندك للسر موضع؟ قالت: بئر عميق ما له قرار، فقال لها: أنا أبو زيد. فقالت له: أهلاً وسهلاً بعزنا وحامينا ولكن كم تنسر عليا لو بلغها خبر قدومك بالسلامة! فقال لها أبو زيد: وكيف نقدر أن نصل إليها وهي بين تلك الجموع الغفيرة؟ فأجابته عند المساء نلبس عزيز ملبوس ابنتي مايسة، ونأخذه لعند عليا، وعندما يفرغ المنزل من الجميع، يلبس عزيز ملبوس عليا ونجعله عروساً مكانها، ونحضر أنا وعليا لهنا، ولا يعلم بنا أحد، فاستصوب أبو زيد هذا الرأي، وعندما أظلم الظلام لبست عزيز أحسن ملابس ابنتها وزينته وعطرته وأخذته برفقتها إلى أن دخلت به لبيت عليا، فترحبت بهما وبالغت في إكرامهما، وعند انصراف الجميع تقدمت العجوز إلى عليا وبشرتها بقدوم أبي زيد وقالت لها: وهذا عزيز القوم، فلما نظرت إليه وتحققت الخبر سلمت عليه وقبلته، فقالت لها: الآن ليس وقت سلام بل المراد منك أن تنزعي ثيابك وتلبسيهم لعزيز القوم؛ لأنه نظيرك بالحسن والجمال، وهو يليق أن يقوم مقامك ثم نذهب أنا وأنت لعند الأمير أبي زيد لأنه بانتظارنا، ففعلت وسارتا فلما رآهما أبو زيد مقبلتين فرح بعليا فرحاً لا يوصف، وتقدم منها وتعانقا عناقاً طويلاً وتشاكيا من ألم الفراق.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من عزيز فإنه كان ينتظر قدوم

العريس، وبينما هو كذلك، إذ دخل عليه الأمير نوفل وجلس بجانبه ومد يده إليه، فنفر منه وقال له: ليست هذه أفعال العرب يا قليل الأدب! فقال: ما السبب حتى تبادريني بهذا الكلام يا بنت الكرام؟ فقال له: اعلم أن العروس لها على العريس نقوط، وأنا لما أخذني أبو زيد أعطاني ألف دينار وأنت أمير وابن أمير ويا حيف أبخل من طنجير، فلما سمع منه ذلك الكلام أراد أن يضربه بالحسام، فقال: ورفعه على زنده وضرب به الأرض كاد يدخل طوله بالعرض، وأوثقه بالحبال وربطه بالعمود إلى أن أصبح الصباح، أطلق سبيله ودام على هذا الحال مدة أربعة أيام، يأتي بالظلام طمعاً بالوصال، فيربطه إلى الصباح ولم يطلع أحداً على أمره، فبينما هو خارج من الدار فالتقى بعمه الهدار، وكان رجلاً كبيراً وعليه سيمة الوقار، فحياه بالسلام فرد عليه وقال له: مبارك يا عريس إن شاء الله تكون نلت مبتغاك، فتنهد نوفل من فؤاد حزين، فصاح به عمه ماذا دهاك؟ فقال له: اعلم يا عم أن كل يوم أذهب إلى العروس طمعاً ببلوغ المرام فتوثقني بالحبال والقيود وتربطني على العمود إلى الصباح وها قد أطلعتك على سري وكشفت لك أمري، فأجابه الشيخ هل من يقدر عليك بالقوة؟ فقال: لا يوجد أحد يقدر علي إلا عزيز القوم، وهو الآن في المغارب، فهل ممكن أن يأتي إلى هنا وهم يقاسون الأهوال والمتاعب! فأجابه الشيخ أيها الأمير إن أردت أن تزيل عنك هذا الهم اصنع لك شيشين أحدهما من دم والآخر من السم، فلما تطلب منها الوصال اضربها بشيش الدم، فإن كانت أنثى تذل وتسكت وإن كانت ذكراً يهوش ويتقدم، فإذا رأيتها بادرت إليك، اضربها بشيش السم وقيدها بالسلاسل والقيود، فشكره على ذلك وذهب للبيت وأخذ معه الشيشين، فلما رآه عزيز قال له: هل أحضرت الفلوس؟ قال له: ما عندنا يا ابنة الأنذال فلوس، فتقدم إليه ليكتفه، ضربه بشيش الدم فهاج، فلما نظره بهذا الحال أثنى عليه بشيش السم، فتقدم إليه وربطه من حلاوة الروح، ثم غير عزيز ملبوسه وتركه بحاله وذهب لعند أبي زيد وأنشد يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى عزيز عما جرى له | ودموع عيني زايدات سكايب |
| ونيران قلبي كلما أقول تنطفي | يزيد لها جوا ضلوعي لهايب |
| جرح القديم يا خال ما ضامني | جرح الجديد يشد عليه العصائب |
| وقد أخبرتك يا هلالي سلامة | هيا بنا نرجع لأرض المغارب |

فلما فرغ عزيز القوم من كلامه، وقع مغشياً عليه، فحزن أبو زيد وتكدر ورشوا الماء عليه حتى أفاق من غشيته، وصارت عليا تمزق القمصان والحرير وتربط الجروحات، فالتفت أبو زيد إلى عليا وقال لها: إذا مات عزيز، لا أقدر أن آخذك

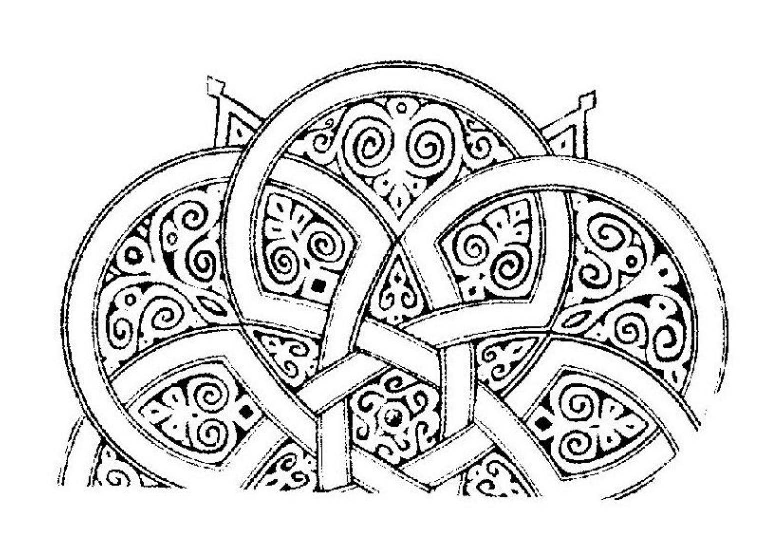
معي لأن الطريق خطرة والمسافة بعيدة، فقالت: لا بد لي من الذهاب معك وإن مت أمت ولا أدع أعداءك يشمتون بك، فافتكر أبو زيد مدة من الزمن، ثم عول على أخذ عليا معه لكي ينطفي خبرهم ولا أحد من القوم يقتفي أثرهم، ثم بدأت عليا تدهن الجروحات بالمرهم، فعند ذلك راقت أحواله وسكن ألمه وقال له: قم بنا يا خال نسر قبل الصباح، والحمد لله راقت أحوالي وقاموا وركبوا مطاياهم وودعوا العجوز وأعطتها عليا عقداً من الجوهر، وجدوا في قطع الروابي والقفار مقدار تسعين يوماً حتى قطعوا حدود نجد، إلى أن وصلوا لحدود غزة، وتلك الأراضي خالية من السكان، وفرغ الماء منهم واشتد عليهم الظمأ، فحاروا في أمرهم في تلك البيداء، فقال عزيز: يا خال يوجد بئر في هذه الأطلال وهو قريب من هنا، فذهب أبو زيد إليه ومعه القربة، ولما نزل إلى البئر وجد شيئاً يختبط بذلك المكان له صريخ كصريخ الجان فارتد راجعاً إليهما وعرفهما أن البئر جاف، فتعجبا من ذلك غاية العجب وقال له: يا خالي إنه لا يخلو من الماء لا صيف ولا شتاء، ثم أخذ الرمح بيده والقربة وتوجه إلى البئر فوجد شيئاً يتخبط فنكشه بالرمح، فإذا هو جدي ماعز وقع في الماء، فنزل وأطلعه وملأ القربة وذهب لعند خاله وقال: ها هو ذا الماء، فشربوا وذبحوا الجدي وأكلوا، وبينما كان أبو زيد يغير جروحات عزيز القوم، أحس عزيز قلبه احترق بالنار وحقق أن السم وصل لقلبه، ولا فائدة من طبه، فقال لهما عن ذلك، فندم أبو زيد وتحسر وقال لعزيز القوم: سلامتك يا خال، فقال: ما بها سلامة؟ ثم سالت عيناه بالدموع وصار يكتب إلى أمه شيحة ويوصي خاله بهذا القصيد:

| | |
|---|---|
| يقول عزيز القوم والنار بالحشا | دموع عيني زايدات سكايب |
| اسمع كلامي يا أمير سلامة | يا فارس الفرسان مذري الكتايب |
| فإن أتيت لأرض المغارب وشفتها | سلم على الإخوان ثم الحبايب |
| وسلم على الوريدي أبو علي | وقبل أياديه وحب الركايب |
| وسلم على أولاد خالي جميعهم | وسلم على القاضي سلام الحبايب |
| وسلم على زيان الأمير وأمه | وسلم على الزغبي دياب المحارب |
| وسلم على أمي الحزينة وقل لها | تبكي علي بالدموع السكايب |
| وإن سألوك يا خال عني قل لهم | غدا رهين الموت تحت الترايب |
| هذا ترى يا خال آخر كلامنا | الله يساعدني بوقت الحسايب |

ثم إن عزيز شهق شهقة واحدة وألقى نظرة الوداع عليهما وأسلم الروح، فأقاما عليه البكاء والنواح، ثم دفناه ورحلا طالبين الديار يقطعان البراري والقفار حتى أشرفا على بلاد الغرب، فذهب الرعيان وأخبروا حسن وبقية السادات بمجيء أبي

زيد، فركبوا جميعهم ورجال الحي، فلما وقعت العين على العين، ترجل حسن وباقي السادات وسلموا على أبي زيد وعليا وفرح شيبان وأخواته بملاقاة عليا أمهم، أما حسن سأل أبا زيد على يونس وعزيز، فعندها نزلت الدموع من عيني أبي زيد، وأخذ يقص عليهم ما كان من أمرهم وهم يسمعون، فوقع بينهم الصياح والبكاء، وعاد أبو زيد لمنزله وتبعه الرجال والنساء وصاروا يعزونه في يونس وعزيز ويهنئونه بعودته بالسلامة، ودامت الناس تتقاطر على أبي زيد مدة من الزمان.





# الجزء الرابع والعشرون: من تغريبة بني هلال

هذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من أمر دياب فإنه بعث كتاباً إلى الأمراء ليشفعوا له عند حسن وقد مضى عليه في السجن ثلاث سنين، يقاسي العذاب المهين، وفي السنة الرابعة كتب إلى حسن يقول:

| | |
|---|---|
| يقول أبو موسى دياب بن غانم | وفي مجلس بين الرجال شديد |
| أيا غادياً مني على متن ضامر | فسلم على حسن الفتى الصنديد |
| وقول له يا عز قيس وعامر | أيا من بسيفه ذل كل عنيد |
| جازيتني بالحبس يا أمير الملا | وهذا منك يا أمير ما يفيد |
| شنقت إخوتي وأولاد عمي | وخليت نساهم في بكا وتعديد |

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى حسن فلما قرأه صار يرد جوابه.

ولما فرغ حسن من الكتاب، أرسله إلى دياب، فعلم أن تعبه مع حسن بالمحال، وظل منتظراً الفرج من الله حتى مضت عليه السنة الخامسة، فاستدعى بقلم وقرطاس وصار يكتب إلى شبل الدريدي ويرجوه أن يشفع فيه عند حسن.

فلما فرغ دياب من تحرير الكتاب، أرسله مع الزحزاح إلى الأمير شبل، فقرأه وبالحال توجه لعند الأمير حسن وصار يتشفع بالأمير دياب.

فقال له: أنا ما نسيت قتل أخي مناع وحرق الحدائق وما فعل مع سعدى خطيبة ولدي مرعي، وحرق الزرع في تونس وروض البهرجان وقطع الطرق على العرب، وصار يخبر شبل بهذه القصيدة ويقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي | والهم ما بين الضلوع شديد |
| أيا شبلي جيت تشفع في ابن غانم | يا أمير ترك دياب عاد بعيد |
| وقتله أخي مناع أنا ما نسيتها | وقد كان فارساً وفتى صنديد |
| وحرق حدائق البهرجان وغيره | وخلى جميع هلال بالتنكيد |
| وأخذ سعدا من قصرها ليعزها | فجازاها بالضرب والتشديد |
| نهيناه بالمعروف عن جرم فعله | عصى وانفرد عنا وعاش وحيد |
| وبعدها نوى يملك الغرب كله | ويبقى على أمر هلال يسيد |

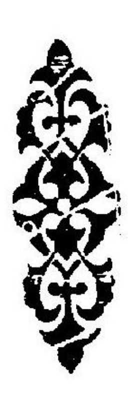
فلما فرغ حسن، رجع شبل وأخبر الزحزاح بما قال حسن، فرجع الزحزاح وأخبر دياب بالذي صار، فحينئذ قال دياب: لا حول ولا قوة إلا بالله، ودام بهذا الحال حتى مضت عليه السنة السادسة، فاستدعى بقلم وقرطاس وأشار يكتب إلى سعد الرياشي ويترجاه أن يتشفع به أمام حسن ليطلقه من السجن، وأرسل الكتاب بصحبة الزحزاح، فلما وصل إلى سعد الرياشي وقرأه وعرف ما حواه، سار إلى حسن وقبل يديه ثم قال له: يا ابن عمي أطلب مني ملكي، فلا أعزه عنك ولا تفتح لي سيرة أطلق دياب.

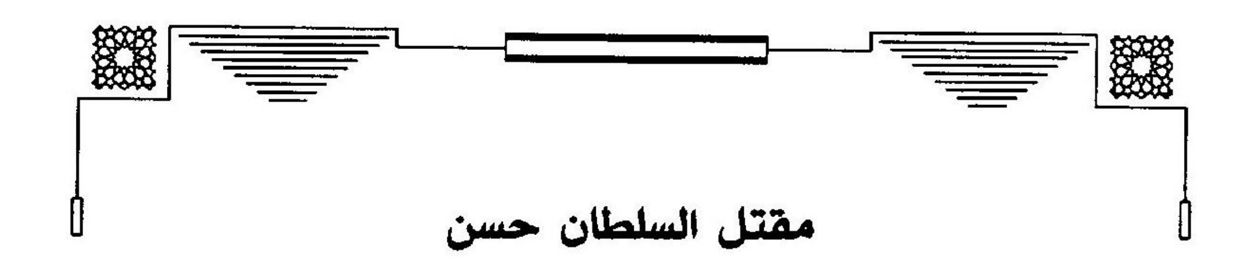
عندئذ ذهب سعد إلى الزحزاح وأخبره بما قال السلطان، فرجع الزحزاح إلى دياب وأخبره بما حصل، وأما بذلا فقد أخذت معها جملة من النساء وتوجهت نحو الصيوان، وصارت تتشفع في دياب وتذكر الأهل والأحباب الذين شنقهم حسن على الأخشاب، فقال لها حسن: أنا ما كنت مصدق على نفسي حتى حبست دياب، ولا أطلقه من السجن، فهذا حديث بطال، فارجعي إلى الأطلال وكوني من هذا القبيل براحة بال، فحينئذ توجهت مع النساء إلى محلها، وأما دياب فإنه ما زال يقاسي العذاب وهو منتظر الفرج حتى بلغه خبر قدوم أبي زيد من بلاد نجد، فقال: والله لا يقدر على خلاصي إلا أبا زيد. وكتب كتاباً إلى أبي زيد وأعطاه لزحزاح وقال له: سر إلى نجد واعط أبا زيد هذا الكتاب، فأخذه وسار وجد في قطع القفار، إلى أن دخل لصيوان أبي زيد وسلم عليه وناوله الكتاب، فقرأه فتكدر أبو زيد من حسن، والتفت إلى الزحزاح وقال له: بشر الأمير دياب وقل له سيذهب إلى حسن ويترجاه بدياب فإن أطلقه وإلا أخرجته غصباً عن رقبته، فذهب الزحزاح وسار إلى دياب فأخبره بكلام أبي زيد، ففرح دياب وأيقن بالفرج، هذا ما كان من حسن وبني هلال، ففي يوم من الأيام كان العربان والأمراء مجتمعين عند الأمير حسن في الديوان، فأخذوا يذكرون الوقائع المشهورة والفوارس المذكورة وصاروا يمدحون دياب وكيف ملكهم الغرب وحمى البوش من الدشمان وقتل الزناتي في ساحة الميدان، ويستحق أن يذكر مع الفرسان، وكان موجوداً في الديوان أولاد الأمراء والشبان الذين لم يسمعوا بذكر دياب إلا باللسان، فتشوقوا إلى مشاهدته ولو ساعة فترجوا السلطان أن يروه وساعدهم الأمراء، فقبل السلطان حسن رجاءهم وأمر أن يأتوا بدياب مكبلاً بالقيود، فأحضروه أمام السلطان وإذا هو أصفر اللون بهيئة الموتى، فصار أولاد الأمراء يضحكون عليه، فقال السلطان حسن: كيف ترى نفسك الآن بالذل والهوان؟ فقال: أنا بخير ما دمت راضياً عني، وبعد مداولة طويلة أراد أن يرجعوه إلى السجن، فقال دياب: ما أنا بمشمشة تهزني ولا قمح تكدني بغربالك، فإن كان الذئب يصغو

للغنم أنت تصغو لي وأنا أصغو لك، فصاح حسن خذوه إلى السجن، فعند ذلك أخذ دياب يرتجف مظهراً الخوف الشديد، فوقع على الأرض مغشياً عليه كمن قارب الموت، فعند ذلك ترجى الأمراء الأمير حسن وقالوا له: دياب في حالة النزاع، فأمر أن يدخلوه دار الحريم لعند أخته نوفلة، فحملوه إلى بيت أخته، فلما نظرته على هذا الحال وهو محمول على أيادي الرجال، بكت وأنشدت تقول:

حرام لقد جار العداة وقد بغوا ... علينا ونحن بالكروب نسير
لقد كنا في عز وكنا بنعمة ... وكنا برغد ما عليه عسير
فبتنا نقاسي الهم والويل والضنا ... وتجري الدموع على الخدود غزير
وقد كنت ياأمير الأمارة وسيدهم ... كسبع الفلا بالماضيات تشير
إذا هاج سوق الحرب كنت أميره ... تكر على الأعداء مثل الزير
وتحتك خضرا مثل فرخ نعامة ... تدق الثرى في رجلها وتطير
فما كان ظني يا دياب بن غانم ... أشوفك بهذا الحال والتأخير







# مقتل السلطان حسن

وما زالت نوفلة تردد الأشعار وتسكب العبرات، حتى فتتت الأكباد وأحنت الأجساد، فبكى معها كل من حضر لأن الأمير دياب فارس مشتهر وبطل غضنفر، وأخذوا يطيبون خاطرها بسلامة دياب ويطمنونها، فما خفت مصيبتها، ثم مدت إلى أخيها فرشة من ريش النعام وأخذت ترش عليه من ماء الخزام، وهو ينتفض ويرتعش، وبقي على هذه الحال ثلاثة أيام، لا يذوق طعاماً ولا يقابل مناماً، فحن عليه السلطان وفك قيده وأطلق سبيله، فصار يستغنم الفرص حتى لاحت له، فدخل على حسن وهو غارق في منامه، فسحب السكين وانطرح على حسن وذبحه وتركه يتخبط بدمه، وسار يجد السير تحت الظلام إلى أن وصل إلى قومه وعشيرته، ففرحوا به وانسروا لرؤيته وأخذوا يسألونه عن كيفية إطلاقه من سجن حسن، فأخذ يقص عليهم القصة ويخبرهم كيف سار من البداية إلى النهاية.

هذا ما كان من الأمير دياب وهو يقص ما جرى له على أولاد عمه، فلما سمعوا أنه قتل الأمير حسن، انقلبت أفراحهم إلى أكدار وأظلم في وجوههم النهار، وما منهم من أحد إلا أظهر الحزن والأسف، وقالوا: والله يا دياب لقد فعلت فعلاً منكراً وسددت في وجوهنا الأبواب بقتلك الأمير حسن، فكيف تجاسرت على هذا العمل وهو صهرك وأمير بني هلال؟ والآن قد أصبحنا عبرة عند العرب الكرام، فسوف يصير بنا كما صار مع جساس بن مرة والأمير كليب، ومن الآن أصبحت عداوة كبيرة بين عشائر بني هلال وسوف يصلون إلينا، فقال دياب: لقد صار ما صار والأوفق لنا أن نرحل قبل أن تدركنا جموع بني هلال، ويقع الحرب بيننا وبينهم، فهدموا الأطناب وأودعوها ظهور الجمال وأركبوا النساء والأطفال في الهوادج وساروا يجدون بقطع الروابي والبطاح. هذا ما كان من أمر الأمير دياب وأولاد عمه.

وأما ما كان من عطور الجيد، لما انتبهت من رقادها وشاهدت الأمير حسن قتيلاً، فصاحت بالبكاء ومزقت ثيابها وناحت وولولت، فتراكضت جموع بني هلال على بكاها، فوجدوا الأمير حسن قتيلاً، فعلت منهم الأصوات وسكبوا العبرات، فسمع أبو زيد الصراخ فوثب في الحال وأتى فنظر جموع بني هلال مزدحمة على

صيوان الأمير حسن وهو قتيل، فبكى ومزق ثيابه ورمى شاشه وتقدم إليه ورمى نفسه عليه، فقبل يديه ووجنتيه، ثم وقع مغشياً عليه، فتراكض الناس وأخذوا يرشونه بالماء حتى صحي، فالتفت إلى النافلة وقال لها: أين كنت لما قتل أخوك سلطان العرب والعجم؟ فزادت النحيب والعويل وأقبلت أخته الجازية وهي تصيح وتبكي وتمزق ثيابها وتندب أخاها، ثم وقعت عليه تقبل قدميه وهي تولول وتصيح، فكان يوم حزن، يا له من يوم أظلمت الشمس فيه! وكثر البكاء والنواح والجازية تزيد بكاها وتندب أخاها.

(قال الراوي): فلما فرغت الجازية من رثائها وجموع بني هلال ناظرين مما قد دهاها، هطلت دموع بني هلال كالأمطار، وتقدمت مريم ابنة زهرة البان وزوجة أبي العوف، ووقفت فوق رأس الأمير حسن وأشارت تقول:

دمعي جرى فوق خدي وانسكب — والنار في قلبي تزيد من اللهب
يا بين شمت العدا فينا وما — كان العهد سيف الغدر ينسب
شمس المعارف أظلمت أنوارها — والليل أصبح بالمخاوف والكرب
بدر العلى يا حيف من فوق الثرى — يبقى طريقاً والغراب فينا نعب
يا كوكب الإقبال يا أمير حسن — يا عزنا يا فخرنا يا منتسب
يا حيف هذا الوجه يعلاه الكدر — يا حيف هذا القد تفنيه الترب
الله يجازي دياب في حال العمى — الله يجازي دياب في هم وتعب
ارمي قلوبي هلال في نار اللظى — ادعي الدموع تسيل من حرب النوب
يا مشبع الجوعان يا معزي الحزين — يا منقذ المكروب يا مولى العرب
أراه ناري بالحشا ما تنطفي — يا نكبتي يا حسرتي ركني ذهب

فلما فرغت مريم من قصيدها والكل يسمعون تعديدها، هطلت من عيونهم الدموع وزادوا في البكاء والنحيب، وكانوا يرثونه بالقصائد المحزنة ويقصفون لفراقه الرماح ويكسرون السيوف، ثم اجتمع مشايخ زحلان ودريد، وتقدموا إلى الأمير أبي زيد وقالوا له: الأحسن رفع جثة الأمير حسن ودفنها؛ لأن كرامة الميت مأواه، وبذلك أمر رب الأرباب، فأجابهم أبو زيد إلى ما طلبوا، ثم تقدموا بكل احترام ورفعوا الجثة وغسلوها وبروايح المسك والطيب رشوها، وتحت التراب وضعوها وذبحوا على قبره من الجزور والأغنام، ما يكل عن وصفه اللسان، ثم أقاموا على القبر قبة عظيمة وزينوها بماء الذهب، وكتبوا عليها اسم الله الأعظم وتحته اسم الأمير حسن، ثم رجعوا وعملوا مناحة، وكانت تأتيهم العربان من كل مكان يعزونهم على فقد الأمير حسن، وبعد ما انقضت أيام المناحة وسكن روعهم، اجتمعوا في

صيوان الأمير أبي زيد وقالوا له: ماذا تأمن بأخذ ثأر الأمير حسن؟ فإننا والله لا نرتاح ولا نكف عن البكاء والنواح إلا أن نأخذ بالثأر ونكشف المذلة والعار ونقتل دياب ومن معه، حتى لا يبقى منهم من ينفخ ناراً ووفيتم الحريم والأولاد ونجعلهم عبرة كنسل الأوغاد، فأجابهم أبو زيد إلى ما طلبوا، وقال لهم: وحق الركن والحجر والبيت المطهر إنكم لو علمتم ما بقلبي لرثيتم لكربي، فإني أول من يتقدم لأخذ الثأر وكشف العار، وإني والله سوف أنزل في آل غانم الفنا ولا أبقي لهم بقاء، وسوف أطلب دياب على رؤوس الحبال وأبقيه بأوشم حال، وقد صار الأولى بنا أن نستعد للرحيل في أثر آل غانم ونوقع بهم المآثم، في هذه الليلة دوروا بين البيوت وأخبروا البنات والنسوان أن يكن على استعداد للرحيل، وتتبع أثرهم ولو طاروا، فعند ذلك طافت الرجال بين الأطناب وأخبروا القوم بهذا الأمر، وما مضت الثلاثة أيام إلا وكنت ترى النساء والأطفال على ظهور الجمال والرجال على الخيول معتقلين بالرماح والسيوف، وفي مقدمة الجيش الأمير أبو زيد حامي جيوش بني هلال وهو أمامهم كالأسد الرئبال وتحته أشهب وعليه سرج مرصع بالذهب وهو فوقه يموج ببحر السرج كأن قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل، بيده رمح ماضي السنان، وعلى جنبه سيف يمان، وقد أفرغ على صدره درعاً من البولاد محبوكاً بالزرد، هذا وقد انتشرت البيارق والرايات ودقت الطبول، فسمع لها رجات وأخذت الخيل تتسابق، فعند ذلك أخذ أبو زيد يقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... والنار في قلبي تزيد شعال
والخيل تعرف أني ما ركبتها ... إلا جعلت القوم بأوشم حال
لي سيف ماضي الحد قطاع الرقاب ... لو صاب صخر الصم فيه قلت مال
بالله اسمعوا بالله افهموا يا قومنا ... وكونوا سباعاً للقا يا هلال
اليوم أخذ الثأر من زغبي دياب ... ذاك الذي أرمى حسن بنكال
شدوا العزايم يا هلال تجردوا ... للحرب ما تكونوا به أنذال
وتذكروا السلطان حسن كيف انقضى ... وكيف قد غدا والدم منه سال
عاداتكم بالحرب ترمون العدا ... فوق الثرى وتقطعوا الأوصال
ومن من مجال الطعن يلوي وينهزم ... فذاك عندي من بني الأرذال
وأهدي سلامي للسلطان حسن ... وأكرر الأشواق للمفضال
وحياة عينك يا حسن لازم أكيد ... نأخذ لثأرك بالقنا ونصال
لازم اقطع رأس هذا الوغد اللئيم ... دياب بن غانم اللي بنا احتال
وأدعي الزغابة بالذل طول المدى ... وأدعي النسا بالضيق والأهوال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه، صاحوا عن فرد لسان: والله يا أبا زيد إننا نفديك بأرواحنا لأنك مضمد جراحنا، وما قمنا إلا لأخذ الثأر وكشف العار، فعند ذلك ساروا وما زالوا سائرين ليلاً ونهاراً حتى دخلوا تونس الغرب، فلاقتهم أهل تونس وقدموا لهم الخضوع والطاعة، وما كان في تونس إلا القليل من آل زغبي، فأتوا واضعين على أعناقهم المحارم وأظهروا للأمير أبي زيد الحزن والأسف على فقد حسن، وما منهم إلا وكان يلعن دياب، فسألهم أبو زيد عنه، فأخبروه أنه رحل إلى بلاد الحبش هو وبعض قومه، فلما سمع أبو زيد هذا الكلام، أمر الجيش أن يتابع السير خلف دياب، فجدوا في السير في أثر دياب، وما زالوا يسألون عنه إلى أن ضاق بهم الحال ولم يعلموا أين رحل، فكادوا يهلكون من الجوع والعطش في ذلك البر المقفر، فرجعوا على الأعقاب. ولما وصلوا إلى الأطلال نصبوا أبا زيد سلطاناً عليهم وعلى جميع بلاد الغرب، أما دياب فما زال يقطع الروابي والقفار إلى أن وصل إلى بلاد الحبش، فسمع به ملك تلك البلاد، فخرج لملاقاته بكل استعداد، وكان راكباً على جواد أشهب، عليه سرج مرصع بالجوهر ومعه الأحشام والأعوان والعبيد والغلمان والنساء بالدفوف والمزاهر وفي أيديهم القماقم المملوءة بالمسك وماء الزهر، فلما التقت الرجال بالرجال، نزل الملك عن جواده وترجل هو ومن معه وحيوا دياب وقومه، تحيات الأصحاب والأحباب، وأخذوا يرشون عليهم الطيوب التي تشفي الكروب وعند ذلك أرسل بهم إلى المضارب والخيام وذبح لهم الجزور والأغنام وأعطاهم أحسن مجلس ومقام، وقال لهم: أنتم السادات ونحن العبيد.

❒❒❒❒❒



# الجزء الخامس والعشرون: مقتل الأمير أبي زيد

هذا ما كان من جوهر صاحب التاج، وأما دياب فإنه شكره على ما أبداه، وقال له: اعلم أننا قد أتينا ضيوفاً لنقيم عندك مدة من الزمان، وبعد ذلك نرحل، فقال: أهلاً وسهلاً بكم، ثم أنزل دياب في أحد قصوره وفرض لهم مكاناً واسعاً وأعد لهم محلاً يرعون فيه المواشي، وبقي دياب مع الأمير جوهر في عز وإكرام وبسط وانشراح مدة من الزمان، أما أبو زيد فإنه كان في أحد الأيام جالساً في بيته تذكر أرض نجد وعزها وما لاقى فيها من الهنا والراحة أيام الصبا، ثم تذكر الأهوال التي لاقاها في الطريق، حتى وصلوا إلى بلاد الغرب، وتذكر زيدان والخفاجي عامر والقاضي بدير بن فايد وعقل ونصر وبدر بن غانم وأولاده وأولاد حسن الذين قتلهم العلام، فصار يبكي ثم تشوق إلى رؤية دياب وقال: هذا رفيق عمري وحامل الشدات معي، وإن كان قتل حسن فقد خلص عمره ومات بيومه، ثم خطر بباله أن يرسل يستعطف بخاطر دياب ويطلب منه أن يرجع إلى بلاده، فكتب له جواباً بهذا المعنى وختمه بختمه وأرسله مع النجاب، فأخذه وسار به يطوي الفيافي والقفار حتى وصل إلى بلاد الحبش، فسأل عن دياب فأهداه عليه وأعطاه الكتاب فأخذه منه وفضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه ورد عليه ثم طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى النجاب، فأخذه وسار به وجد بقع الروابي والقفار حتى وصل إلى بلاد الغرب، فدخل على الأمير أبي زيد، وأعطاه الكتاب فقرأه، وبعد ذلك استدعى بعشرة أمراء من أولاد عمه وأولاد عم الأمير حسن وأرسلهم ليصالحوا الأمير دياب، وما زالوا يطوون الفيافي والقفار إلى أن وصلوا لعند دياب ودخلوا عليه، فلاقاهم وسلموا على بعضهم البعض وسألهم عن أبي زيد، فقالوا: أرسلنا لنرجع الصلح بينكم وتعودوا كما كنتم في القديم، فعند ذلك سار دياب إلى الملك جوهر وودعه وركب بقومه ورجاله والعشرة الأمراء إلى أن دخلوا بلاد الغرب، فخرج أبو زيد واستقبلهم وتصالحوا ورجعوا إلى الأوطان، وعمل أبو زيد وليمة فاخرة وذبح الذبائح، فأطعم الغادي والرايح، وصار أبو زيد ودياب في محبة زايدة، ولكن أبو زيد ما أرجع لدياب ملكه وبقي هو الحاكم، فما هان على دياب وصار يقول: عسى أن يرجع لي ملكي والبلاد التي أخذوها مني وأبو زيد عاطي قفا، فاغتاظ دياب ونوى الشر لأبي زيد وقال في نفسه:

أنا صنعت دبوساً وسكيناً، فالسكين قتلت بها حسن والدبوس لأبي زيد، فخلصنا من واحد وبقي علينا الآخر، وصار من ذلك الوقت يحمل الدبوس وكان بسبع فراشات من تحت العباية حتى لا يلحظ عليه أبو زيد، إلى أن خرجوا ذات يوم للصيد والقنص وكان مع أبي زيد جماعة من قومه ومع دياب جماعة من قومه، فوصلوا إلى البر وتفرقت الفرسان تطارد الغزلان وبقي دياب وأبو زيد في جهة وصار دياب يطارد الشهبا ويلعب كأنه في الميدان، فصار يعمل مثله أبو زيد مقدار نصف ساعة، وبعد ذلك خلى دياب أبا زيد سائراً أمامه، فصاح به خذها من يد دياب، فالتفت أبو زيد مرعوباً فوجد في يد دياب سنبلة قمح، فضحك دياب وعمل الأمر ثلاث مرات ورابع مرة صاح دياب خذها من يد دياب، فما التفت أبو زيد وظن أنها ضحكة مثل العادة، عند ذلك لكد دياب الشهبا طلعت كالريح حتى قربت من أبي زيد، فسحب الدبوس وضربه على رأسه، فطلع بزر مخه على الدبوس، فوقع أبو زيد على الأرض غميان، فوقف دياب وقد أخذته الشفقة فصار ينظر إليه ويبكي ويلعن الحمق ففتح أبو زيد عينيه وجد دياب واقفاً، فقال له: ما كان ظني فيك يا دياب أن تغدر بي، ثم تنفس الصعداء وأشار يقول:

| | |
|---|---|
| قال أبو زيد الحزين الهايم | دمع عيني على خدي سجايم |
| أيا دياب الخيل يا ولد غانم | أيا صاحب الأفضال بين العوالم |
| ما كان ظني يا دياب الخيل تخونني | وتدعي صحبتك فوق الردايم |
| ياما شربنا الكاس والسعد داير | وحسادنا في قبلهم منا سمايم |
| مقال الحزين ابن رزق سلامة | لقد سلمت روحي لرب العوالم |

فلما فرغ أبو زيد من كلامه دمعت عينا دياب وضمه إلى صدره وأنشد يقول:

| | |
|---|---|
| يقول الفتى الزغبي دياب الماجد | ودمع العين على الخدود بحار |
| بغيتم علينا يا هلالي سلامة | فعايلك عندي لها أسفار |
| أتتكم سعدى مثل شمس منيرة | بنت الزناتي تشبه الأقمار |
| قالت لكي أبويا يهلك جموعكم | لأن أبويا فارس مغوار |
| أودعتك الله يا هلالي سلامة | غداً نلتقي في آخر الأعمار |

ثم ركب دياب جواده وترك أبا زيد وسار، فاجتمع بقومه فرأوه مرتبكاً وسألوه عن حاله، فقال لهم: قتلت أبا زيد وما بقي إلا أن نسرح ونملك بلاد الغرب، وأصير أنا السلطان عليها، فما بقي أحد يخاصمني، ثم إن دياب سار إلى تونس ودخل إلى سراية الأحكام ونادى باسمه وأخبر أنه قتل أبا زيد وأنه هو الحاكم على كل البلاد، فصار من يعانده يقتله ومن يطيعه ينعم عليه.

يرجع الكلام إلى جماعة أبي زيد، لما وصلوا إليه وجدوه مطروحاً على الأرض فصاحوا وناحوا وحملوه تارة يغشى عليه وتارة يصحى، حتى أوصلوه إلى الحريم، فصاحت النساء وخرجن بلا براقع ومزقن ثيابهن وأقمن البكاء والمناحات، واجتمع العربان من كل ناحية ومكان، وأما الجازية فإنها أرخت شعورها ونتفت خدودها.

فلما فرغت الجازية من ندبها أغمي عليها، ثم تقدمت بعدها عليا وهي تنتف شعرها وتمزق ثيابها، وقد زادت في بكاها وانتحابها وقبلته بين عينيه، وقالت له: سلامتك يا أبا الأبطال ويا زينة الرجال، وجعلت ترثيه بأبيات مؤثرة.

فلما فرغت عليا، بكت النسوان وصاروا في ضجة وأبو زيد غميان، ولما أفاق من غشوته تأسف على نفسه وكيف باق فيه دياب، وصار يودع أهله وعشيرته ومما قاله:

| | |
|---|---|
| سألتك يا رحمن يا سامع الدعا | تـنـجـي أولادي مـن الأوغـاد |
| سألتك يا رحمن يا خالق الورى | تـعـيـن أولادي بـيـوم جـلاد |
| لكي يأخذوا ثأري من ولد غانم | ويـشـفـوا قـلـوبـهـم مـع الأكـبـاد |
| واغفر لنا ما سلف من ذنوبنا | عـلـيـنـا ذنـوب مـا لـهـا أعـداد |
| وأوصيك يا آل عزي ودولتي | لا تـسـلـكـوا أبـداً طـريـق فـسـاد |
| وإن عادت الأيام إليكم بعدنا | ابـنـوا لـقـبـري قـبـة وعـمـاد |

فلما فرغ أبو زيد، شهق شهقة واحدة، ففاضت روحه فكثر البكاء والنواح وغسلوه ودفنوه بجوار الأمير حسن، أما دياب فبلغه أن الأمير أبا زيد مات، فجمع ستين ألفاً من قومه وسار إلى بلاد القيروان ليجري حكمه ويعمل كما عمل بتونس، ولما سمع بنو زحلان ودريد هذا الخبر، تشاوروا مع بعضهم، فاتفقوا أن يطيعوا دياب لأن ما لهم على حربه طاقة، ولما قرب منهم أتت الجازية وصارت تنخيهم، فما ردوا فبكت وقالت: ما فيكم أحد يخاصم دياب وهو كبير وخرفان.

فلما انتهت أم محمد، ما أحد رد عليها إلا أن بني دريد وزحلان وعامر وضعوا المناديل في رقابهم وخرجوا ينادون يا دياب أنت ملكنا ولا أحد منا يعصي لك أمراً، فدخل الأمير دياب وجلس على كرسي الأمير حسن، فهنأه الأمراء ودعوا له بالنصر، وأما الجازية والنافلة والحريم والأولاد فإنهم تخلفوا، وفي الليل ركبوا وساروا مع كثير من قومهم وتسلطن دياب على بلاد الغرب، وصارت تأتيه الهدايا والتحف ورتب الأحكام وعزل ثم سأل عن أولاد حسن وأبي زيد، فأخبروه أن الجازية هربت فيهم مع بقية النسوان وتبعهم ثلاثون ألف نفس من بني دريد وزحلان، فتكدر وقال: كان بفكري أن أرتب لهم معاشاً وأقوم بوصية الأمير أبي زيد، ثم ركب وتبعهم فما لحقهم، فرجع متكدراً.

يرجع الكلام إلى بلاد الكوع، كان يحكمها سلطان اسمه شمعون، وكان له وزير اسمه أبو الجود، فلما قتل الزناتي وملكوا بلاد الغرب، قال لوزيره: إن بني هلال وصلوا إلى بلادنا وهم فرسان لا يوجد مثلهم في هذا الزمان سيما فيهم فارس اسمه أبو زيد من الأبطال العظام وفارس اسمه دياب بن غانم، وأخاف أن يصل شرهم إلينا، فقال الوزير: خذ لهم هدايا من الجواهر وسر إلى الأمير حسن وقدم له الهدايا، ويصير بينك وبينه مودة وصحبة، فاستحسن شمعون هذا الرأي، فحمل الهدايا على الجمال وسار بألف فارس من أعيان قومه، ودخل على الأمير حسن وقدم له الهدايا وسلم عليه، فترحب به وعملت الولائم ووقعت المحبة والمودة، ثم عاد إلى بلاده وبقي في أمان إلى أن قتل الأمير حسن وأبو زيد، فعظم عليه الأمر وقال لوزيره: مرادي أن أجمع العساكر وأذهب إلى بني هلال، فلا بد أن يكونوا وقعوا في بعض، فمن الموافق أن نكون حاضرين ونساعد القوي ويملك البلاد، ونكون قد قتلنا دياب لأنه صار شيخاً كبيراً، ثم جمع العساكر وسار قاصداً بني هلال حتى دخل حدود الغرب، فنظر الغبار قد علا وسد منافس الأقطار، ثم انكشف عن ثلاثين ألف فارس ومعهم حريم ونسوان، فسأل عنهم فأخبروه بأن هؤلاء حريم حسن وأبو زيد وأولادهم اليتامى هاربين من دياب خوفاً على أنفسهم، فاستدعاهم فحضرت الجازية فسألها عن الخبر، فأشارت تقول:

تقول فتاة الحي أم محمد ... بدمع جرى فوق الخدود غزار
ألا يا ملك شمعون اسمع قصتي ... واصغي لقولي يا حماة الدار
أنا بنت سرحان أخت أبو علي ... وهؤلاء يا ملك عبيدنا وجوار
كنا بنجد في سرور وفي هنا ... نمرح فيها ليلاً مع نهار
رحلنا لأرض القيروان وقابس ... أتانا الزناتي مثل شعلة نار
قتل منا تسعين قتيلاً مجرباً ... برأس رمحه المرهف البتار
قتله أبو وطفا دياب بن غانم ... بعزم شديد يفتت الأحجار
ملكنا بقتله سائر الغرب يا ملك ... ملكنا مداينها مع الأنهار
أراد دياب يملك القصر وحده ... ويقعد به سلطان أيا مغوار
حبسه أخي سبع سنين كوامل ... سبع سنين في بلاء وأكدار
وأطلقه أبو زيد الهلالي غصيبة ... وهذه حيلة منهم عليه دار
وجانا دياب مع أكابر قومه ... وقلبه أسود خائناً غدار
دياب ذبح حسن فوق عال فراشه ... وخلاه يختبط ميمنة ويسار
وراح هرب هو وكل جموعه ... دخل بلاد الزنج والأقفار

جابه أبو زيد طيب بخاطره — وأرسله مكتوب بالإحضار
وبعده أتوا للصيد في عز وهنا — ولعبوا بالجريد كم مشوار
فشال دياب من تحت باطه لسلامة — دبوس حديد فيه ألف مسمار
ضرب به سلامه أرماه على الثرى — ضربات دياب ما عليها عيار
فجينا إلى عندك طالبين مكارمك — يا برمكي يا مكرم الزوار
وعاد دياب مالك الغرب كلها — وصار ملك والعز له صار
هذا ما جرى فينا وهذا ما أصابنا — والدهر دولاب علينا دار

فلما فرغت الجازية من كلامها أشار الملك شمعون يرد عليها ويقول:

يقول الملك شمعون والقول صادق — نيران قلبي زايدات سعار
ألا فابشري بالخير يا أم محمد — لقد زال عنكم سائر الأكدار
وقلبي على حسن الهلالي موجعاً — وأبو زيد خلا الدموع غزار
ولكن لهم أولاد يخلفونهم — ويسقوا دياب علقماً ومرار
أنا كنت سائر نحوكم لأعينكم — وأنظر ماذا بينكم قد صار
ولكن أتيتم سالمين بأهلكم — فابقوا واصبروا والفلك دوار
وارعوا أراضينا واجنوا ثمارها — فأنتم والله أكرم الخطار
لكم عندنا الإكرام والخير والهنا — والعز والناموس والأوقار

فلما فرغ شمعون من كلامه والجازية تسمع نظامه، قالت له: ارجع فما الآن وقت ذهاب؛ لأن دياب له سطوة في بني هلال وألقى الرعب في قلوب الجميع، وما أنت من رجاله، فالأوفق نصبر إلى أن يأتي الفرج وهو قريب لأن دياب كبير السن وما له سوى ولد صغير يرضع، اسمه نصر الدين، أما الجازية فتركت اليتامى عند الملك شمعون، فعين لهم أرضاً وصاروا يرعون المراعي، وما عاد للجازية هم إلا تربية اليتامى وتعليمهم الحرب والقتال، ولما وصل خبرهم إلى الأمير دياب، فأراد يجمع العساكر ويذهب إليهم، فقال له بنو زغبة: الأوفق أن لا نذهب إليهم لأن بلاد شمعون حارة، إذا طال بنا الحرب نهلك ونعطش، وربما بني دريد وزحلان اتفقوا مع الأولاد، فيطول علينا الحال، فقال: أنا خايف أن ينتظروا حتى أموت، ويأتوا ويملكوا البلاد ويدلوا ابني ويدلوكم، فقالوا له: الأوفق أن تكتب كتاباً إلى الملك شمعون توعده بالمال حتى يقتلهم، فاستصوب هذا الأمر وتوسل إلى شمعون يقول:

يقول الفتى الزغبي دياب الماجد — ونيران قلبي زايدات سعير
يا أيها الغادي على متن ضامر — تسبق هبوب الريح عند مسير
إذا جيت للكوع فانزل بربعها — واعقل جوادك بالزمام وغير

واعط للسلطان شمعون رسالتي | وسلم عليه يا رشيد كثير
أريد يا شمعون تقتل لليتامى | وتدعيهم على وجه التراب عفير
ولا تغرك الجازية وحسن وجهها | أصل الفتن تأتي من الوجه المنير
وخذ أموال دريد وجمالهم | وأبقى أنا لك بالحروب نصير

فلما فرغ دياب من الكتاب، سلمه إلى راشد بن نبهان ليوصله إلى الملك شمعون، فسار حتى دخل بلاد الكوع، فصادفه الوزير أبو الجود، فأخذ الكتاب وقرأه فأدخل الرسول للضيافة وأخذ الخطاب واستدعى الأولاد وقال لهم: اقرؤوا هذا الكتاب. فلما قرؤوه خافوا وقالوا: نحن واقعين عليك يا وزير، فقال: لا تخافوا لأن الملك إذا نظر الكتاب يقتلكم؛ لأنه طماع ويخاف من دياب، وما لكم إلا أن ترسلوا له الجازية تدلع عليه، فهو وقع في هواها، فقالوا: لا يليق بنا أن نكلم الجازية هذا الكلام، فقال لهم: أنا أحضرها. وفي الحال بعث وراءها فجاءت وقرأت المكتوب فتكدرت وقالت: ما الرأي عندك؟ فقال: الرأي أن تذهبي إلى الملك شمعون وتدخلي عليه، فإنه لا يضركم فقالت له: أنا امرأة مسلمة وزوجي شريف النسب، فلما سمع أبو الجود كلامها قال في باله: هذه امرأة تكرم دينها، فالأوفق أن أساعدها، ثم قال لها: أنتم معكم ثلاثون ألف فارس، وأنا عندي اثنا عشر ألف فارس، فالجملة اثنان وأربعون ألفاً، فأرسلي أولاد أخيك إلى السلطان شمعون، يقولون له: مرادنا نزوجك عمتنا، فيفرح بذلك لأنه واقع بهواك، فمتى دخلت عليه يدخل معك شيبان ويذبحه، ثم نقتل اليهود ونملك البلاد ونقيم حاكماً من أولاد إخوتك، وأنا أتزوج بك وتصير البلاد في يدنا، فاتفقوا على ذلك وذهبوا إلى الملك شمعون وعرضوا طلبهم، ففرح وقال لهم: مهما شئتم فاطلبوا، فقالوا له: لا نريدك إلا سالماً، ثم أحضروا الحاخام فكتب كتاب الجازية على الملك شمعون، وبعد تمام الفرح دخلت على شمعون فوجدته منتظرها في قاعة النوم وعليه الملابس الخفيفة ودخل معها شيبان بن أبي زيد وبيده الخنجر، فضربه به وقطع رأسه ووقف في طاقة القصر وقال: قضي الأمر، وكان الوزير والأمراء منتظرين تحت القصر، فغاروا على اليهود وأبلوهم بالذل، وقتلوا أعيانهم وملكوا القلاع وأهلكوا رؤساء العساكر وما أصبح الصباح حتى انتهوا من الأعمال ودخلوا سراية الحكومة وأجلسوا الأمير بريقع ابن السلطان حسن ملكاً على بلاد الكوع، وفرق العساكر في جميع الجهات وراق له الحال، فلما شاهد الرسول ما صار، خاف على نفسه فهرب إلى دياب، فأخبره الخبر، فقال له أحد الأمراء: أنت قتلت الحية وتركت رأسها، هؤلاء الأولاد لا بد ما يأتوا ويأخذوا منك بثأرهم، فضحك دياب وأخذ يكتب لليتامى

كتاباً، فلما وصل إليهم قرؤوه، فقالت الجازية: إن دياب قلبه دليله والذي له عدو لا ينام، ثم كتبت إلى دياب تقول:

برق يلمع من خلال اليماني — هيج بالقلب وجدي بعد ما دهاني
والريح هبت في ضميري وخاطري — الله يقهر كل ظالم خوان
دياب يا أمير ترسل تهددنا — كنا لكم يا أمير بالوغى إخوان
نحنا تركنا لك بلاداً تخصنا — ولا عدت تنظرنا بطول زمان
الله يسامحكم بها ويطول عمركم — وتدوموا بخير يا أبا الإحسان
والله عوض أبا دياب بغيركم — فصرنا ملوكاً وعاد الدهر كما كان

فلما فرغت الجازية من كلامها، طوت الكتاب وأعطته للرسول، أخذه وسار إلى دياب، فناوله الكتاب ففضه وقرأه، فقال: لا بد ما أرتب وأدهمهم في بلادهم، وفي ذات الأيام أتوا شعراء فمدحوا السلطان دياب ووصفوا له بنت الأمير ماجد بن الهدهاد، فسأل دياب عنها فأخبروه أنها لم يوجد مثلها في الدنيا، وكان خاطبها السلطان حسن لابنه بريقع، فعند ذلك قال دياب: والله نحن أحق بها من الغير، ثم كتب مكتوباً إلى الأمير ماجد يطلب بنته، وبعث المكتوب مع الأمير عرندس، فأخذه وسار حتى دخل على الأمير ماجد، أعطاه الكتاب فقرأه وترحب في عرندس واستشار قومه، فقالوا له: ابعث وقل له بنتي مخطوبة إلى الأمير بريقع، ولا يليق بي أن أفسخ الخطبة والأمير بريقع ابن عمك، فكتب إلى دياب وأرسل المكتوب مع عرندس، ثم قال: هلموا بنا إلى نجع الأمير بريقع لئلا يأتي فيقتلنا ويقتل أولادنا. فهدموا البيوت وحملوا حريمهم وساروا يقطعون الفيافي والقفار، قاصدين بلاد الكوع، أما عرندس دخل على دياب وأعطاه الكتاب ففضه وقرأه، فغضب غضباً شديداً وركب بالفرسان والأبطال، قاصداً ماجداً حتى وصل إلى بلاده، وجد الأرض قفرة والمزار بعيداً، فرجع وأرسل الجواسيس تفتش عليه، وكان عند دياب بنت أخته وهي بنت الأمير حسن واسمها أمينة، وكانت لما هربت الجازية وإخوتها، بقيت هي، فأخذها دياب ووضعها عنده، وكانت بنت دياب تشتم لها إخوتها وأولاد أبي زيد وتقول: لا بد أبي ما يقتلهم! وقد سمعت أن أبي أمر يجيب إخوتك ويخدمهم عنده وأن ما قبلوا يسير إليهم، فقالت: إن إخوتي صاروا ملوكاً، ولا بد ما يأتون ويأخذون بالثأر من أبيك، فغضبت منها وضربتها فتركتها وراحت إلى قبر أبيها، وصارت تبكي، وإذا برجلين مقبلين واحد أبيض والثاني عبد؟ فوصلا إلى قبر الأمير حسن وأبي زيد، وصارا يبكيان، فقالت لهما: من أنتما وعلى من تبكيان؟ فقال لها أحدهما: نبكي على موالينا وأسيادنا أنا بدر بن قاشع وهذا عبد أخيك وكنا عائشين بنعمتكم حتى غدر بنا

الزمان، رحنا مع إخوتك وصرنا نسافر مثل المكارية من بلد إلى بلد، والآن ذاهبون إلى بلاد الكوع، فإن كان لك غرض أو وصية، فإنا نوصلها لك، فأشارت تكتب إلى إخوتها وتقول:

| | |
|---|---|
| تقول أمينة بنت من ساد ذكرها | بدمع جرى من مقلة العين عايم |
| تعاندني الأيام والدهر هانني | وصرت حزينة والعقل صار هايم |
| أداري أنا روحي وأكتم بخاطري | ولا أعرف الراحات والرب عالم |
| يا أيها الغادي على متن ضامر | تشق فلاة الأرض مثل النسايم |
| فاهدي سلامي ثم أعطي رسالتي | رسالة مخزونة تذوق العدايم |
| إلى إخوتي عز الملوك إذا علوا | وسلم على أولاد عمي اللزايم |
| يجوني على خيل كما الريح جريها | عليها شباب كالليوث الضياغم |
| بكل مهندي والرديني بكفه | لسان الحنش مسقى بسم الأراقم |
| عسى يأخذون الثأر من ولد غانم | ويدعوه فوق الأرض مرمي وعادم |
| تبقى بلاد الغرب طوعاً بيدكم | وتحكموها مثل أبوكم حاكم |

فلما فرغت أمينة من كلامها، طوت الكتاب وأعطته إلى بدر، فأخذه وسار هو والعبد حتى وصل إلى بلاد الكوع ودخل على الأمير بريقع، أعطاه الكتاب وخصلة الشعر، فلما نظروا الشعر وقرؤوا المكتوب، هاجوا وماجوا ووقع فيهم البكاء والنحيب وجددوا حزن أبي زيد والأمير حسن، فعند ذلك نهض الأمير شيبان وقال لهم: ما لنا ولهذا البكاء! قوموا حتى نركب ونسير إلى حرب دياب، فإما أن نموت أو نأخذ ثأرنا ونخلص حريمنا ورجالنا من ذل دياب، فقال بريقع: هذا هو الصواب، ثم إنهم ركبوا بستين ألف فارس وساروا واليتامى أمامهم، وعندما أمسى المساء نزلوا ليرتاحوا فسمعوا صوت عرب نازلين بالقرب منهم، وشاهدوا نيرانهم، فقال بريقع: أظن هذا دياب أتى ليقتلنا، فما لنا إلا نرسل من يكشف لنا الخبر، فقالت الجازية: أنا أسير وأكشف لكم الخبر، ثم قلعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال وتقلدت بالسلاح وأخذت معها شيبان وبريقع وأوصت ألا أحد يشعل النار أو يبدي حركة قبل أن يحضروا، ثم ساروا تحت الظلام حتى قربوا من الربع، فسمعوا بكاء الأطفال ونبيح الكلاب، فعلموا أنهم عرب راحلون بعيالهم ويمكن هاربين من دياب، ثم دخلوا بين العرب وسألوهم عن أميرهم فدخلوا عليه، فقام لهم واقفاً على الأقدام وترحب بهم وأجلسهم وقدم لهم الطعام، فأكلوا ثم قدم لهم القهوة فشربوا، وبعد ذلك قالت له الجازية: كثر الله خيرك يا ابن عمي ماجد، فقال: أراك عرفتني أيها الشاب الظريف وأنا ما عرفتك فمن تكون، فقالت الجازية: صدق المثل (من غاب

عن العين سلاه الخاطر)، أنا الجازية أخت السلطان حسن، وهذا بريقع وهذا شيبان، أتينا نأخذ بثأرنا من دياب، فوصلنا إلى هذا البر في هذه الساعة، فسمعناكم وقصدنا نكشف خبركم، فلما سمع ماجد كلامها، قال: أهلاً وسهلاً بصهري، وصار يقبلهم وهو لا يصدق من عظم فرحه، ثم حكى لهم قصته مع دياب وكيف بعث طلب بنته مع عرندس، فقال له: إن ابنتي مخطوبة إلى بريقع، ثم شاع الخبر، فصارت تحضر أمراء الأمير ماجد وتسلم عليهم، وبقوا مدة وبعد ذلك قال ماجد: الحمد لله الذي صادفنا بعضنا في هذا المكان، فما عاد لنا إلا المسير لأخذ الثأر، وقد بلغني أن دياب صار خرفاناً وما عاد عزمه كالأول، وهو يظلم في الرعية من خفة عقله، وصار الكل يكرهونه، فقالت الجازية: لنكتب مكتوباً إلى بني دريد ونحركهم فيساعدوننا لأخذ الثأر، فقالوا: هذا هو الصواب، ثم ودعوا الأمير ماجد وساروا وأخبروا الباقين، ففرح الجميع، وفي الصباح ركب الأمير ماجد وأتى وسلم عليهم، فترحبوا به وقدموا له مزيد الإكرام،، ثم أخذت الجازية تكتب إلى الأمير طوي بن مالك وتنخي قومه لحرب دياب وتقول:

تقول فتاة الحي أم محمد ... وقلبي قبل اليوم كان مألوم
وقد كنت محزونة الهم والأسا ... على فقد ابن سرحان والقيدوم
أبو زيد أنا والنبي ما نسيته ... وكان أمير إلى الأسرار كتوم
أميرين والله ليس يوجد مثلهم ... وكان لهم سعد قوي مخدوم
قتلهم أبو وطفا دياب عداوة ... يجازيه ربي الواحد القيوم
لكن ربيت له لأخذ الثأر عزوة ... أمارة كراماً كلهم وقروم
يكيدوا العدا بيوم كرب وملمة ... وما فيهم إلا كل ليث هجوم
يا أيها الغادي على متن ضامر ... تسبق هبوب الريح وكل نسوم
إذا جيت لأرض القيروان وقابس ... تلاقي بها الزغبي أمير حكوم
فسلم على طوي خليفة عمنا ... أميراً كريم خليفة المرحوم
وسلم على أهل الدريدي جميعهم ... أمارا ليوثاً ما بهم ميشوم
وقال إن الجازية أم محمد ... تنبيكم الأخبار ثم علوم
إن كان أنتم تحضروا وتوافقوا ... تحضروا حالاً لنقضي المعلوم

فلما فرغت الجازية من كلامها، أرسلت الكتاب إلى ابن مالك، فأخذه النجاب وسلمه الكتاب، فقرأه على أمراء بني دريد، ففرحوا جميعاً ثم أجاب يقول:

يقول طوي والدموع غزاري ... والنار في قلبي تزيد سعاري
الله أكبر زال عنا همنا ... وقلوبنا فرحت بذي الأخبار

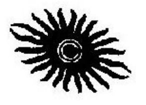
| | |
|---|---|
| من خمسة عشر عام في أسر العدا | وفي القلب منهم دوم شعلة نار |
| لما سمعت أخباركم يا جازية | أضاء علينا الحي ثم الديار |
| ففرحوا بكم أهل الدريد جميعهم | ونسوانهم فرحت بأخذ الثار |
| اقرؤوا سلامي للأمير بريقع | أيضاً شيبان الفتى المغوار |
| يا جازية هاتي القروم وأسرعي | لعند أبو وطفا لأخذ الثار |
| دياب غاد خرفان وحيله انقطع | ما عاد له عزم على البتار |

فلما فرغ، طوي بن مالك من الكتاب، سلمه للنجاب فأخذه وسار حتى وصل لعند الجازية، أعطاها الكتاب فقرأته بحضور الأمراء ثم قالت: إن دياب لا بد ما يغدر بقومنا لأن هذا الخبر لا يختفي ثم كتبت مكتوباً إلى طوي بن مالك تقول له: خذوا حذركم ونهار غد العيد، إذا حضرتم لعند دياب فالبسوا دروعكم، وأسلحتكم تحت ثيابكم، ونحن نصل لعندكم يوم العيد، وانقسموا فرقتين، النصف يجلسوا على المائدة والنصف يكونون راكبين خيولهم، فسار الرسول إلى طوي بن مالك، فقرأ الرسالة وقال: نعم إن بني زغبي أخذوا الخبر عن اجتماعاتنا وأوصلوه إلى دياب، فلما عرف ذلك قال لربعه: الرأي عندي أن نعمل وليمة على العيد، وعندما تجتمعوا ادهموهم بسيوفكم واقتلوهم ولا تتركوا من أكابرهم أحداً، وفي يوم العيد عمل دياب الوليمة ومد السماط وكان شيء يدهش العقول، وعزم بني دريد وأكابرهم، فحضروا ودخل نصفهم وجلسوا على الطعام، وبقي النصف الآخر على ظهور الخيل، وفي تلك الساعة ارتفع الصياح من كل ناح، ووقع الصوت في بني هلال، وارتجت الأرض فدقت الطبول وارتفعت الرايات وزلغطت النسا، فسأل دياب عن الخبر، فأخبروه بما جرى من اليتامى، وأنهم نهبوا البوش وقتلوا الرعيان وطافوا على البلد من كل مكان، فعند ذلك أرسل دياب إلى ابن أخته بريقع، جواباً يهدده بالقتل إن لم يرجع البوش، وبعثه مع نجاب، فأخذه وسار إلى بريقع وأعطاه الكتاب، فقرأه وقال: إن خالي خرفان ومراده أن أردَّ له البوش ونحن لا نرضى بالبوش ولا بأخذ روح دياب، ثم أشار الأمير بريقع يرد الجواب، فلما قرأه دياب امتقع وتكدر ورد عليه بكتاب، ثم طوى كتابه وختمه وأرسله إلى بريقع، ففضه وقرأه وعرف رموزه، فأمر بالركوب، فركبوا اليتامى ودقوا طبول الحرب وتقلدوا بسلاحهم ونشرت بيارقهم وزغردت لهم النساء وانضم لهم قومهم بنو دريد وبنو زحلان.

ونزلت بنو زغبي إلى الميدان يتقدمهم دياب وهو من الكبر صار شعره أبيض، فانتصب ميدان الحرب، فبرز إلى الميدان فارس من بني زغبي اسمه الدهام، وطلب مبارزة الفرسان، فقالت الجازية: ما أحد ينزل إلى هذا الفارس غيري، فقالوا: هذا

عار علينا وإذا نزلت له نخاف عليك لئلا تقتلي، فقالت لهم: ما ينزل إلى هذا الفارس غيري، قال الأمير شيبان: اتركوها تبرز إلى هذا الفارس ونحن نقف بالقرب منها، فإن رأيناها مغلوبة ساعدناها وإن رأيناها غالبة تركناها، فبرزت الجازية إلى الميدان وهي مقلدة بالسلاح والدرع، فتلقاها الأمير دهام وصار بينهم كر وفر وطعن يقصف العمر، وضربت هامه أرمت رأسه قدامه، فوقع قتيلاً وفي دمه جديلاً، فاغتاظ دياب وقال: من هذا الفارس الذي قتل فارسنا واليتامى ما فيهم فارس إلا مخيبر بن أبي زيد، ومخيبر مات في بلاد الكوع، ثم برز من بني زغبة فارس اسمه أبو حمزة بن الأقرع صدم الجازية وضربها بالرمح، فخلت عنه وضربته بالرمح في صدره طلع من ظهره فوقع قتيلاً فقالت بنو زغبة: ما لهذا الفارس يا أمير سواك؟ فعند ذلك برز الأمير دياب إلى الميدان وقال: من أنت أيها الفارس المفتخر بنفسه على أبناء جنسه؟ فقالت له: أنا ابن هذا الميدان، فما لك وللسؤال؟ فقال لها: أنا لا أقاتل إلا من كان حسبه مثل حسبي ونسبه مثل نسبي، فقالت له: أنا أكثر منك حسباً ونسباً، أنا الجازية أخت الأمير حسن، وقد جئت لآخذ منك بالثأر، فضحك دياب حتى استلقى على قفاه، ثم قال لها: أنا لا أقاتلك لأنه عار علي أن أقتل امرأة، وإذا قتلتك يقول الناس دياب يحارب امرأة، روحي أرسلي الأمراء، فقالت له: ما أروح من هنا حتى أحاربك، يا خائن يا غدار وما جزاؤك إلا قطع رأسك..





فلما سمع دياب كلامها لعبت برأسه نخوة الرجال وضربها على جبينها، فوقعت على الأرض ميتة، فندم عليها ورجع من الميدان وقال: ما كان لازم نقتلها، وأما اليتامى فأخذوا الجازية، كفنوها وعملوا عليها مناحة عظيمة، بكى عليها القريب والبعيد، وفي ثاني يوم برز بريقع إلى الميدان، فبرز إليه دياب والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى فوق رأسيهما غراب البين، فقام دياب بعزم الركاب وضرب بريقع بقفا يده، أرماه إلى الأرض، ثم صار يضحك عليهم ويقول في نفسه: لولا وصية أبي زيد لي كنت أفنيتهم عن آخرهم، ولكن خليهم يعرفوا مقام أنفسهم، وأما اليتامى فإنهم رفعوا بريقع واحتاروا في أمرهم ماذا يفعلون، فاجتمعوا عند ماجد يتشاورون فقال لهم ماجد: الرأي عندي أن تهجموا عليه هجمة واحدة ولا بد ما تصيبه ضربة فيقع على الأرض، فلا تتركوه حتى يموت، فقالوا: هذا هو الصواب، وفي الصباح برزوا يطلبون الحرب والكفاح ودقوا الطبول وتقدم بريقع أمام الجميع، فلما نظرهم دياب ضحك وقال: والله مرادي أقاتلهم بلا درع، فبرز دياب بلا درع وما معه إلا السيف والترس، فالتقاه الأمير بريقع ووقع القتال وانحدفوا اليتامى مرة واحدة، فالتقاهم وصاح فيهم صيحة ارتجت منها الجبال وأراد أن يضرب بريقع بالسيف يقطعه قطعتين، فطوحه صبي بالرمح من بعيد وقع في جنبه فمال دياب على الأرض من عظم الألم، فعند ذلك تقدموا إليه وقال له بريقع: كيف حالك الآن؟ فقال دياب: أنا شبعت من الدنيا وكل موتة ولها سبب وأشكر الله الذي مت قتيل أولاد حسن وأبي زيد ولا قتلني أحد غريب، ثم غاب عن الوجود مقدار ساعة ثم أفاق يودع الدنيا ويقول:

يقول الفتى الزغبي دياب المفارق    سبحان ربي مالك الملكوت
سبحان رب العرش جل جلاله    له الحمد والإحسان والمثبوت
سبحان من أنشأ من الطين آدم    وخرت له الأفلاك بعد خبوت
سبحان من خلق الخلائق جميعها    وعلمهم حسن الكلام أو صموت
خلقهم وتكفل تقسيم رزقهم    وكل له أجل ورزق وقوت
هلال وعامر مع دريد وزغبي    إذا شافهم إنسان غدا مبهوت

فكم من ملك جاهم وكم قبيلة | وراحوا من يد هلال شتوت
ندمت على فعلي بهم ندامتي | على ما جرى لي وفات الفوت
قتلت إمارتهم وأخذت بلادهم | وكم ملكت عروش وتخوت
عشرين تخت منهم ملكتها | مرصعة بالدر والياقوت
أيا نار قلبي من فراق أبو علي | وأبو زيد تغلي كالمياه وزيوت
أنا مفارق الدنيا وذاهب لغيرها | قصدت رباً حاضراً ليس يموت

فقال بريقع: هذه السكين التي ذبحت بها أبي، فقطع بها رأس دياب وتركه ورجع، فأتى قوم دياب فأخذوه وأكثروا عليه البكاء والعويل ومزقوا ثيابهم ورفوا البيارق السود، واجتمع الأمراء من كل ناحية وحضر الأمير بريقع وإخوته، فأخذوا خالهم ودفنوه بعد أن بكوا عليه وعادوا إلى بني زغبة فوجدوهم طائعين سامعين وجلس بريقع ملكاً على بلاد الغرب وراقت له الأحوال وأقام أولاد شيبان ورزق وزراء عنده، وما سأل عن أولاد خاله دياب، أما نسرين زوجة دياب فإنها لما قتل زوجها، قالت لابنها: لا بد وإن أولاد عمك يعملون حيلة عليك ويقتلونك ويرتاحون من نسل دياب. لأنهم يخافون منك لئلا تأخذ ثأرك منهم، فقم اركب الشهبا لنذهب عند أحد من أصحاب أبيك، لبينما يصير وقت مناسب لأخذ الثأر، فركب نصر الدين على الشهبا وأردف أمه وراءه وخرجا من البلاد حتى وصلا إلى غدير تحت جبل وعليه رعيان تسقي جمالها والبنات والنسوان تلعب حواليه، فحول نصر الدين بوالدته فأكلا وشربا، ورأى نصر الدين على المنهل صبية كأنها شمس منيرة بعينين زرقاوين وحاجبين مقوسين، شفتاها كالعناب، تسلب من رآها بحسنها ودلالها وقدها واعتدالها، فطار عقله وأخذت قلبه، فتقدم وخاطبها بقوله:

يقول نصر الدين من ولد غانم | يا مرحباً في نجمة المصباح
أهلاً وسهلاً ثم ألفين مرحبا | فالعقل يا مليحة معك راح
بالله أخبريني يا مليحة بأصلك | وعن قومك عساهم قوم ملاح
لأن قلبي يا مليحة انكوى | وجسمي انضنى وقلبي مني راح
وإن سألتي يا مليحة نسبتي | اسمي نصر الدين الفارس البطاح
أبوي تري دياب الماجد المنتخب | جرى صيته في برها وبطاح
جاروا علينا أهلنا يا مليحة | قتلوا أبوي كان عزه لاح
وصرنا ضيوف الخيرين بأرضكم | حتى إلهي يخفف الأتراح
ردي جوابي يا مليحة بالعجل | أخذت العقل مني مع الأرواح

فلما فرغ نصر من كلامه والصبية تسمع نظامه، بكت لحاله لما عرفت أنه ابن

أكبر فرسان الزمان وأحبته، ثم أشارت تجاوبه وتقول:

| | |
|---|---|
| قالت فتاة الحي باني التي شكت | جرى الهوى خلى الفؤاد شعال |
| حبك يا نصر والله أضناني | وادعى لقلبي فوق نار هبالي |
| أنا بنت صالح يا أمير بلا خفا | أبوي أمير فارس قتال |
| أبوي أمير ابن أمير وأميرة | حاكم على المكناس بالإجمال |
| أيا نصر أنا وحيدة عند أبي | ربيت في قومي بعز ودلال |
| هيا بنا يا أمير نحو نجوعنا | وحبك بقلبي ليس منه زوال |
| وارحم فتاة يا ابن ولد غانم | تعلقت بالحب عامدا الأجيال |
| ونقضي بقايا العمر سوية | ونعيش في خير وصفوة بال |
| مقال فتاة الحي باني التي شكت | نار الهوى شبت بقلبي أيا مفضال |

فلما فرغت الست باني من كلامها، تقدمت أمه إلى باني وقبلتها وقالت لها: اذهبي إلى أبيك وأخبريه بحالنا، فإن أراد أن يرسل يأخذنا لداره لأن ذهابنا معك يشين بعرضك، فودعتها وسارت إلى أبيها وقالت له: يا أبي وجدت على الغدير امرأة غريبة ومعها ولد هو ابن دياب، وهما قاصدانك من بلاد بعيدة، فلما سمع الأمير صالح كلام ابنته، أخذه العجب؛ لأن دياب كان خلص له امرأته من بعض أمراء العرب وقتل له خصمه وبقي حافظاً له هذا المعروف، ولذلك أمر العبيد أن ينصبوا صيواناً أمام صيوانه، وركب في مائة فارس وسار إلى الغدير وتقدم إليه الأمير نصر الدين وقبل يديه وقبله صالح وقال: أهلاً وسهلاً بابن الأمير دياب، ثم أركبوا أمه في هودج وسار نصر الدين على شهبا، وصار الأمير صالح لا يرفع عينيه منه لأنه رآه جميلاً جداً وعلامة الفروسية لائحة عليه، ولما وصلوا لاقتهم البنات باحتفال زائد، فنزلوا بالصيوان الذي نصبوه وكان مفروشاً بالحرير ومزركشاً ومزخرفاً، ولما استقروا للراحة حضر الطعام والمدام وباتوا تلك الليلة منشرحين مسرورين، وثاني يوم اجتمع الأمراء والأعيان عند الأمير صالح، فأتى بهم إلى صيوان نصر الدين، فقام لهم على الأقدام ولاقاهم بالترحيب والإكرام، وبعد أن جلسوا أخبرهم نصر الدين بقصة والده، فبكى الأمير صالح، وصاروا يعزون نصر الدين، وقال له الأمير صالح: لا تتكدر يا ولدي، فمن خلف مثلك ما مات، واصبر على حكم الله، والآن حيث إني كبرت وما عاد لي اقتدار، فمرادي أن أنصبك مكاني حاكماً على العشيرة، وقد زوجتك ابنتي بلا مهر، فتعجب الأمير نصر الدين من كرم الأمير صالح ووثب وقبل يديه وشكره على معروفه، ثم انصرفوا وصار الأمير صالح يهيء لوازم العرس، وأرسل إلى جميع القبائل يدعوهم إلى عرس ابنته، فتواردت العربان من كل جانب

ومكان، وأقاموا الأفراح والليالي الملاح ودقت الطبول ونفخت الزمور وعين الأمير صالح مدة العرس أربعين يوماً، فنحروا النوق والأغنام ودارت ليالي الأفراح، ونهار الأربعين بنوا صيوان الأمير نصر الدين وألبسوه حلة من الحرير وأجلسوه على كرسي من العاج وقام الميدان ولعب الجريد بين الأبطال، وعند المساء أخرجوا العروس وهي كالشمس المنيرة وعليها من الجواهر ما يبهج الأنظار وركبوها على هودج عال من الحرير المقصب، وبعد أن طافوا بها أدخلوها على صيوان نصر الدين، وأتى القاضي والشهود وعملوا الفروض الدينية، ثم انصرف الجميع وبات نصر مع العروس في هناء وسرور، وبعد ذلك جلس نصر الدين حاكماً على القبيلة عوضاً عن الأمير صالح، وباركت له الأمراء والأعيان وصار يتعاطى الأحكام ويعدل في الرعية ويوهب ويعطي الشعراء والفقراء، حتى أحبه القريب والبعيد وصارت تنقل ذكره الشعراء من مكان إلى مكان ويوصفوا جوده وكرمه، وصار يركب إلى الغابات يصطاد الأسود والفهود ويسطو على كل عاص ونمرود، حتى طاعت لحكمه كل القبائل وصار له اسم وهيبة أعظم من أبيه.

(قال الراوي): هذا ما كان من نصر الدين، وأما ما كان من الأمير بريقع ملك تونس، فإنه بعد قتل الأمير دياب كثر ظلمه وطغى وبغى وتكبر، ولا عاد يفكر بين الأمير والفقير وأكثر جوره على بني زغبة، وانعكف على معاشرة النسوان واللهو، ولما أعياهم الأمر، اجتمعوا عند الأمير خطير، أكبر أمراء بني زغبة وقالوا: ما عاد لنا طاقة على ظلم أعدائنا وهم دائماً يتسلطون على أموالنا وحريمنا، قال: يا قوم أنتم عملتم بحالكم هذا العمل لأنكم تهاونتم وما أحد منكم شهر سيفاً لأخذ ثأر الأمير دياب، ولا يفرجكم من هذا الضيق إلا الأمير نصر الدين، فالأوفق نستخبر عنه في أي أرض ونستدعيه ويستلم قيادة الفرسان، فقالوا: افعل مرادك، فكلف الأمير خطار شاعراً خبيراً بالبلاد أن يسأل عنه، فقال: اعطوني رفيقين، فأعطوه واحداً اسمه حامد والثاني اسمه منصور، فلبسا ثياب الشعراء وصارا يطوفان البلدان ويمدحان الأمراء حتى وصلا إلى غدير ماء في بلاد الفاس والمكناس، فوجدا جماعة من الرعيان فسألوهم عن اسم أميرهم فقالوا اسمه نصر الدين ابن الأمير دياب، فلما سمع الشاعر ناصر هذا الكلام، كاد يطير من الفرح وقال له: بالله عليك يا بن العم دلنا على هذا الأمير، فنحن من عربه، فسار كبير الرعيان أمامهم حتى وصلوا، فوجدوا المجلس محبوكاً، فجلسوا في الخارج، فالتفت نصر الدين وجد الشعراء خارج الباب، فقال: تفضلوا يا شعراء شرفونا. فدخلوا فأمر أن يأتوا بالزاد فأكلوا وأحضر لهم القهوة، وبعد ذلك قال لهم الأمير نصر الدين: هاتوا أسمعونا ما عندكم

من الأشعار، فعند ذلك أخذ ناصر ربابته وراح يمدحه بشعر جميل.

فلما فرغ ناصر من كلامه خلعوا ملابس الشعراء وقالوا له: نحن أولاد عمك وقد أتينا بصفة شعراء لندور عليك في البلدان حتى تجيء وتخلصنا من ظلم بني هلال والحمد لله الذي وجدناك. فلما عرفهم نصر الدين وثب إليهم يسلم عليهم ويقبلهم وقال لهم: يلزم أن تبقوا عندنا ثلاثة أيام ثم تعودون وتبشرون أهلي أني بعد ثلاثين يوماً أكون عندهم فأقاموا عنده ثلاثة أيام خلع على كل منهم خلعة ملوكية وساق أمامهم الأنعام فأرادوا أن يستعفوا فقال لهم: لا بد أن تأخذوه لأني سمحت لكم وأنا لا أرجع بما أعطيت فأخذوا كل ما وهبهم وساروا يقطعون البراري والقفاز حتى وصلوا لبيوتهم فأتى بنو زغبي وسلموا عليهم ومعهم الأمير خطار وبعد أن شربوا القهوة سألهم الأمير خطار عن سفرهم فصار يخبرهم ناصر ويقول:

يقول الفتى ناصر عما جرى له ... يا قوم اصغوا للحديث اللي جرى
درنا بلاد الغرب والديار كلها ... حتى بلاد الفرس وأرض الكوجرا
رحلنا إلى مكناس في عشرا رجب ... لهم ملك والله سبع غضنفرا
أشقر ظريف القد حلو المباسم ... يشبه دياب الخيل يا أهل الورى
ما شفت مثله بالكرم يا أهل الكرم ... يجري عطاه مثل فيض الأبحرا
له صيوان وميتين أميراً حوله ... وألفين عبداً واقفة لتؤمرا
وميتين مملوكة أمامه تخدمه ... مثل الكواكب حسنهم ما أبهرا
يقضي ويمضي والأنام تطيعه ... مين الذي خالف كلامه يقهرا
دخلنا عنده بالمسا وقت العشا ... وأنا بصفة شاعر أحوالي منكرا
وبعد أن أكلنا الزاد وشربنا الشراب ... عدلت أنا ربابتي يا أهل الورى
وأخبرته عن قصتي وعن سفرتي ... وعن حالنا يا قوم واللي جرى
وثب إلينا وقال أهلاً ومرحباً ... أنتم عمامي أولاد عمي الأنصرا
وقال لي روحوا لأهلي وبشروا ... إلى عمومنا وأخوالنا والأصهرا
لازم أجيهم فوق شهبا مبرشمة ... تشبه إلى ريح الشمال إذا جرى
وأقتل عدوي واشتفي من قتله ... وافني أكابرهم كذاك الأصغرا
أنا نصر الدين ما في غبا ... أدعي الفوارس بالحروب مقهقرا
أوهب لنا هذه الأموال جميعها ... تعجز ملوك الأرض عنها وتقصرا
يا آل زغبي أبشروا في سعدكم ... قد غاب نجم النحس عنكم واندرا
شدوا حزام خيولكم يا قومنا ... جانا الفرج من عند ربي مقدرا

فلما فرغ ناصر من كلامه والزغابة تسمع نظامه، طاروا من شدة الفرح وشكروا

ناصر، ودارت الأفراح وأخذوا يهيئون حالهم، وفي اليوم المعين خرج الأمراء إلى خارج البلد، وطلعوا إلى تل ونظروا إلى البر، فرأوا غباراً فصبروا حتى انجلى على فارس راكب، شقرا كأنها البرق، ووصل إليهم فقالوا له: من أين قادم؟ قال: من عند سيدي الأمير نصر الدين، وسبب قدومي لأبشر بني زغبي بتشريفه في هذا النهار، فعند ذلك أعطوا الخبر لجميع بني زغبي، فخرجوا في تسعين ألف فارس في الحديد غواطس، ومعهم الراية البيضاء التي كان ينشرها دياب، فخرجت مشيخة الشباب بستين ألف فارس، وما بقي في تونس إلا بني دريد وبني زحلان، وجملتهم مائة وثمانون ألف فارس، وأما جملة الذين خرجوا للملتقى، فمائتان وأربعون ألف فارس، وأما العبيد والأولاد والنساء فلا يعلم عددهم غير رب العباد، ومشوا مقدار ساعتين فوصلوا إلى مكان واسع جميل المنظر، يدعى عين برشان، فنزلوا هناك إلا والغبار ثار، ثم انجلى عن بيارق مغربية وخيول شامية وفرسان مكناسية ورماح خطية وسيوف عجمية ودروع داودية وخوذ سلمانية وطوارق هندية، وفي أولها فارس طويل القامة، عريض الأكتاف، أشقر اللون أزرق العينين، وعلى رأسه خوذة من عمل الهند وعلى كتفيه رمح طويل مكعب، وعلى يساره سيف ثقيل وتحته شهبا كأنها بنت الخضرا الأصلية، وإذا هو البطل الرئبال الملك نصر الدين ابن الملك دياب الذي خضعت له صناديد الرجال، وعلى يمينه عمه الملك صالح وعلى شماله ابن الأمير صالح الأمير الحازم والليث الجازم، ومن ورائه عشرون راية وتحت كل راية خمسة آلاف فارس، فلما وصلوا نزل نصر الدين على عين برشان، وأخذ يسلم على كافة الفرسان، وبعدها أمر بنصب الخيام، فنصبوا له وإلى عمه صيواناً من الحرير الأخضر على خمسمائة عمود من النحاس الأصفر، في أعلاه تفاحة من الذهب الأحمر وفي داخل الصيوان نقوش من تواريخ الأولين، وعليه صور ملوك سالفين، فجلس نصر الدين على كرسي من الذهب وجلس عمه عن يمينه وابن عمه عن شماله، وقعدوا أمامه والخدام بين يديه، هذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من بريقع بن حسن فإنه اجتمع مع وزيره شيبان، وقال له: أرى اليوم بني زغبة خرجت خارج البلد في ضجة عظيمة، فما يكون في ذلك؟ فقال: ليس لي علم بشيء، وهم في الحديث دخل عليهم عبد وقال: اعلم يا ملك الزمان أن فرساناً أتوا من بلاد الغرب، يتقدمهم فارس عظيم، وخرجت بنو زغبة لاستقباله واجتمعوا على عين برشان وسلموا عليه سلام الإخوان، فلما سمع بريقع ذلك الكلام، قال لشيبان: من يكشف لنا خبرهم؟ فأرسلوا جاسوساً، فسار ودخل بين زغبة وعرف الأمير وعاد، فأخبر بريقع، فعند ذلك صاح بقومه عليهم، أيها الأبطال، ثم أمر بدق الطبول ونادى على الفرسان

تعتلي فوق الخيل والتمت الفرسان وركب الشجعان، وأما بريقع لبس درع أبيه و تقلد بالسلاح وركب بنت الحيصا، وشيبان عمل مثله وخرجوا من تونس في مئة وثمانين ألف فارس، ولما قربوا إلى عين برشان، ركبت الفرسان الخيول ووقعت العين على العين واصطف العسكران وبرز شيبان بن أبي زيد إلى الميدان، فنزل إليه الأمير الجازم وصدمه صدمة جبار فتلقاه شيبان فتلاطما وتزاحما حتى طلع من الاثنين ضربتان قاطعتان فكان السابق في الضربة الأمير جازم، فطعنه بين البزين، طلع الرمح من بين اللوحين، فوقع إلى الأرض يتخبط ببعضه، فلما رأى بريقع أن شيبان قتيل، نزل إلى الميدان وطلب مبارزة الأبطال، قال: لا أريد أن ينزل لحربي غير أميركم، فما أتم كلامه حتى صار نصر الدين أمامه، فالتقيا كما تلتقي الأرض العطشانة وابل المطر وصار الأمير نصر الدين يفتل حول بريقع في الشهبا مثل حجر الطاحون، وأما بريقع وجد حاله مع خصمه مغلوباً فصار يغتنم فرصة ليفر من أمامه ولكن نصر الدين لم يمكنه من ذلك بل هجم عليه وقال: إلى أين يا كلب العرب وأنا وراءك في الطلب؟! وجذب سيفه الظامئ وقال: الله أكبر! ونزل به على بريقع قسمه هو والجواد أربع قطع، وأشار بيده فانطبقوا على بني زحلان، فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماءً فائرة وفرساناً غائرة، فما سلم في تلك الواقعة سوى أربعة واحداً من قوم زحلان، فعندها دخل نصر الدين إلى تونس وطلع إلى قصر أبيه وتسلطن على كل الغرب، وصفت له الأحكام وطاعته كل الأنام، وما زالوا في بسط وانشراح، مرتاحين من الحروب حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات.

**«تمت قصة تغريبة بني هلال»**

# المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

